

کتابخانه صیفیہ سرکار عالی حری آباد دکن

۲۲۳۸۸

نمبر دہندہ

تاریخ دہندہ

نام کتاب بحوالہ جمعہ و اسمیاء من معدنیات

نمبر کتاب

ترتیب

نمبر کتاب من مذکور

۱۸۹

21-6  
SIA



# جولت في نوح اسبينا بين مصر واليابان



من مشاهدات سائح مصري

محمد زكي

- رس أول عاوم الاحكامه مدرسه العمه اوله

١٩٥٤ مكتبة المحمديه ٥٠ ح

« الطبعه الثانيه »

.....  
طبعة لبيد اليافاندر

١٩٣٦ — ١٩٥٤



## مقدمة

هأنذا أقدم للوطن الحبيب ولأبنائه المخلصين أولى جولاني في ربوع الشرق بعد أن تقدمتها (جولتي في ربوع أوروبا) راجاً أن أكون قد أصت بعض الشيء في تفهم تلك الشعوب التي تربطنا بها روابط عريقة ووقتها العاطفة ، وأنى لأصورها هنا كما رأيتها عين مصرية شرقية غير مفرصة ، لا تبتغي من وراء ذلك إلا النفع .

ولقد حاولت جهدى استقراء عناصر نهوضها وقعودها علماً نستشير بطرائقها للوقفة فهتدى ، وعسانا نعتبر بما أصابها ، فنأمن العثار الذى يهدد الأمم فى فجر نهوضها وطور انتقامها ، ونحن أحوج ما نكون للمثل العليا نترسم خطاها — ولنا فى اليابان أسوة حسنة فلنسلك نهجها ، ولنا فى الصين وما يحوط نهوضها من قذى وسناك أكبر العبر ، سددها الله خطانا ، وهدى الوطن وأبنائه سبيلاً رشداً ما

## مقدمة الطبعة الثانية

لقد كانت رغبتي الأكيدة ، يوم بدأت جولاتي ، في ربوع الدنيا ، أن أدرس شعوب العالم ، وأندسس إلى الصميم من حياتهم ، لأخلص إلى ما يسود بينهم من الأخلاق والعادات ، وقد كنت أصدر عقب كل « جولة » كتاباً يضم مشاهداتي عن البلاد التي زرتها .

وكم كان سروري عظيماً أن نهافت أبنائي البررة وزملائي الكرام على اقتناء هذه « الجولات » ، حتى نفذت الطبعة الأولى ، وهأنذا أحقق اليوم رجاء الكثيرين ممن لم تسعد « جولاتي » بشرف اقتنائهم لها ، فأقدم الطبعة الثانية ، بعد أن أعملت فيها يد التهذيب ، وأضفت إليها من مذكراتي بعض ما كنت قد أغفلت نشره في الطبعة الأولى .

وإني لسعيد إذ أرى « مصر » تسمو بدراسة الجغرافيا إلى العناية بوصف الشعوب وحياة الإنسان ، تلك الناحية التي قصدت إليها جولاتي هذه .

وقد زادني غبطة ما لاحظت من أن كثيراً من الإخوان تتجه عنايتهم إلى الرحلات ، حتى لقد تحدثت إلي في ذلك غير قليل من حضراتهم ، ولعلمهم بحرصون على تدوين مذكرات ينشرونها بعد عودتهم ، حتى نستطيع بجولاتهم وجولاتي أن نرف إلى أبناء هذا الوطن العزيز ، باقته العربية « كتاب الدنيا » بطالون فيه أحوال شعوب تقدمت ركب الأمم ، وأخرى تخلفت ، وعسى يكون لنا من هذه « حسن العبر » ، ومن تلك أجل الأثر

# الهند



## نبذة تاريخية : قصة

الهند سلسلة من غارات شنها أقوام متعاقبون وفدوا من الشمال الغربي وبخاصة عن طريق بحر حيدر وأخضعوا البلاد لسلطانهم .

ويتلخص تاريخ الهند في

عصور ثلاثة : عصر الهندوس بين

٢٠٠٠ ق م و ١٠٠٠ م والعصر

الإسلامي بين سنة ١٠٠٠ و ١٧٥٧ ،

وعصر سيادة الأوروبيين ويبدأ

من سنة ١٧٥٧ .

## العصر الهندوسي :

ولا نعرف مبدأه بالضبط ، وغاية

ما نعرف أن كثيراً من الشعوب

طريقنا إلى الشرق الأقصى يناهز ٨٠٠٠ ميل ذهاباً ومثلها إياباً ، وهنا البلاد التي حللتها في الهند وبعض اللغات السائدة وضع تحتها خط

الآرية لبشوا يهاجرون من بلاد الفرس وأواسط آسيا واحتلوا شمال الهند وأخضعوا

السكان الأصليين . ولقد اعتدنا مما ورد في بعض الأساطير أن هؤلاء كانوا

« شتغافين بالزراعة وأن الرباط العائلي كان ميثاقهم الاجتماعي منذ البداية ولم يكن

لهم معابد ولا أنصاب ، وغاية ما هنالك أن رؤساء الدين منهم كانوا يوقدون النار

المقدسة كل في حظيرته ويقدمون القرابين من أغذية وغيرها لنور آلهتهم اعترافاً

بفضلهم ، وكانوا في صلاتهم يتوسلون أن تنصر الآلهة النبلاء الآريين على ذوي



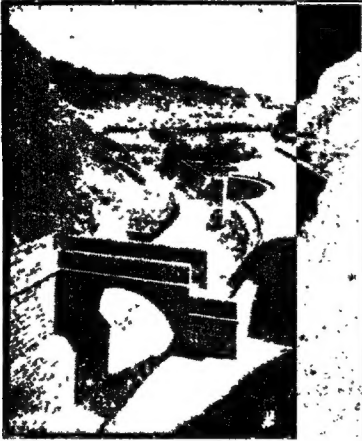
البشرة السوداء ، ومن ذلك نستنتج أن فوارق الألوان والطبقات نشأت في الهند منذ القدم .

ولم يتقدم الآريون في فتحهم إلا في الشمال حتى جبال ( Vindhya ) ، وقلما تخطوا هذه إلى الدكن حيث كان يقيم جماعة ( الدرافيديين ) الأشداء الذين كانوا على جانب من الحضارة . أما في حوض الكنج فقد ترعرعت دول كبيرة قامت على أكتاف القبائل المتفرقة . ولما أن فتح الاسكندر الهند سنة ٣٢٦ ق م وحد أمامه عدداً من الدول والقبائل المستقلة ، وكان للملك الذى قهره أدوات حربه وقيلة وخيل ورجل .

بعد ذلك قامت دولة قوية في حوض الكنج تحت حكم شندرا جوبتا ( chandragupta ) وسع ملكها ما بين الشاطئين ولبثت سيادتها ١٥٠ سنة ومن عواهلها الامبراطور الزاهد أسوكا ( Asoka ) الذى قرأنا مراسيمه التى نقشت على الصخور إلى جانب تعاليم جوتاما بودا الذى بدأت تعاليمه الخلقية قبل ذلك بنحو ٢٥٠ سنة ، وبفضل هذا الإمبراطور ساد مذهب بوذا في الهند وانتشر منها إلى الصين ، وبعد انحلال الإمبراطورية المورية ( Mauriyan ) أعار السنديون على البنجاب ولبثت ولاياتهم هناك حتى أعقبهم أسرة تركية عرفوا بملوك الكوشار ( Kushan ) وهؤلاء فتحوا البلاد إلى بنارس شرفا .

وفي القرنين الرابع والخامس الميلادى ساد قبائل الآريين تحت ملوك جوبتا ( Gupta ) ، وهذا يعد العصر الذهبي للهندوس ، إذ بعده بدأ يتشتت شملهم بدخول الهون ( Huns ) سنة ٤٨٠ ، وهؤلاء زالت دولتهم تماماً بعد ٣٠٠ سنة حين ساد الاضطراب فقام بعض قبائل الراجبوت ( Rajput ) وأقاموا لهم دولاً متفرقة حول غالب المدن الهندية الكبرى على أن التنافس والتناوب بينهم لم يمكنهم من تكوين جبهة متحدة أمام الفتح الإسلامى الذى بدأ سنة ١٠٠٠ ميلادية .

العصر الإسلامى : لما أن اعتنق سكان وسط آسيا الإسلام فامو'



بدعاتهم الدينية  
يقتحمون بلاد العالم بما  
أوتوا من شدة وبأس ،  
ولبثت جموع الترك  
والأفغان والمغول تغير  
على الهند من ممر خير  
وتقاتل لبسط نفوذها  
هناك خمسمائة سنة ،  
وأخيراً أقام بابر  
( Baber ) التركي دولة  
المغول سنة ١٥٢٦ ،  
فحكم هؤلاء الملوك  
الهند حكماً مطلقاً لمدة

( شكل ١ ) منودع المياه ذائع الصيت في عدن

١٨٠ سنة كانوا خلالها مثال البأس الشديد ، وبلغوا من الترف ما أدهش العالم ،  
تشهد بذلك مبانيهم الفخمة وحاشيتهم الفاخرة ، وكان عصرهم الذهبي في عهد شاه  
جهان ( ١٦٢٧ — ١٦٥٨ ) وقد استخدموا الهندوس والراجبوت في الأعمال المدنية  
( خصوصاً الزراعة ) والعسكرية ، وبدأت دولتهم تنحل لما أن عجز ( أورأنجيب )  
عن رد قبائل الماهاراتا من شعوب الدكن الشرسة ، وكاد يعود النفوذ للهندوس  
حتى باغت الهند جيش فارسي من ممر خير وأباد قوى الهندوس .

**العصر الإنجليزي :** بينما كان هذا الاضطراب الداخلي سائداً تقدم  
الفتح الأوربي من البحر فأسس تجار البرتغال وهولندا وفرنسا وإنجلترا لهم محطات  
تجارية . ثم تأسست شركة الهند الشرقية سنة ١٦٠٠ لتزيد الموارد التجارية ،  
وقد مكنت سيادة الأساطيل البريطانية الإنجليز أن يغلّبوا منافسيهم ، وكان

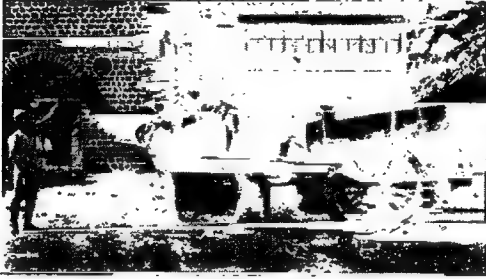
الاضطراب الذى حل بالامبراطورية المغولية فى داخل الهند مبرراً لتدخل الإنجليز تحت ستار متاجرم فُهرزم نواب بنغاله سنة ١٧٥٦ ونواب أوده سنة ١٧٦٤ وبدأت الشركة تبشر السيادة السياسية إلى جانب التجارية كى تحافظ على المقاطعة الشاسعة (بنغاله) ولكثرة مشاغلها السياسية وحروبها تدخل البرلمان الإنجليزى فى شؤونها ، فحفظ لنفسه حق الإدارة والتشريع ، وكان للشركة تعيين الحاكم العام وفى سنة ١٨١٧ خضعت طوائف الهراتا ، وفى سنة ١٨٤٥ أمم السيخ ، وأعقب ذلك عصيان سنة ١٨٥٦ الذى ضمت على أثره الهند للتاج البريطانى .

## الى عدن وأرض سرنديب

ما وافت الثالثة من مساء الخميس الرابع من يونيه سنة ١٩٣٣ حتى أقلعت بنا الباخرة اليابانية (سوامارو) تسير الهوينا وهى تشق مياه قناة السويس جنوبا وكانت بين آونة وأخرى تقف متتحية جانبا لتفسح المجال للباخر التى كانت وافدة من الجنوب خشية أن يحدث مرور السفينتين معاً تفرقاً فى الوسط يدفع بهما إلى التصادم ولم نصل السويس إلا الخامسة صباحاً وبمدها أوغلنا فى خليج السويس ولبثنا بجانب الشاطئ المصرى وكانت ذرى جبال سيناء المقدسة ترى فائرة إلى يسارنا وفى السادسة مساء أتيننا على آخر الخليج وأوغلنا فى البحر الأحمر الصميم وكان بدء خليج العقبة يبدو على بعد مناجة الشرق وكانت أسراب السمك كبير الحجم تقفز من حولنا ولبثت تهاجنا جموع الجراد فى كثرة مخيفة رغم أننا كنا نبعد عن الصحارى المجاورة بمسافات شاسعة وسرعان ما شعرنا بزيادة محسوسة فى درجة

---

ملاحظة — نرى أن كل الفارات التى فتحت الهند وفدت عن طريق ممر خيبر أمنع المار الطبيعية فى الدنيا ( إذا استثنينا قنوج البرتغال وهولندا وفرنسا وانجلترا التى جاءت عن طريق البحر ) ، تذكر من بينها فتح الاسكندر سنة ٣٢٦ ق م الذى خلف فى الهند أثر الحضارة الاغريقية ، وجنكيز خان ، وإن لم تعد فوحه هناك جهة الهند وتيمورلوك الذى تهدم إلى دلهى وفى القرن السادس عشر جاء خلفه بابر فأسس دولة الغول التى ظلت إلى أن جاء حكم الانجليز .



( شكل ٢ )

الماء العذب ثمين في عدن المجدة وهو يوزع بالرباب وياع في الموانيت

الحرارة في الهواء والماء وظلت تتزايد باضطراد في شدة لا تحتمل حتى تضايقت أنفاسنا ولم نستطع النوم ليلتين كاملتين ، وليس في الهواء من نسمة تنعشنا بمض الشئ . بل ظل الهواء طوال أيامنا الأربعة في البحر الأحمر راكداً خافقاً ، وكانت حرارة الماء أشد من حرارة الهواء خصوصاً عند عودتنا في سبتمبر ، وتلك بقية من وهج يونيه حفظتها المياه لأنها رديئة التوصيل للحرارة ؛ ولقد استنجدت بنا سفينة أرهق ركبها الحر حتى أشرفوا على الهلاك لافتقارهم إلى جانب من التاج تسلمنا برقيتها اللاسلكية لكننا لم نستطع معاوتها لحاجتنا نحن إلى ما كان عندنا من جليد ؛ وأذكر أني ورفاقي كنا نسمي البحر الأحمر على سبيل التفكهة ( Bloody Sea ) من شدة ما قاسينا من حرقيله ، وكانت تبدو على بعد ازاء شواطئه جزائر صخرية مجدبة يكاد يحرقها لفتح الشمس ؛ وفي مساء اليوم الرابع دخلنا بوغاز باب المندب ومررنا بجزيرة برم الانجليزية في وسطه وما كدنا نبرحها داخلين في خليج عدن حتى تنسم الجو وشعرنا باتعاش كبير وبعد ذلك بساعات أقبلنا على :

عدن : فرسونا في تقوس من البحر تحفه الصخور القديمة العاتية من  
الشبيست المهشم في حمرة قائمة أو سواد منكر عريت عن التبت في كل مكان .  
استقلينا الزورق الصغير ونزلنا الشاطئ وعلى امتداده تقوم الأزال والمباني الرئيسية  
وفي طرفها الجنوبي المسكرات والمعازل التي اختير من أجلها المكان ، فكان مفتاح  
البحر الأحمر ، وقد أقلتنا سيارة عشرة كيلو مترات إلى الحى الوطنى المترب التقدر  
بعد أن اخترقنا ممرا بين الربى كأنه النفق يعلوه سور قديم يمتد بعيداً ، وكان طريقنا  
يعلو ويهبط بين ربى ووهاد صحراوية مجذبة ، والحى الوطنى هو عدن الحقيقية في  
وهدة أصلها فوهة لبركان خامد بيوتها واطئة ومن طابق واحد ، وتعلو باللون  
الأبيض ، وفوق المرتفعات رأينا مستودع المياه الذى يمد المدينة كلها وهو بمرشحاته  
وأحواضه يشغل مساحة كبيرة ، ويطلق عليه القوم ( حوض سايمان ) ظنا منهم أنه  
قديم يرجع إلى ذاك العهد ، وبعضهم يرى أنه بنى سنة ألف قبل الميلاد ؛ ولقد  
أصلح سنة ١٨٥٦ ولما كان المطر هناك نادرا والماء عظيم القيمة حافظ القوم على  
كل قطرة تسقط منه فيسيل المطر في وديان وأخاديد جافة تؤدي إلى الحوض ،  
وأنت ترى سلسلة من أحواض الواحد فوق الآخر بحيث إذا امتلأ أعلاها فاض  
الماء إلى الثانى ثم الثالث وهكذا ويسع في مجموعه ثمانية ملايين جالون ، والحوض  
الأعلى يتصل بمجموعة من آبار في قرية تبعد عن عدن بسبعة أميال ، وقد لا يفي  
كل ذلك بحاجة المدينة من الماء فيرشح ماء البحر لسد العجز ، وغالب ماء الشرب  
من تقطير ماء البحر لأنه أبقى وأبعد عن التلويث وعلى شاطئ البحر مكان للملاحات  
يرفع ماء البحر بمضخات فيتبخر ويطرح الملح فيستغلونه ويصدرون كثيراً منه ،  
وكنا نرى على بعد بقايا لسكة حديدية كانت تصل عدن باليمن لكنها هدمت لأن  
إمام اليمن أبى عليهم بقاءها ، وفي تقوس من البحر تاتي جهة يسمونها ( الشيخ عثمان )  
غنية بالمزارع ومن خلفها تبدو جبال اليمن فاترة ، وسكان عدن ٣٥ ألفاً غالبهم من  
العرب بقاماتهم النحيلة ووجوههم الشاحبة ، ثم الصوماليون بسنهم الجميلة في



سواد براق وأنوف شماء وشفاه  
رقيقة ثم يليهم الهنود ، ولغة  
البلد السائدة العربية بتحريف  
بسيط ويتكلم غالبهم الإنجليزية ؛  
وعدن حامية بريطانية عليها  
حاكم يتصل بحكومة الهند ،  
وتقودها هي نفس النقود  
الهندية التي لا تزال تتخذ  
القضة قاعدة لها .

احتلها الانجليز سنة  
١٨٣٧ ولاحتلالها قصة عجيبه :  
ذلك أن سفينة انجليزية  
تخطمت على صخور عدن

( شكل ٣ ) آهـم من دخل عدن ويبدو السور القديم  
فوق الرئي الجديدة

فأساء أهلها معاملة من بجوا منها ، فأعقب ذلك أن طلبت الحكومة البريطانية  
شيئاً من الترضية والتعويض من السلطان فأجيبته مطالبا ، لكن السلطان قد  
مات وخلفه ابنه الذي لم يبر بوعده أبيه ، فلجأ الإنجليز إلى القوة وفتحوها عنوة  
ووضعوا فيها حامية صغيرة ، وزادت أهميتها بعد فتح سكة حديد السويس سنة  
١٨٥٨ ، ولما فتحت قناة السويس سنة ١٨٦٩ أصبحت محطة عسكرية هامة  
أذ عدت مفتاح البحر الأحمر خصوصاً بعد ما سارعت إنجلترا إلى احتلال جزيرة  
( يرم ) وسط بوغاز باب المندب ، وكانت فرنسا تتطلع إليها من قبل وأعقب ذلك  
احتلال الصومال البريطانى قبالتها ، لأنه المورد الرئيسى الذى منه تستمد عدن  
وبرم الصخريتان المجدبتان حاجتهما من الغذاء .

لبثت الباخرة طوال النهار تحمل وسقها من الجلود الخام وأقامت عند الأصيل

وكلا أوغلت بنا في المحيط الهندي أرغى ماؤه وعلا موجه كالجبال مما جعلنا نؤمن  
بعظمة المحيط الذى بدأت تبتاحه الرياح الموسمية دافقة صوب الهند في عنف كبير  
ولبتنا في شدته هذه ثمانية أيام حتى أقبلنا على جزيرة سيلان ، وكنا من يوم ركوبنا  
نلاحظ سرعة في اختفاء ضوء الشفق إذ كان الغلام الحالك يرعى سدوله عقب  
غروب الشمس مباشرة شأن سائر البلاد القريبة من خط الاستواء .

### جزيرة سرنديب

وفي باكورة اليوم الثانى عشر من مغادرتنا بور سعيد تجأت كولمبو بمينائها  
الكبير ، وقصورها السامقة في أحيائها الافرنجية ، وما أن بدت طلوع الحى الوطنى  
— وهو غالب المدينة — حتى راعنا منظر الناس البشع في مظهرهم القذر ،  
وجسومهم العارية ، وألوانهم الشاحبة ، ونظراتهم الخيفة . فهم يتراءون حولاك  
كالدويبات لا تدرى من أين يفدون في جماهير لا حصر لها فكأنهم يحشرون  
إليك حشراً في قعر مدقع وبؤس مبيد ، يسكون بتلاييك ماضين جميعاً في طلب  
موتك المادية .

ويزيد منظرم قبعا أفواههم المفتحة وكأنهم البلهاء يمضغون عشباً أخضر  
يساع في كل مكان ، وبمجرد ملامسته للعاب يبدو وكأنه الدم يلوث  
أفواههم ولا ينفكون يمضغونه أينما كانوا ، وهم يعتقدون أنه مصلح للأسنان  
ومسكن للأوجاع ومكسب للمناعة ضد المرض بين أفراد شعب غذاؤه نباتى شحيح  
وشجره يسمى بيتل ( Betel ) مقدس لديهم ولذلك فهم يلفون في ورقه النقود  
والقرايين التى يقدمونها للآلهة منذ القدم وعند مضغه يضعون داخل الورقة الخضر  
فتات بندق اسمه ( أريكا ) وفتات الجير من أصداف البحر أو المرجان ، وترى  
حتى النساء والأطفال دائبين على مضغه في مرأى تعافه الأعين وتشمئز منه النفوس  
طال تجوالى في تلك الأحباء وأنا أركب الركشا وهى الطيبة الرئيسية هناك



( شكل ٤ ) أحد طرق عدن الرئيسية

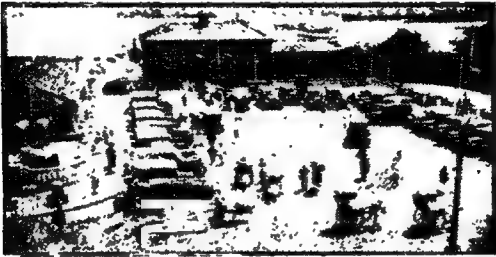
أشبه بعربة صغيرة من عجنتين يجرها رجل بئس كنت أشعر بالألم الشديد من أجله وهو يجرى في ذاك الحر القاطظ وكأنه الدابة المجهدة . زرت هناك معبدتين أحدهما لبودا أكبر آلهة الجزيرة إذ يدين به غالب السكان وفيه تماثيل بودا في أحجام كبيرة وتزين الجدران صورة نعرف منها قصة بودا منذ كان شخصاً عادياً فأضحى أميراً ثم صعد إلى السماء فأصبح إلهاً ، وعند دخولنا تقدم إلينا بعض القسس بزهور الفل والياسمين ملأنا منها سلة صغيرة دفعتنا ثمنها وحماتها إلى قدمي الإله حيث أخذنا ننثرها كما يفعل القسيس الذي كان يرش بين آونة وأخرى جانباً من ماء الورد يعطر به المكان .

أما المبد الثاني فهندوسى نظرنا إليه من الخارج أذ لا يباح للأنجاس من الغرباء عن الدين أمثالنا أن يطأوا داخله رغم ما كان يلوته من أقدار ويحوطه في الخارج من زرافات للتسولين والفقراء والعراة في أشكالهم القذرة المنفرة وخير ما نراه في الأحياء النظيفة من المدينة صخرة لافينيا التي تشرف على البحر بتقوسات جذابة ، يحفها نخيل الترجيل ويتوجها نزل فاخر تناولت فيه



الشأى ذائع الصيت ، وبعد ذلك قصدت إلى حديقة النبات التى نسقت أيمًا  
تنسيق تزينها الفصائل الوفيرة لنبات المناطق الحارة .

إلى كاندى : أقاتنا سيارة من كوليو واخترقت بنا طريقاً طوله ٧٢ ميلاً  
صوب كاندى العاصمة القديمة للجزيرة ، أما مناظره فساحرة تملك اللب فكانت  
السيارة تسير فى ليات عجيبة تصعد خلالها ربى شاهقة ثم تهوى وهاداً سحيقة  
تجرى من تحتها الأنهار ذات المساقط والشلالات الرائسة كل ذلك وسط الادغال  
للتفتة والغابات الكثيفة التى تجلت رهبتها فى سكونها وتعدد فصائلها وتنوع  
زهورها ، ولذلك لم نمجب أن عدها بعض القوم أجل طرق الدنيا قاطبة ، وبين  
آونة وأخرى كنا نلح على بعد فيلة تمرح فى فجوات الغابة أو تفتسل فى ماء  
الغدران أو تيجر ألقالا وتحمل أعباء تسير بها فى غير اكتراث ، وأسراب الطير  
الأخضر لا تدخل تحت حصر . وجوع القرده يداعب بعضها البعض ويقرب  
منها الأطفال فى روحاتهم إلى المدارس بجسومهم الناحلة المارية وعيونهم النائرة  
البراقة حتى اتمد أشكل علينا الأمر فخاناهم بادی الأمر من جنس واحد ، وأخص  
ما استرعى نظرنا من النبت الوفير الشأى الذى كان يسود مدرجات الجبال من  
حولنا وتصف شجيراتاه فى ترتيب جميل كأنها الأقبية الصغيرة فى ورقها القاتم  
النحيل وهى تحكى شجيرات القطن الصغيرة ، والفتيات يقطنن أطرافه الفضة ثم  
يقمن بتشذيب الشجر لموسم القطف الثانى ثم للثالث ، وعجيب أننا لم نلس فى  
ورقه رائحة للشأى قط ذلك لأنه يتطلب عناية شاقة فى إعدادة كى يتخلو من  
الرطوبة ثم يطوى باليد ورقة ورقة ويبخر فى درجة حرارة معينة وعندئذ تظهر  
رائحته ، وكنا نرى مصانمه مبعثرة وسط مزارعه ، وقد دخلت أحدها وعلمت منه  
أن مجموع المساحة المزروعة فى الجزيرة كلها تناهز اليوم نصف مليون فدان انجائزى  
( ايكرو ) ولقد انتشر أخريات القرن الماضى بعد أن حل محل البن الذى أصابته  
آفة قضت عليه عند ذاك



( شكل ٥ ) المرسى الرئيسى فى نغركولبو

وأشهر نبات الوهاد الأرز ذاك الذى سويت له جوانب الوهاد فى مساطب  
أفقية يعلو بعضها البعض ويكاد يفرقه الماء ، أما عابات التريجيل فحدث عنها تملأ  
الآفاق بشجرها نخيل القامة فى ميل إلى النحدرات دائماً وأزاء السواحل يميل  
نحو الماء حتى إذا ماسقط حماته الأمواج بعيداً فإن ألفت به على شاطئ نما ونشر  
بذلك جنسه ، وتحمل الأشجار وسقاً ثقيلاً بعضه أصفر اللون صغير الحجم والبعض  
ضخم عظيم الحجم ، ونرى القوم هناك يستغلونه استغلالاً عجيباً فهم يبيعونه أخضر  
لكى يرتووا بمائه الحلو ، وكان يعرضه القوم فى المحاط مقابل مايم واحد لكل  
واحدة ، وإذا ما نضج ساخوا عنه قشرته الظاهرة القاسية بطريقة تتطلب جهداً  
كبيراً ، ومن اللب يتخذ الزبد لدهان الجسد اتقاء الحر وطلباً للبرء من الأمراض  
وما بقى يضغط فى أقراص تسمى ( الكوبرا ) أو البسامة ، ولعظيم فائدته كثر  
السكان حيث يمس شجره فهو مورد لهم رئيسى ، وقدرت مساحة غاباته فى سيلان  
بنحو ٨٢٠,٠٠٠ فدان انجمايزى

وكانت تسترعى أنظارنا كثرة أنواع الفاكهة التى نجمل أغلبها من بينها  
المانجوستين والدوريان والبيوا وكثير غيرها أما اللوز فغذاء رئيسى للعامة يعرض  
فى كل مكان حتى فى حانوت الحلاقين وعند بائى الأقمشة ويعاق أمام الحوانيت

في (عراجين) في أحجام مختلفة قد يبلغ الواحد الأمتار طولاً وهو على أنواع عدة ، وكنا نلاحظ القوم يسدون به رءقهم أينما حللنا أما ثمنه فرخيص جداً إذ كنا نبتاع العرجون بنحو قرشين .

وقد بدا لنا في الناحية الجنوبية من الطريق جبل آدم بذروته الشاهقة وعليها طابع شبيه بالقدم طوله زهاء متر ونصف وعرضه نحو ثلثي متر يظنه البوذيون طابع قدم بودا والمهندوس سيفاً والمسلمون آدم حين طرد من الجنة ، ويحج إليه الكثير ويتسلقون المنحدرات الوعرة مسكين بسلاسل عتيقة وإذا ما وصلوا هنالك دخلوا المبد وقدموا قراينهم ونثروا زهورهم ثم يركع الأطفال ليباركهم آبائهم وجباههم تلامس طابع تلك القدم المقدسة

وقيل الوصول إلى كاندى دخلنا حديقة النبات وتعد من خير حدائق الدنيا حوت كل فصائل نبات سيلان وفيها بدأت زراعة الكينا والكاكاو والمطاط وبها من حقول التجارب والمشاغل شئ كثير أخص بالذكر منها مجموعة التوابل من بينها جوز الطيب والفلفل والقرفة والوانلا والزنجبيل وأخيراً دخلنا المدينة التي كانت يوماً ما مقر ملوك السنهاليين وهي تقع في وهدة ارتفاعها ١٦٠٠ قدم تحوطها الرابي التي تكسوها الأدغال والغابات وتتوسطها بحيرة ممطوطة نسقت شواطئها أيما تنسيق وفي قلبها جزيرة صغيرة يزينها نخيل الترجيل الأنيق ويشرف عليها نزل جلسنا فيه وتناولنا الشاي العبق اللذيذ .

ولعل أشهر ما في المدينة معبد (سن بودا المقدسة) وهو ممدود الأجنحة متشعب المقاصير ، ويعتقد القوم أن بودا دفن في جسمه ولم تبق إلا سن واحدة أقيم حولها المبد في القرن الرابع عشر وأحرقه البرتغال سنة ١٥٦٠ فأبدلها ملك كاندى بقطعة من عاج طولها ثلاث بوصات توضع في صندوق من ذهب ، وعليها يقوم تمثال كبير من ذهب خالص لبودا ، فراعنا منظر الحجاج وهم ركع وسجود تدر الدموع من مآقيهم وتلمس أيديهم أقدام الإله ، وقد كدست حولها وريقات



الياسمين في رائحة جميلة ،  
وبعد أن ابتاع كل منا سلة  
الياسمين تسلمها قسيس قنصرها  
عند تمثال الإله ، ومما زاد  
المكان رهبة الطبول المزعجة  
التي كان يقرعها القوم في  
ردهة المكاث ، ودخلنا  
مكتبة المعبد التي حوت جميع  
تعاليم بودا يكتب غالبها على  
شراخ بيضاء من لفائف  
نباتية ناعمة الملمس كأنها  
ورق البردى ياف غالبها  
بالحرير تحوطه أسلاك الذهب

( شكل ٦ ) في الطريق الساحر بين كولبو وكاندي  
وقضبان الفضة ، ويقال إن المعبد أجل مهابد بودا وأكبرها على الإطلاق ،  
وفي أغسطس تقام حفلة يبراهيرا حيث تحمل السن المقدسة على هودج من حرير  
مرصع تغطيه قبة من ذهب فوق ظهر فيل يبالغون في تزيينه يتبعه قطار من  
٦٢ فيلا أخرى ، وتفرش له الأقمشة لكيلا يندس وحل الطريق طهارة ما يحمله  
والليانة البوذية هي السائدة هناك .

إلى الهند : قمت من محطة كولبو صوب شمال الجزيرة ولبث القطار زهاء  
١٢ ساعة يسير في أراض جبالية كثيرة التبت ، ولما أن قاربنا الطرف الشمالي  
للجزيرة انفسحت سهول جافة رملية ، وكنا نرى أحواضاً كبيرة يدخر فيها القوم  
الماء فيرتوى منه أهل القرى طوال العام ، و يبلغ عددها اليوم ٥٢٠٠ تقوم بإصلاحها  
مصباحة الأشغال ، وكثير منها يرجع إلى المصور القديمة تحت شعوب ( السنهاليين )  
( ٢ — آسيا )

جنوباً ( والتاميل ) شمالاً ، وهما الشيمان الساندان في الجزيرة ، ولكل لفته الخاصة ؛ وفي البلاد أقلية من العرب المسلمين يدم غالب التجارة ، فهم أشبه باليونانيين عندنا في نشاطهم ، وأخيراً بدا البحر وعبر القطار قطرة طويلة إلى جزيرة ( ماثار ) ، وهناك غادرنا القطار وحلنا السابحة التي سارت في بحر غابت عنا سواحلها ساعتين وكنا بجانب جسر آدم وهو مكان ضحل من البحر ترغى عنده الأمواج وكأنه الجسر ، وهنا أقبل رجال الجارك وقتشوا حقائبنا ، ودهشت لما عدت أن سيلان ليست تابعة لحكومة الهند بل لوزارة المستعمرات مباشرة ، فلها حكومتها وجماركها وقوانينها الخاصة بها .

ولقد هالني وأنا في السفينة تعدد السحن والألوان والأزياء ، وقد عددت من الأزياء نحو الثلاثين ، فالبعض يلف نصفه الأسفل بملاء ملونة ، والبعض يشحذها من تحت الفخذين ، والبعض يرتدى سراويل ، وآخرون عرايا يسترون العورات فحسب وهكذا .

وقد راقتني منظر غنى خاتمة سيدة بادي ذى بدء لأنه كان يتدثر بملاء بيضاء فضفاضة ويزين بالخوازم الثقيلة في جميع الأصابع وفي يديه السوار العريض وفي آذانه قرط لامع وفي رقبته عقد خالف ، وكان يتهدى في مشيته وكأنه الحسناء ، ويحاول الجميع التزين ما استطاعوا رجالا ونساء وتزيد زينة النساء بلبس الخوازم في أصابع القدم كلها وبوضع قطعة من فضة في جانب الشفة وأخرى في جانب الأنف ، ولقد رأيت إحدى السيدات الفنيات تسير عارية القدم ومن حولها الخدم حتى ركبت عربتها الخاصة . ولقد تعبت جداً في البحث عن مساح للأخذية فلم أجد رغم كثرة أبناء السبيل والعاطلين ، والنساء سافرات وليس في وجوههن مسحة من جمال ، وتنوع أزيائهن لكن غالبهن يتركن الجزء الأعلى من الجسم عارياً ، أما الأقدام فمبارية على الدوام .



( شكل ٧ ) العلة تروح خلال الغابات الكشفة بين كولومبو وكاندي

### الهند

الى مدراس : وصلنا أرض الهند وانتقلنا إلى قطار آخر سار بنا في سهول وملية كأنها الصحراء غالبها يحمل ثار عن التبت وكلما قاربنا مدراس زاد الخصب نوعا ، وبعد ٢٤ ساعة دخلنا مدراس فبدت مدينة مقبضة ليس بها ما يروق السائح فغالب أحيائها قدر منفر ، أما أحياءها الافرنجية فلا بأس بها ، ومن بين مبانيها الفاخرة القلعة التي تشرف على البحر بشواطئه الرملية التي لا تصالح لإيواء السفن لذلك لم يكن لمينائها شأن كبير في التجارة ، وعلى امتداد طريق البحر قسم اسمه ( مارينا ) مستحدث التنسيق يقوم فيه كثير من تمائيل عظماء الانجليز وأجل أبنيته قصر نواب مدراس الذي احتله الانجليز وهو في هندسته خايط من المغولية والعربية وبجانبه مسجد صغير أنيق ، والقصر اليوم خاص باجتماع مجلس السناتو . ومن الأبنية الجديدة بالذكر قصر الحاكم الانجليزى ودار القضاء والبريد والبلدية وكلها بالآجر الأحمر ، ولقد كدت أختنق في هذه المدينة من شدة الحر وكثرة الرطوبة فقد بلغت الحرارة ١١٥ ف ، وأذكر أننى دخلت أكبر متزهاتها

فلم أستطع التجول خطوة واحدة بل ركبت الركشا التي طافت في كل أرجاء المتنزه ،  
وفي جانب منه حديقة للحيوان حقيرة جداً لا يسترعى النظر بها إلا مجموعة الأفاعى ،  
وفي المدينة متحف صغير به بعض الخلفات الهندوسية القديمة أعجبها في نظري  
( عامود الضحايا البشرية ) وكان السحرة يحكمون بتضحية فرد يوثق إلى هذا  
العامود الذى يدور حول نفسه فيهجم عليه الجمع ويقطعون من جسمه أشلاء  
يدفنونها في حقولهم التي أصابها الحبل ، وقد حرم القانون ذلك اليوم واستبدل بالضحايا  
البشرية بعض الحيوان على أنهم كثيراً ما يضعون بالإنسان خاسة

ولقد استرعى نظري كثرة العلامات التي يخطها القوم على جباههم تمييزاً  
لشيعهم ومذاهبهم الدينية المختلفة والعادة أن ترسم هذه بنوع من الرماد المقدس  
يحملة الناس معهم قترى التخطيط أحياناً أو رأسياً ومزدوجاً أو مضاعفاً وقد تتخلله  
نقط حمراء مما يزيد في أشكالهم قبحاً .

وللغالى في تدينه ياطخ وجهه وصدرة وذراعيه قصور مبالغ فظاعته إذا ما أقبل  
عليك وحدق فيك بعيونه الغائرة وجسمه الناحل الهزيل ولونه الأسود البراق ، على  
أننى لم أعجب عند ما علمت أن مقاطعة مدراس مقبل الدين البرهمى فسكانها ٤١  
مليوناً يدين غالبهم بتلك العقيدة وعدد القسس من البراهما في هذه للمقاطعة وحدها  
مليون ونصف يعيشون حالة على غيرهم يتقاضون ضرائب من الناس جميعاً في  
مناسبات شتى من بينها : ميلاد الطفل تخافة ألا يطول عمره وعند ما تكون سنه  
١٦ يوماً حين يفتسل بالماء المقدس وعند تسميته وعند حاق شعره وفي تمام الشهر  
الثالث وعند بدء تناوله للطعام في الشهر السادس ، وعند ما يبدأ المشى ، وعند  
تمام السنة ، وفي نهاية السابعة حين يبدأ تعليمه ، وهنا يكتب له البراهما  
بالذهب على عصوين يمسك بهما في يديه ثم يأخذها فيما بعد لنفسه ، وعند  
عقد الزواج وهنا تدفع له مبالغ طائلة ، وعند بلوغ سن الرشد ، وعند حدوث  
خسوف أو كسوف ، وعند الموت حين يحضر ليبارك الجثة ، وعند حرق الجثة ،



(شكل ٨) شجرة الترجيل تحمل وسقا سيلاً

وبعد ذلك يولم ابن للتوفى  
للبرهما ولية كل شهر لمدة  
عام وتقدم الهدايا والملابس  
إلى جانب الطعام ، بعد ذلك  
يكرر هذا مرة كل سنة حتى  
يموت الابن . كل تلك  
حقوق للبرهما واجبة الأداء  
وإلا خسر الجنة ، هكذا  
كانت قصة هندی متعلم ،  
وكان يرويها وهو فخور  
بدينه .

## نظام الزواج وما

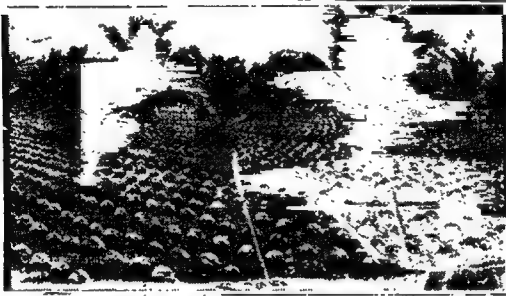
أثار اهتمام الزوجات الصغيرات  
اللاتي كن يحملن أطفالاً نحالاً لا يزيد وزن الواحد على أربعة أرطال أو خمسة ،  
وكنتم أخا لمن يحملن أخوتهن لا أبناءهن ، لكنني دهشت لما علمت أن زواج  
البنت يبدأ من سن الثامنة ، فإن تأخرت إلى الثانية عشرة عد بقاؤها عاراً لا يمحي ،  
ودل على وجود عيب فيها ، ولذلك لم يكن عجيباً ما يبدو من جسمها الضئيل وبنيتها  
الضعيفة لصغر سنها ولأنها من سلالة ضعيفة مثلها ، أما الزوج فقد يكون طفلاً مثلها ،  
وقد يكون كهلاً أنهكت السنون قواه ، وفي الحالين هو غير صالح إلا لإنتاج نسل  
بأس ضعيف وهم الزوجين أن يخافوا من الأبناء ما استطاعوا وبخاصة الذكور ،  
فإن الأم لا تجد لها حديثاً أمام أطفالها إلا ما يتعاقب بالزواج فتنشط بذلك الميول  
الجنسية بين الأطفال وتفسد أخلاقهم عاجلاً وهذا يخالف أثره السيء في قوى التشم  
العقلية والجسمية . والزواج المكث عند الهندوس واجب لأن فيه عصمة من الأمراض



وتعجلاً بالخلف من المذكور ذاك الذى يعده الآباء شرف العائلة ، وقد نسى القوم الأثر السيئ . لذلك فى إضعاف النرية وانهاك القوى الحيوية ، ولذلك ليس بمعجيب أن ترى الهندى قاعداً لتلك القوى عند بلوغه الثلاثين كما أثبت الإحصاء الطبى ذلك ولهذا لجأ الكل إلى تناول سموم المخدرات ( خصوصاً الحشيش والأفيون ) والمقويات التى يعلن عنها فى جميع جرائد بمشاكل فاضح مخجل حتى أن الحكومة كثيراً ما تصدر بعض الجرائد لجرائدها على هذا النوع من الاعلان ، وكثيراً ما كنت أرى من المدمنين على تناول الأفيون والحشيش يركنون إلى الجدران فى كل مكان بشكل قدر خامل وكأنهم النباب .

وكثير من النساء هناك عقبات وقد أيد البحث أن ذلك راجع إلى ضعف قوى الرجال من جهة وإلى تشويه الرحم من أثر الزواج المبكر من جهة أخرى ، وكثيراً ما يلجأ الرجال إلى المعابد فيرسلون إليها زوجاتهم بالقرايين كي يمن الله عليهن بالحمل ، وفى العادة تظل المرأة هناك أياماً فينوب القسيس عن الآلهة ليلا فيبارك المرأة وتعود وهى حامل ، ولعل أسوأ نتائج هذا الزواج المبكر تقصير العمر خصوصاً بين النساء وكثرة الموتى من الأطفال فتوسط العمر فى بلاد الهند ٢٣ سنة ويموت من الزوجات فى كل جيل ٣ ½ مليوناً تسعون فى المائة منهن بسبب التهاب الرحم . ومن العادات العجيبة أن الآباء قديهيون للولود القادم للآلهة ابتغاء مرضاتها فإذا كانت أنثى سلمت لنساء المعبد وإذا شبت علمت الغناء والرقص وإذا ناهزت الثامنة أنحنت خلية أحد القسس وإذا ماها أنحنت راقصة المعبد وفى مواسم الحج يستأجرها بعض الحجاج فإذا ما ذابت محاسنها يمنحها المعبد جملاً صغيراً وتترك المعبد ولا يرى أهلها فى كل ذلك معرة لأنها اكتسبت اسم ( عاهرة الآلهة Devadassis ) وهؤلاء من - ستلزمات المبادى كلها .

ويوصى الدين الهنودى بأن الزوج إله الزوجة فى الأرض خلقت لسروره وخضعت له مهما فسد جسمه أو عقله ولا بد أن تطيع سماتها ويا ويلها



( شكل ٩ ) التريبل يزرع في الأرض صفوفا منظمة

إن لم تعقب طفلا أو عقت أثى فاما أن تستعبدھا عندئذ ، لذلك كان عدد المتحرات بين سن ١٤ و ١٩ مروعاً ، وإذا مات زوجها حتم الدين أن تحرق جثتها معه (Suttee) وإلا كانت موضع اللعنات ولم يبيع لها شيء من السرور ولا تنزوج ثانية ، بل تحاق رأسها وتقصد أحد المعابد لتظل فيه أيامها الباقية ، ويجب ألا تظهر كثيراً أمام الناس لكيلا يؤثر فيهم نحس طالماها ، وفي إحصاء سنة ١٩٢٥ بلغ عدد الأرامل في الهند ٢٦,٨٤٣,٨٣٨ .

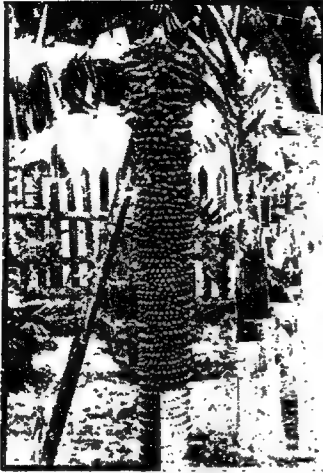
وبمجرد شعور الحامل بألم الوضع تنبذ في غرفة ضيقة مظلمة ، ولا يقترب أحد منها قط لأنها أصبحت نجسة ، وفي الحال تأتي المولدة (داية) وهي من الطبقات النجسة البائسة ، فتردى أقذر اسمائها ، وتسد المنافذ ، وتحرق الحطب لأن الدخان والحرارة تساعد على سرعة الوضع ، وإذا دخل الحجره غريب أحرقت بخوراً منتن الرائحة لمنع أثر العين الخبيثة ، وتباشر عمليتها بأيديها القذرة وتحاول إخراج المولود بالقوة ، فتشبع بطن الأم لكما بالأيدي والرأس ، وقد نطرحها أرضاً وتمشى على بطنها وتضع في الرحم كرات من مواد حريفة ، وقطعاً

من شعر الماعز وأذنان العقارب وجلود الأفاعى وما إليها ، وإذا تم الوضع لا تجرؤ المولدة أن تقطع الحبل السرى لأنه من عمل امرأة أخرى أحط درجة من المولدة ، فتنتظرها حتى تجمىء . أما الطعام فيمنع بتاتا عن الأم بين أربعة أيام وسبعة ، ويظهر أن السبب الأصلي ألا تصاب أوانى المنزل برجس .

وكثيراً ما تنصر الولادة بسبب ضيق عظام الرحم نتيجة الزواج المبكر فتموت الأم ، فإذا رجعت المولدة موتها عجبات بتكجيل عيونها بمسحوق الفلفل لكي تسمى الروح فلا تستطيع الخروج والمكث في الدار ، وقد تمد ذراعيها وتدق مسامراً يثبتها في الأرض لكيلا تستطيع الروح التجول في المنزل ومضايقة الأحياء إلى **كلكتا** : قت من مدراس — تلك البلدة التي أحمل لها أسوأ

الذكريات — صوب كلكتا ، فاخترق القطار قطرة على نهر جودفرى طولها زهاء خمسة كيلو مترات تحتها نهر لا يكاد يجري له ماء إلا في تقاطع بينها جزائر رملية ، وكان وقتئذ في زمن غيضة ، ويظهر أن النهر هو الحد الفاصل بين جنوب الهند وشمالها ، لأنني لاحظت تغييراً في كل شيء : في سحن الناس التي بدأت تتحسن قليلاً ، وفي أزيائهم التي بدأت أتلمس في ألوانها بعض الدوق ، وفي المناظر التي بدأت تزدد ثروة وخصباً ، وفي النشاط النسبي الذي بدا على القوم في حقولهم إذ كنت أرامم يعدونها لاستقبال الأمطار الموسمية ، وكان أكثر النشاط من جانب النساء . أما غالب الرجال فكانت أرامم مستلقين على الأرض نياماً ويتعجل كلهم في عدم اهتمامهم باستغلال أرضهم إلا مرة واحدة عقب المطر .

أما نظم الري بقنواتها ومساقفها فلا تكاد توجد رغم ما نعرفه من الخصب الشديد في التربة الهندية . أخذت المسائل المائية والجداول العديدة تزدد كثرة كلما تقدمنا شمالاً إلى ذلك تعدد القرى التي لم نرمها في الجنوب إلا القليل ، ثم دخلنا مقاطعة بنغالة — أج المقاطعات وأزحمها سكاناً إذ بلغ أهلها ٤٧ مليوناً ، وهنا زادت الأدغال والأحراش في كل مكان وتوافر النبت وكثرت الغدران



( شكل ١٠ )

مرجون من الموز مكاد يفوق شجرته طولاً

مخروطى تكسوه الأخصاص من مختلف النبات خصوصاً سعف نخيل ( بالاميرا ) وتهوية البيوت فاسدة يقطعهم عدد كبير ويزيد الجو سخماً ووباء ما يتربى على البرك من البعوض الذى يحمل مختلف الأمراض ، وقد كنت أوحس خيفة طوال تجوالى فى مدراس وبنفالة كلما ذكرت أن هذا الجزء وبخاصة بنفالة السفلى أكبر مربى للأمراض الخطيرة كالملاريا والكوليرا والطاعون تلك التى يموت بسببها عدد خفيف بين سنة وأخرى . أذكر أن من مات هناك بالطاعون منذ سنة ١٨٩٦ أحد عشر مايوتا ، ويساعد على انتشاره هناك تحريم الدفن البرامى قتل الفيران التى تحمل البراغيث المعدية ، ويموت بالملاريا سنوياً مليون . كذلك مرض الدودة

والنقائع كثرة تلفت النظر ، على أما لم نعب إذ كنا نتقدم إلى دلتا الكنج المظلمة .

أما القرى الكثيرة التى يزيد عددها فى الهند البريطانية على نصف مايون فكانت تبدو بيوتها مقامة من طابق واحد بنى بالطين الذى يستمد القوم من حفرة يملؤها المطر فتصبح مستدم من الماء ومستحهم ومستقامهم وماشيتهم ، وتحيط بها البيوت القليلة ، والبيت يبدو فى شكل مستدير حجير يعلوه سقف

الخطافية ( كالانكلستوما هنا ) المتفشى بسبب سيرم حفاة الأقدام حسبما تقصى  
التعاليم البراهمية ، وقد دل الإحصاء أن ٨٠٪ من سكان مديرية مدراس  
و ٦٠٪ من بتالة مصابون به أعنى نحو ٤٥ مليوناً من الناس والديدان تحمل  
الأمعاء وتمتص الغذاء والدم فيضعف إنتاج الشخص كثيراً حتى قدرت الحسائر  
المالية بسبب عجز هؤلاء عن العمل بنحو ٤٠٠ مليون جنيه .

فاًلغند فى نظر العالم أكبر خطر لشر تراك الأمراض ، و رى الأطباء أن  
أهاها قد اكتسبوا شه مناعة لطول مكثهم فى ذاك الجو الوئى لكنهم جميعاً  
حملة الأمراض للغير وهنا الطامة الكبرى . أما من يموت من المنودى فى كل عام  
فسيبعة ملايين أى بقدر نصف سكان القطر المصرى ، وعدد اللوقى من الهندوس  
أكثر منهم فى المداهب الأخرى مما يتبت قلة مقاومتهم للغرض ، وهذا لاشتك  
ناتق من اهماقارم للتغذية لأهم نباتيون ويمحرون أكل اللحوم . ومما زاد خطر  
الأمراض وفتكها هناك تشكهم فى الدواء الأوربى ، مخافة احتوائه على  
مستخرجات اللحوم المحرمة ، وم يعتقدون أن المرض أثر من آبار الجن التى يجب  
طردها بالمخور وتقديم القرابين .

روى لى شاب هندى متعلم قصة لإخراج المعريت من جسم الطفل المريض  
فقال إن القوم ياجأون إلى قرد يعاق مؤوقاً إلى فرع شجرة وينزلون عليه صرماً  
وتعدياً فيجبن القرد ويصيح صيحات مرعبة وعندئذ يحمل الطفل قريباً منه كى  
تذرع غفارت المرض التى فى حوفه وولى الأذكار ، إلى ذلك خطر روت النقر  
الذى تضمد به الحراج فى كبير من الجهات .

كلكتا . دخلنا كلكتا بعد سفر ٣٨ ساعة متواصلة ، واسم للمديه مشتق  
من كلمتين عالى ( اسم الآلهة روج سيبا ) وعات ( مرمى أو مدرج ) وقيل أنه  
مشتق من ( حاحوما ) ومعناه مكان الحمام ، فهى مقر الحيات ومخاصة للاراما ،  
لكثرة النافع حها . ومعاد الحالة الصحية فى مساكنها التى صاقت باهاها بحيت

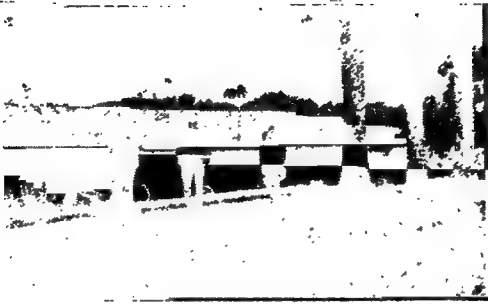


(شكل ١١) موق قه ادم كبة الحجاج من المسلمين والبوذيين والهندوس

يقطن القرية الواحدة المحتقة في المتوسط شخصان . على أنها رغم ذلك تمتد العاصمة الاقتصادية لبلاد الهند ، فهي ثانية مدن الامبراطورية البريطانية سكانها فوق مليون وربع ، وهي عاصمة تنفلة أعنى المقاطعات ( خصوصاً باليوت والأرز ) وأكثفها سكاناً فهم يبلغون ٤٧٦ مليوناً ( أعنى ثلاث مرات ونصف قدر مجموع القطر المصري ) نصفهم من الهندوس والنصف من المسلمين ولا تكاد يعرف الم . في الشكل بين الجميع ، ويزيد تحاشهم أنهم جميعاً يتكلمون اللغة الهندوسانية ، التي يخالفها البعض اللغة القومية للهند . لأنها أكثر اللغات دوعاً إذ تتكلمها خمسون مليوناً .

حلت المدينة فراعى سيل الناس الدافق في كل الأرجاء . وتقد كال العوم يقتربون أرض محطة السكة الحديدية على اساعها العظيم الذي يقرب من اساع ميدان محطة مصر ، فلم أشق طريقهم إلا بمجد كبير ، والقدرة تدوي في كل مكان ، والروائح اللذنة تتصاعد مدرحة مفرحة ، وقد عريت قنطرة ( هارة ) على

الموحلي وهي في عرض قناطر النيل عندنا ، طلى أنها أقيمت من الخشب ترفه عوامات تطفو فوق الماء بدل القوائم الحجرية عندنا لذلك كانت كل جوانب القنطرة في حركة مستمرة حسب مد الماء وجزره وقد وقفت هنا برهة فكاد يكتسحني سيل المارة الذي لم أدر مصدره ، قصدت من فوري جانب المدينة للمنازل المسمى ( الميدان ) وهو متسع عظيم خرعه ميلان في مياين تطل عليه المباني الفاخرة وتتوسطه المتزهات للتسعة المترامية تقوم في أرجائها تماثيل سامقة لعطاء الانجائز ، وأجلد المباني بالذكر دار الحاكم العام التي تسدو في جلال وعظمة يقابلها من الجانب الآخر أثر فكتوريا أقيم من الرخام الأبيض في عظمة تبهر النظر من عمد وأبهاء وبوائك ودهاليز وتعلو قنائه الرئيسي قبة كبرى ، وهنا ترى تماثيل عطاء الانجائز الذين اشتركوا في فتح الهند وفي طليعتهم ( كليف ) وأمامه للدافع التي غنمها من الفرنسيين وغيرهم في واقعة ( بلاسي ) ، وترى بعض الصور الزيتية الكبرى للملك انجلترا إلى ذلك ترى بعض ملابس الملكة فكتوريا ومكاتبها ومخلفاتها الذهبية وكذلك جميع الوثائق الرسمية التي تبودلت بين الحكومة الانجليزية وأمراء الهند منذ فتح البلاد إلى اليوم ، وفي خارج البناء حديقة نسقت أيما تنسيق يزينا تماثل فكتوريا ، ولقد أقيم هذا الأثر تذكراً لتولى فكتوريا أول امبراطورة للهند واشترك في إقامته كبراء الانجائز والهنود وبلغت أكلافه خمسة ملايين من الجنيهات وقد وضع حجره الأساسي جورج الخامس سنة ١٩٠٦ وتم سنة ١٩٢١ ، وفي جانب من الميدان القاعة وتسمى فورت ولیم طلى اسم ولیم الثالث ، وتقوم دار البريد الفاخرة اليوم في مكانها القديم بعد أن نقلاها ( كليف ) إلى مقرها الحالي وهو أكثر منعة وقوة ، وإلى جانب دار البريد يقوم نصب أبيض دقيق في مكان الحجر الأسود ، وقد كتب عليه اللورد كرزون أسماء بعض من ماتوا فيه إحياء لذكورهم ، وقد كان هذا الحجر سجنًا من سجون سراج الدولة نواب بنغاله زوج فيه ١٤٦ جندياً يوم ٢ يونية سنة ١٧٥٦ ، فاختنقوا في ليلة واحدة ولم يبق منهم في



( شكل ١٢ ) على ضفاف بحيرة كاندى المنسقة

الصباح سوى ٢٢ ، وذلك لضيقه ( ١٤ × ٢٢ قدماً ) وقلة نوافذه ، فأهاج ذلك غضب الشعب الإنجليزي وهب ينتقم لهؤلاء ، وكان هذا الحادث خير حافز للانجليز أن يسيطروا نفوذهم هناك .

وفي ركن من الميدان حديقة ( Eden ) على اسم سيدة كانت تملكها ثم أهدتها للحكومة ، وهي آية في الإبداع تشقها مسایل الماء وتخللها النقائق والمقاصير التي يبدو بعضها في هندسة ( الباجودا ) الصينية ، وعلى مقربة منها حديقة النبات وبخاصة فصيلة النخيل ، ولعل أشهر ما بها شجرة ( banyan ) أكبر أشجار الدنيا عمرها ١٥٥ سنة ، ومحيط جذعها الرئيس ٤٤ قدماً ، ولها فوق ٦٠٠ جذر هوأى تشغل حيزاً ذرع محيطه ١٠٠٠ قدم ، ومنها أخذت جميع حدائق الدنيا الشيء الكثير ، وفيها جرب الشاي ثم نقل إلى المهلايا وأسام .

ومن الأبنية الفاخرة دار الجامعة التي يبلغ عدد طلابها ٢٦ ألفاً ، وهذا العدد يفوق جميع طلاب جامعات إنجلترا مجتمعة ، وقد اتخذت جامعة لندن نموذجاً لها على أنها كانت معطلة عند ذاك ، وقد قابلت أساتذتين من أساتذتها الإنجليه



وتحادثنا بشأنها طويلا . وعلمت منهما أن موسم الدراسة لا يعين بدؤه إلا عند بدء نزول الأمطار ، تلك التي يخفف نزولها من هجير الحر ، ولقد تأخر افتتاحها هذا العام لتخلف المطر نحو أسبوعين عن ميعاده المعتاد .

فقت بجولة في الأحياء الوطنية المترامية ، فكنت أشق طريقى فى جو وشم ووسط منفر قدر تترامى الأكاديس الآدمية بجانب الجدران وهم عرايا وفى بؤس مبيد ، يبعثون فى كل مكان ، ويولون على جوانب الطرق حيث أقيمت المجارى لتصرف ماء المطر عنهم ، وأخيراً أدى بى التجوال إلى معبد قال : وهى زوج سينا آله التدمير وسفك الدماء ، وفى أفاصيصهم أنها قطعت أربا بأمر الآلهة ، فسقط أصبح لها فى هذا المكان ، وفى قرار المعبد الذى لا يدخله إلا أتقياء المهندوس تقوم الآلهة فى تمثال يزين جيده عقد من جهاجم بشرية ويدها رأس آدمية دامية ، وفى الأخرى سيف وهى تعلق أجساداً آدمية ، ولها لسان أحمر بارز ، ونطاق من أيد وألسن بشرية . بدا لنا ونحن نطل من خارج المعبد ، وقد علمنا أن لتلك الآلهة معابد عدة فى أرجاء الهند ، لها أوقافها الغنية ويحج إليها جماهير المهندوس يسجدون ووجوههم إلى الأرض تحت أقدامها ، والقسس يرتلون أفاصيص عن ( قالى ) وكانت تقدم الذبايح لها من أجساد بشرية لكنها أبدلت اليوم بالجديان ، أذكر موقفى أمام المعبد وقد أمسك القسيس بالجدى وطرحه أرضاً ، وسرعان ما تقدم رفيقه ففصل رأس الحيوان بسيفه بضربة واحدة سال على أثرها الدم تحت أقدام الآلهة ، وصاح القسس منادين ( قالى قالى قالى ) مرات عدة ، وهنا أسرع بعض النسوة إلى الأرض ياهقن الدم كى يمن الله عليهن بمولود ، والبعض أخذ يبال منه خرقاً يضمها إلى صدره المارى ، وعلمنا أن عدد الذبايح تتراوح بين ١٥٠ و ٢٠٠ فى اليوم .

وفى مقاصير المعابد وأزقتها يصطف جماهير الأولياء فى أشكال قدرة منفرة ، وجسوم ممتلئة عارية ، ولهى وورؤوس كثة يعاف المرء النظر إليها ، وكلهم من



( شكل ١٣ ) معبد ( السن المقدسة ) وترى القيل  
المقدس يحمل السن نبطها مظلة من ذهب

المتسولين ، وفي ناحية أخرى  
من المعبد محرق الجثث وهو  
سيط من الأرض تتوسطه  
وهدة مستطيلة في شكل  
الجسم . ويطن أسفلها  
بالخشب ، وكنا نرى إلى  
جانبه جثة سيدة لا بأس  
بملاحمها ، وقد خضبت قدميها  
ويديها وجيبتها بالخناء ،  
ودثرت رداءً أحمر ، وعلنا أن  
هذا دليل على سعد طالما لأنها  
ماتت قبل زوجها ولم تصبح  
أرملة بائسة ، وكان يحوطها  
جمع من أقربائها وبعض  
الناتحات المأجورات وجمهرة  
من المتسولين ، وسرعان

ما حملت الجثة ووضعت على الحطب وكدس فوقها حطام الخشب ، وهنا تقدم  
أقرب الناس إليها وكان ابنها ، وأمسك بشعلة وطاف حولها سبع مرات ثم ألقى  
الشعلة على كومة الحطب فالتهمت كل شيء ما خلا جزءاً من عظمة القصر ، وتلك  
التقطها بعض القسس ووضعها في كرة من طين إلى جانب قطعة من ذهب يقدمها  
أهل الفقيدة ، وألقاها القسيس في النهر أسفل المكان .

وهنا كنا نرى جماهير الناس يفتسلون في مائه ليظفروا من ذنوبهم ، وكان  
بعضهم يفترف من العاين ويفحصه عليه يعثر على بعض القطع الذهبية التي تاتي في

النهر مع بقايا الموتى ، ومن الناس من يفسل الجديان قبل تقديمها للآلهة ، ومهمهم من يملأ أواني من ماء النهر المقدس ليصبه على قدمي (قالي) داخل المعبد فيسبل إلى عين يتلقف الماء منها جمهور الزائرين ويحتسونه تبركا على مابه من أوضار وهم يؤثرونه على ماء النهر لأن أقدام الآلهة قد زادت طهرآ . ومما زاد المنظر قدارة أن غالب عباد سيثا وقالى من الطبقات الفقيرة . أما الأغنياء فآلهمم ( فشنو ) وله معابده الخاصة .

الى دار جيلنج : فنا بعد الغروب فوصلناها ظهر اليوم التالى ( ومعنى دار جيلنج مقر الصواعق ) ، وابشنا الايل كله نخترق سهول شرق بنغالة كثيرة للناقع ، كثيرة العشب الزاحف الذى يكافحه القوم فى جهد شديد ليفسحوا مجالا للغلتين الرئيسيتين : الأرز والبيوت والشجر لا ينقطع وأظهره المانجو والنخيل والبامبو ، وقد عبرنا الكنج بقنطرة ( سارا ) الهائلة التى تعد من الأعمال الهندسية الجليلة ، وقبل أن نصل الجبال مررنا بمنطقة ( دوارز ) وهى من مزارع الشاى الهامة وعند محطة صغيرة اسمها ( سيايجورى ) ركبنا قطار الجبال الصغير الذى قطع بنا ٥١ ميلا فرفعنا إلى نحو سبعة آلاف قدم وهو يتلوى فى صعوده الوعر ، ولنلك لم أعجب لما علمت أن اكلاف الليل الواحد من هذا الخط بلغت ٣٥٠٠ جنيه ، وكنا نسير أسفل الجبل فى حقول لاشاى لا آخرها دخاننا بعدها وسط الغابات الكثيفة وكان أظهر شجرها خيزران البامبو الذى يناهز علو قصبه الثلاثين مترا ، وهنا علمنا أن التمر ووحيد القرن والجاموس البرى تمرح بكثرة هائلة . أما مساقط للماء فحدث عن جمالها ، وكنا كلما علونا تغير النبات فكثر أشجار البلوط والتوت ثم تبعها أشجار اللوز والخوخ بزهورها البديعة ، ثم فصائل من الصنوبر والسرخس .

وعند ما دخنا دار جيلنج ألتيناها كالوعدة وسط الجبال وتكاد تغطيها أشجار الصنوبر آء! جمالها المحطة بها فقد أذكرتنى بجبال سويسرا لكنها فاقها



في الضخامة والعلو الشامخ ،  
فحولها عشرون ذروة علو  
الواحدة يزيد على عشرين  
ألف قدم وأبهاه طلعة وأجلها  
روعة ( كنشنججا ) لأنه  
ذرى العالم علوا ( ٢٨١٥٦ )  
قدم ) وتكسو الكل عاثم  
النلج الوضاء وتحف بجوانبها  
كومات من دخان أبيض هو  
سحاب السماء يجلو تارة  
ويتقل أخرى .

أما قمة افروست فلا  
نبذو من دار جبلنج بل  
من محطة تبعد عنها نحو  
سبعة أميال وتسمى ( نل

( شكل ١٤ ) عروس سهايه صخرة في كامل زسها  
وتقرأ في وجهها الملامح العربية  
النمر ) يصعد المرء إليها محمولا على الركنا يحرها رجلان أو على كرسى يحمله أربعة  
أو على مهر صغير ، ومنها تبدو روعة افروست أعلى ذرى الدنيا ( ٢٩١٤١ قدم )  
تلك التي يطعم في ارتقاها الكثير من رواد الجبال ، اكن عبثا يحاولون ففيها من  
الوحشة ووعورة المسالك مالا يمكن اختراقه ، ولقد ذات القمة طال الوقت تخطيها  
حجب كثيفة من السحاب النوى لم تكد تسبين خلاله .

أما سكان دار جبلنج فأخلاط من الهنود وأهل الجبال نخص مهم النبالين  
والبوتانيين والجركا الذين يختلفون اختلافا بنائيا عن الهنود في لونهم الأصفر  
الشاحب وسخهم المغولية وفاماتهم الصغيرة وعالهم وذيون من اتباع قس  
( ٣ - آسيا )

(اللاما) في التبت ، ولهم هناك معابد عدة يصلى القوم فيها وسط رقصة اللاما وصبيتهم وهم في أرديتهم الصفراء الفضفاضة ، وقبعاتهم تحمكى منقار الببغاء ، وفي بعض المعابد يلبسون أزياء العفاريت برؤوس عجبية ووجوه مزعجة وهم في سذاجة الهندوس وقذارتهم لولا ما أحاطهم من هواء جبل عليل وبيئة صحية بليلة .

الى بنارس : بعد أربع عشرة ساعة من مفادرتنا كلكتا وصلنا بنارس وكنا نسير في سهول صفراء جافة يعدها القوم بالحرق استقبالا للطر ، وكنا نحترق كثيراً من مزارع الكنج الصغيرة ، وكان بعضها كامل الجفاف بحيث بدا وكأنه الصحراء ، وكان الجو مترباً قاتظاً لاخفا يحكى جو أقاصى صعيد مصر في هجير الصيف بل ويزيد .

بنارس « كعبة الهندوس » : لعل بنارس هي خير المدن التي تتمثل فيها الهند بأجلى مظاهرها إذ لم يكذب يدخلها من المستحدثات شئ قط فهي مقر الزهاد والحكماء والخيرين والتدينين من الناس الذين تبدو لنا عقائدهم كأنها خرافات ، ولا يسع من يرى أولئك إلا أن يعطف عليهم ويتألم للسعادة الموهومة التي هم فيها ، وهي تفاخر بأنها أقدم المدن المقدسة في العالم لأنها كانت مقدسة قبل أن تخلق روما بقرن ، وهي أقدم من مكة المكرمة بألنى عام وكانت من المدن الهامة في سنة ٥٥٨ ق م ، ولقد اختارها بودا بعد ذلك بقليل مقراً لتعاليمه ، ولقد أغار عليها جيش المسلمين سنة ١١٩٤ وأباد كثيراً من معابدها وأقام المساجد في مكانها وظل يدمر في مبانيها القديمة حتى أنك لا تكاد ترى اليوم بناء أقدم من عهد الإمبراطور (أكبر) أى في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، وفي أقاصيصهم أن المدينة أقيمت من الذهب الخالص الذي استحال صخرأ بسبب روح الفساد الذى ساد العالم بعد ، ويخيل للدرء وهو يسير في سرايها أنها مدينة محوطة بالأسرار الغامضة ولا يتالك أن يأسف لبؤسها وينقر من قذارتها .



( شكل ١٥ ) زعيم برهمي يستجدي وهو يهزف على قيثارته  
وقد لطنج جسده بالتراب المقدس

مدينة يتنحى كل هندي حتى أحط الجرمين أن يموت بين جدرانها كي ينتقل إلى الجنة عاجلاً ، لذلك يؤمها من الحجيج نحو مليون كل عام بينهم جواهر المرضى والكهول الذين يتوقعون الموت ، يسجد الجميع لإرضاء للآله سيقا ، والأيمان العميق يبدو على وجوههم ، وبمجرد وصولهم وافدين من أقاصى بلاد الهند يبدأون بزيارة المعابد التى يقال إن عددها يفوق الألف ، ويطوفون بأسوار المدينة كلها ، ويبلغ امتدادها ٣٦ ميلاً فى ستة أيام متوالية وهم يسرون فى طريق تظله الأشجار وترينه المعابد وتمائيل الآلهة ، ويطلقون عليه اسم ( پانش كازى ) .

وأقدس ما فى بنارس نهر الكنج الذى رصف جانبه فى مدرجات رائعة تسمى ( Ghats ) يؤمها القوم للطهر من الذنوب ، وعجباً ألا يكون لاضفة الأخرى شئ من هذا الامتياز ، ويلقون فى النهر أكاليل الزهور ، ويلقون ما تخاف من الرماد بعد حرق موتاهم .

وأجمل ما رأيت للمدينة من رورق وسط الهر . هسالك بدت بقايا القصور  
القديمة والمعابد البالية الأثرية يرتطم بها موج الهر الهادى في مائه القتر نشوبه  
الأوْضار ، وإن أنس لا أنسى منظر المعابد المطلة على الهر ، وكأنها الأهرام  
الذهبية صفت في كثافة بعضها فوق بعض ، ودرجات النهر التي أقمت من  
الجرانيت العاني تتدلى من دونها ، ونقام المقاصير التي يؤمها الأتقياء حتى تكاد  
تلس الماء مهباً بعد عوره ، ويستظل القوم بظلال من الخوص كبيرة تميل إلى  
الهر كي تنى القوم وهج شمس الشرق المحرقة ، فيخبل للمرء أنها من كثرتها وعظيم  
امتدادها على جانب النهر ، وكأنها الدروع في ميدان للجهاد حافل بالأجناد ،  
وإذا ما مالت الشمس إلى الغرب بدأت تلك الجوع الغفيرة تتلاشى ومن بينها  
ماتعو الفاكهة وأكاليل الزهور والهدايا التي يقدمها القوم قرباناً للهر المقدس ، لذلك  
تراها طافية مع طائفة منانة من الأعشاب والأوْضار ، تشوب ماء النهر الكدر  
المنفر ، وكلما خف الجمع وفدت أسراب من الطيور المختلفة عرفت منها الغربان  
والحمام تنجم فوق أهرام المعابد ، وكلما أقبل الغروب زادت عفويات الهر لحد  
لا يحتمل حتى ليحصل للمرء أنه وسط مدافن منانة ، ويؤيد هذا الشعور قرب  
الدرجات المدة لحرق الجثث وكنس فضلائها وإلقائها إلى اليم . ويزيد الموقف  
وحشة صيحات الطيور المنفرة ، وكأنها كانت تنعى من مات وأحرق سحابة اليوم  
وإذا ما بزغ الفجر نغير المنظر وبدأت المدينة تقذف بسكانها في مجموعهم إلى  
المكان من آدميين وعمهاوات ، فنرى الناس مقبلين على الهر وقد أروا على أجسادهم  
السوداء البراقة مقاطع من قماش مهفوف مختلف ألوانه ، وقد زيت بالمعادن  
والجواهر والأحجار رقابهم وآذانهم وأنوفهم وأيديهم وأصابعهم وكامل زينتهم  
ينقسم المساء في مائه المقدس . أما الرجال فيخلعون أردنيهم والجميع يقدم أكاليل  
الزهور التي تطفو فوق سطح الماء كثرة تكاد تحقيه ، وأسراب الحمام ومختلف  
الطيور تؤم المكان فيحيط بعضها فوق الماء والبعض فوق كواهل الناس ، وكأنها



(سكن ١٦) الرهمن وأهله في الاسعداء على  
طاعة الطرق

أيقنت أن عباد إبراهيم لا يمسون  
الحيوان بأذى . كذلك ترى  
قطمان البقر مقبلة إلى النهر  
لتغتسل ، وهنا يفسح الجميع  
لها الطريق في احترام عجيب ،  
وبعضهم يسرع فبقدم للبقر  
عقوداً من القاب والزهر .  
ثم تبصر بعض الأغنام  
والكلاب والقردة مقبلة على  
الماء . فيختلط الإنسان  
والحيوان ولا يكاد يفرق المرء  
بين هذا وذاك .

ولكل جزء من تلك  
المدرجات اسم خاص ، فمن

ضمنها مدرج الخيول العشرة حيث يؤمه الناس عند حدوث خسوف أو كسوف ،  
وفي طرفه الجنوبي . بعد سيتالا آلهة مرض الجدري ، وهناك تماثيل لقشنو على  
شكل إنسان في جسم الأسد . ومدرج الموق حيث تحرق الجثث ، وهنا أذكر  
موقى المزعج نحو طي حمر حيث معها اسدات ألبن أفضة ملونة . والعص  
للرجال في أودية بضياء ، وبعد أن ذهبت الخبز إلى سكرت في المر . وبعد  
تفطيتها بقطع الخشب تقدم أقرب الناس من كل حته بسعد نار وطاف حولها سبع  
مرات ثم أخذ يشعل النار في أركان كومة الخشب فصاعد الدخان وبعثت الجو  
رائحة اللحم الآدمي نأكل النيران ، وكان يحار كل جديد ألا تصفا النار قبل تمام  
احتراف الجثة . إلا كانت تلك وصمة مخزاة العمد وعائلة . وبعد تمام الاحتراق





( شكل ١٧ ) الروح الملاقى شاب روحه  
وإم تلغ سها العاصرة

ينفص الواحد ما يبي من الرماد  
إلى التهر كي تتم سعادة القعيد .  
على أنا كثيراً ما كنا  
نرى الكلاب نحوم حول  
الضفاف فتلتقط قطعاً من  
اللحم الذي لم يمس حرقه ، وكنا  
نرى جثث الأطفال طافية بين  
جواهر المستحمين ، لأن الدين  
يحرم احتراف جثث الأطفال  
ويأمر بالقائها في النهر المقدس  
كاملة .

نظروا مزرع وقتت في  
جنباته ساعة ، وأنا لا يكاد  
يستقر في المكان خوفاً وحزناً .

وكنتم أستم نبيئاً من الرائحة العطرة التي علمت أسها لعص الأغنياء الذين يحرقون  
موتاهم بخشب نمين كالصندل والعود وما شأكلها .

ولعل أقدس للدرجات ( مدرج القرط ) وبه بئر أقيمت فيها الآلهة ( ديبى )  
بقرط ، وإليها يتقدم القوم بقرابين من الزهر واللبن وحشب الصندل والحلوى كلها  
تروى فيها ، وبجانها تجدد قطعة مشرفة من رحام عليها طابع قديم فسو وهنا يحرق  
الوجاه موتاهم وذلك نرف لا يناء الفقراء .

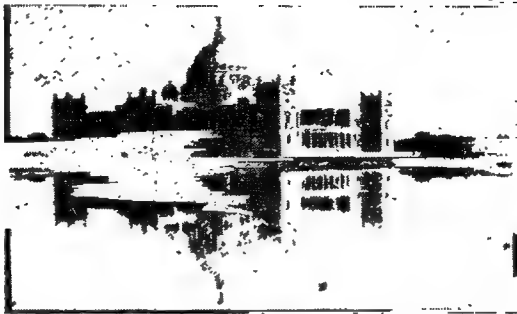
ومن المدرجات الهامة مدرج الأنهار الخمسة لأنهم يعتقدون أن في أسفل هذا  
المكان تلاقى خمسة أنهار وتدفق على هذا المكان مسحد أوراء محروب عما ذبه



الدقيقة العالية التي خيل إلى  
أنها تميل إلى النهر في غير  
استقامة .

برحت النهر لأنجول  
داخل المدينة فبدت قديمة  
مأطلالها وأرقنها القذرة للتربة  
ومن المعابد التي زرتها بها :  
**المعبد الذهبي :**  
وتزينه قبة يجانبها برج كأنه  
( الباجودا ) ويكسى الانان  
من الخارج بالذهب الخالص  
وهو معبد سيفا إله الكون ،

وكان القسس في داخله ( شكل ١٨ ) المحراب الرئيسى في المعابد الهندوسية  
يمرحقون البخور ويقدمون الزهور ويرتلون في صبيحات منقورة وفي جانب من المعبد  
( بئر العلم ) وسط دائرة تحوطها الأعمدة الجميلة وتتوجها قمة ، ويقول القوم إن  
شعار سيفا احتسى في أعماقها يوم أن دمر الأعداء المعبد ، فكل من تطلع إليه نال  
قصارى أمانه ، ولقد نظرت إلى أعماقها بتلف زائد فلم أر إلا سطح ماء قد عطاء  
رم العشب وورق الزهور ، ويجاس بجانبها مشعود يبيع الماء للناس الذين كانوا  
يتهاقون عليه كل يملأ يده ويقطر ثلاث قطرات في فمه من طرف أصبعه ويغسل  
رأسه بما بى ، وفي ذلك مفتاح الدكاء والنفطة وتطهير للذنوب كأنه ما كانت  
وإلى جانب البئر نمثال ثور يسدومه قدمه ( راجا نال ) ويحوطن رقبته بقود الفل  
والباسمين ويرشون عليه ماء النهر المقدس .



( شكل ١٩ ) البناء التذكارى للملكة فكتوريا يزين جانب ( الميدان )

ومن أمثال تلك المعابد كثير فادنا الدليل إليها فى سرايب يكاد يكسو أرضها جماهير المتسولين فى قذارتهم الكاملة ، وقد راقنى منها معبد درجا أو معبد القردة لكثرة القردة الطليقة فيه والتي تمرح وتأكل وتنم على حساب السذج من المدينة ، وعند المدخل ترى الطبول يدقها الشمس ثلاث مرات فى اليوم . وهنا تذبج الجديان قرباناً لزوج سيقا التي تلذ لمنظر الدماء ، وترى هناك حوضاً علوه ٥٤ بوصة يعتقد القوم أنه ينكشف فى كل يوم مرة حتى لا يزيد حجمه على حبة السمسم .

الى داهى : أخذت القطار صوب دلهى تلك المسافة التي استغرقت ٢٨ ساعة ، وكان يبدو على غالب الحقول الجفاف الشديد الذي أيد لنا مبلغ سعر الرياح الموممية وأطارها فى خصب تلك الجهات التي بدت ظامئة مجدية ولما يتخاف المطر عن ميعاده سوى أسبوعين ، ولقد وقفنا طويلاً بمحطة ( مغول سراى ) ، وكان الشجر من حولها كثيراً وجموع القردة تمرح فى الغابات وإلى جوار السكة الحديدية فى كثرة عجيبة . وكم كانت دهشتى عظيمة عند ما باختنا سرب من الطاووس ينازع المائة والحسين عدا كان يسير بجوارنا كأنه هادى أليف ، وقد



جاز القطار محطة ( كونيور )  
التاريخية الشهيرة مقر الثورة  
الهندية ( سنة ١٨٥٧ ) ، وقيل  
دخولنا دلهي استقبلتنا زوبعة  
رمالية عاتية كأنها وافدة من  
صحارى ( ثار ) إلى جنوبها وبدأت  
المدينة والحرب بلغ أشده فقد كانت  
الدرجة ١١٣ ف وكان الهندو  
مغتبطين بذلك لأنه كلما اشتد  
الحرب بشرهم بأمطار وابله .

( شكى ٢٠ ) أمام النصب النذكارى الذى أقيم  
في موضع ( الجحر الأسود ) في كلكتا

دلهي : قمت بجولة في  
المدينة فبدأ لي أنها من المدن

القديمة التي غالبت الزمن وفاست من هجرات المغيرين الشيء الكثير حتى قبل لإنها  
تقام على أنقاض إحدى عشرة مدينة ازدهرت من قبل ، ولا تزال لها بقية من  
أطلال ، وغالب أحيائها شبيه بالأحياء الوطنية في القاهرة ، وكانت كثرة للمساجد  
بما خذنها العديدة تكسب المدينة مظهراً إسلامياً بحتاً إذ حلت هذه محل القباب  
الناقوسية النهبية . وهنا يصلى القوم لله بدل الخضوع لشعوذة البرهمي والخشوع  
للأنصاب ، على أن غالب تلك الأنحاء تعوزه النظافة ، وإن كانت في الجبال خيراً  
من سابقاتها ، أخذت أزور أماكنها التاريخية ، وبدأت بزيارة القاعة وقد بناها  
شاه جهان بعد أن قرر هزل عاصمته من أجرا واختار مكانها هذا ، وهو يبعد خمسة  
أميال عن ( دلهي القديمة ) عاصمة جده هومايون ، وضع أول حجر سنة ١٦٣٨  
وتمت في تسع سنين ، فانتقل إليها في حفل عظيم وأطلق عليها اسم ( شاهجاها ناياد )



( شكل ٢١ ) جثة عروس فوق محرق الموتى  
في معبد قالي في كلكتا

وكانت آيات الأبهة تفوق كل  
ما تقدمها حتى أصبحت عند  
الفريريين مضرب الأمثال ،  
فن مساجد إلى مقاصير إلى  
إيوانات إلى قصور كلها من  
الرخام المرصع باليواقيت  
والجواهر تفرش بالحرائر  
والطنافس الثمينة .

ولعل أشد الأهوال التي  
قاستها دلهي سنة ١٧٣٩ حين  
أمر نادر شاه بذبح أهلها  
لأنهم أغاروا على كنيسة  
صغيرة من جيشه ، وكان  
يرقب ذلك بنفسه من شرفة

المسجد الذهبي من شروق الشمس إلى الساعة الثانية مساء ، وبعد ذلك تنحى  
هذا الفارس منتصراً إلى بلاده وحمل ما قيمته خمسون مليون جنيه ، ومن بينها  
عرش الطاووس الشهير وماسة كوهنور ، وقد سقطت دلهي في يد الجنرال  
( Lake ) سنة ١٨٠٣ وأباح لسلائل المغول بعض الحقوق والمظاهر على أنها سمحت  
منهم نهائياً عقب القتلة ، ونفى آخر ملوكهم ( باداهور شاه ) إلى رانجون حيث  
مات سنة ١٨٦٢ ، وقلت العاصمة إلى كلكتا ، لكنهم أعادوها سنة ١٩١١  
بعد أن أمر الملك جورج الخامس بإنشاء دلهي الجديدة بجوارها .

دخلت القلعة التي يحوطها خندق فسيح ( مسعته ٧٩ وعمقه ٣٠ قدماً ) وسور  
يتراوح علوه بين ١١ و ٦٠ قدماً ، وبها بابان أحدهما صوب اجرا ، والثاني صوب

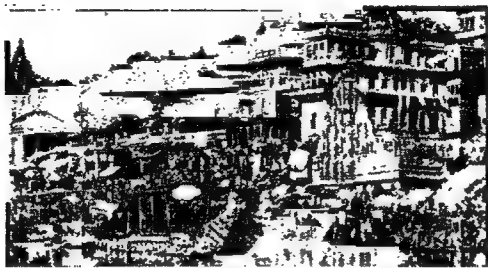


( شكل ٢٢ ) قبة كشتنجنجا ثانية ذرى العالم علوا  
ويرى فوقها قطار المرتفعات فى ليانه المجية

لاهور ، وهى بلدة كاملة فى  
داخلها إذ تقوم فيها المباني  
الفاخرة والمساجد العامرة  
والتنزهات البديعة ، وكانت  
مقر الملوك ، ومساحتها تزيد  
على ضعفى أكبر قصر ملكى  
فى أوروبا ومن أكبر مبانيها :  
الديوان العام :

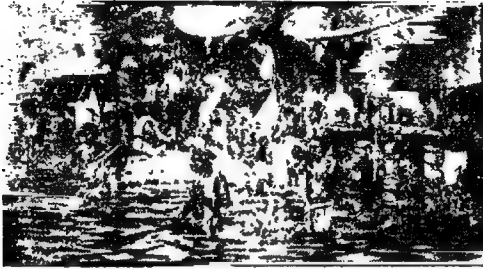
ذرعته ٦٠ × ١٠٠ قدم ، يقوم  
سقفه على بوائك وعدة تحطف  
البصر بنقوشها الرائعة وهو يعد  
من آيات فن العمارة المغولية ،  
وكان يجلس الإمبراطور على  
عرشه ليستمع للمظالم التى يعرضها  
عليه وزراؤه نائبين عن الشعب

الديوان الخاص : ذرعته ٧٦ × ٩٠ قدماً من الرخام الأبيض برصع  
بالأحجار الكريمة فى زخرفة فارسية مغولية ، وكان سقفه من فضة لكنه استبدل  
بالخشب اليوم ، وهنا يحار الاب حقا لما يرى من مظاهر العظمة شبيهة بما قرأ  
فى ( ألف ليلة ) وقد نقش على جانبيه بالذهب ما معناه : إذا كان للأرض نصيب  
من الجنة فهو لاشك فى هذه الدار ، وتتوسط البهو قناة من رخام كان يطلق قياها  
لئلا المطر يلربط المكان ويبقيه ، وكان يتوسطه عرش الطاووس الساحر الذى  
نقله تادر شاه إلى فارس ، وسعى كذلك لأنه محاط بطاووسين قد نشرتا ذنبيهما



( شكل ٢٤ ) الباي والمبايد تمس بها مدرجت نهر الكح و سارس كبة الهندوس  
مسجد اللؤلؤة : أمامه اراجيزب داخل القلعة ، وكان خاصاً بشاه  
جهان النى أسرف في زخرفته وتنسيقه حتى أحصى أجل مساجد الهند وأصغرها ،  
وكان يشبه بالذرة أو اللؤلؤة لصغره وجماله .

المسجد الجامع : يتوسط ميداناً من المدينة فسيحاً بشرف عليه من  
رöhe تناهز ستة أمتار ، ويرتقى المرء إليه بسلم عظيم الامتداد في جميع جوانبه  
وأبوابه من نحاس ثقيل وسط بوائك فاخرة تؤدي بنا إلى فناء رحب يتوسطه  
حوض الوضوء ، والايوان يقع تحت قباب ثلاث نجانبها منذنتان دقيقتان علو كل  
منها ١٣٠ قدماً ، وحول الجوانب الأخرى بوائك ذات سقف منقوشة ، وفي ركن  
منه غرفة صغيرة بها بعض آثار النبي صلّم توضع في علب من فضة وذهب وزجاج  
تتلاها الزهور من داخلها ، وأهم تلك الخلفات التي تبركتنا بلمسها : شعرة واحدة  
سحراء من لحية الرسول وقطعة من رخام عابها طابع قدمه وحذاء من جلد الجمل  
في شكل الحف ، ومخطوطان للقرآن الكريم كتبنا بالكوفة ، أحدهما بخط الامام  
على كرم الله وجهه ، والآخر بخط ابنه الحسين عليه السلام ، والمسجد فاخر  
يشرف على المدينة قتره أينما كنت في لونه الأحمر من الخارج وإن كان يبطن



( شكل ٢٥ ) حمام الفيل في ماء الكنج القدس

كله بالرخام الأبيض أمامه شاه حان ، وخص بنفسه باباً يواجه القلعة والمسكن الخاص فيها ، وكان يفتح يوم الجمعة لمروره ماشياً وعندئذ تفرش الطريق كلها بالطنافس الثينة ، ويخال البعض أن هذا المسجد أكبر مساجد الدنيا .

ومن المساجد الأخرى التي زورها مسجد سهرى الذهبى الذى جاس فيه نادر شاه أكبر ملوك القرس السفاحين وهو براقب جنده يذبحون الناس يوم دخل المدينة سنة ( ١٧٣٩ ) .

منار قطب : برج بصرناه قطب الدين سنة ١٢٠٠ على بعد ١١ ميلاً من المدينة وأكابه حنفية ( التماس ) ويتألف من خمسة أدوار فى علو ٢٣٨ قدماً وقطره من أسفله ٧ ، ويختنق فى أعلاه إلى ٩ وقد أصلح أعلاه فيروز شاه سنة ١٣٦٨ ، أقيم لخلد انتصار الإسلام على الهندوس ولبت يغالب الزمن طويلاً رعد من محائب بلاد الهند تقدمه وعمارة هندسنة ، وإلى جانبه مسجد قطب الدين أتيمه . ماخذ الهند ماه من أنقاض المعابد الهندية التي دمرها المسلمون وفى داخل مقصورته قطعه من حديد من ترجع إلى القرن الثالث الهجرى وظلت مره ١٠ ثبات الزمن طوال تلك المدة ولم يصدأ ولا يعلم سىء عن أصالها سوى





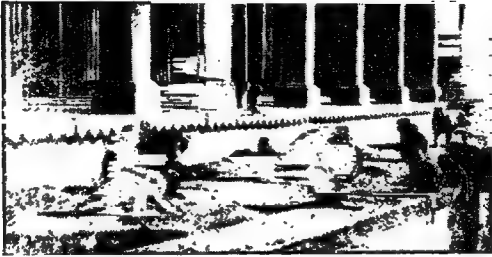
( شكل ٢٦ ) مدرج المونی فی مارس وری ، الملت الی ناسکها الیوان

العبارة الآتية التي كتبت عليها : هو صاحب العميت ( راحا دافا ) الذي حصل  
ساعده على ملك العالم بغير شريك .

وفي ناحية أخرى مقبرة هومايون على عطف سنده بناج محل وهو أقدم مثل  
للعمارة المغولية بنى سنة ١٥٥٦ ودفن فيها ناني عظم - المغول وبجانبه أقرباؤه وابن  
نناه جهان الذي قتله أخوه اورايجريب طمعاً في الملك وهنا سلم شاه مادهور آخر  
المغوليين سيفه للميجر هدرسن سنة ١٨٥٧ وبجانبها مقبرة التماس ابن زوجة  
فطلب الدين

ذلك مثل مما يراه السائح في دلهي تلك البلدة التي تقوم عظمتها على منشآت  
لإسلام التي لولاها لما استحققت الذكر حيث لا ترى غيرها سوى بيوت حقيرة  
ومعابد هندوسة صغيرة ولذلك لم ترها المجلدنا صالحة لتكون مركزاً لإدارة البلاد  
فاقامت بعيداً عنها مدينة دلهي الجديدة على أحدث النظم التي نمحكي إحدى المدن  
الأوروبية تماماً

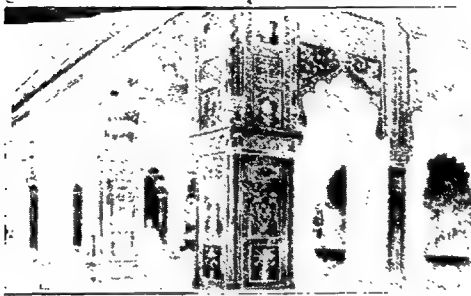
الى أجرا : فت إلى أحرا الى وصاتها في أكثر من ثلاث ساعات فندت  
مديته حقيرة كأنها من مدن الريف القليلة المنزلة ، وكان هير القمط خافقاً للرجة



( شكل ٢٧ ) الفردة للقدسة داخل معبد ( درجا ) في بنارس

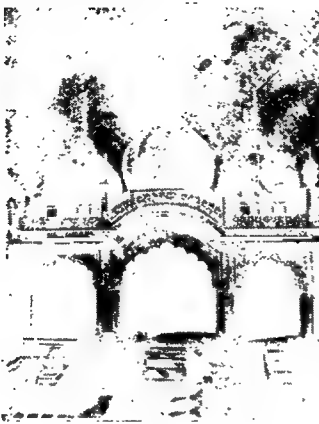
أن خادم النزل سألنى أن كنت أرغب أن يمد لى سريراً فى الخارج ( أعنى فى الشارع ) فدهشت ورفضت أول ليلة مرتكناً على ( المروحة ) لكنى سارعت برجائه فى الليلة الثانية أن يفعل ذلك إذ لم تغض عيني من شدة الحر فنت ليالى الباقية على جانب الطريق على أن بها من الدرر القديمة آيات يينات تحوطها تلك الأطلال والأقدار وفى مقدمتها :

تاج محل : حق للهندسة المغولية أن تفاخر بتلك القطعة الفنية فما أن وقع ناظرى عليه حتى ذهلت من عظمة ما رأيت ، جلال فى دقة صنع ورواء فى حسن تنسيق وآيات للفن يينات فى كل ناحية من نواحيه ، فهو وحده خير مبرر لزيارتي للهند ، تلك البلاد التى كنت حتى الساعة لا أذكرها بالخير الكثير . دخات من الباب الرئيسى وهو وحده قصر فاخر بأقيته وقبليه ومناراته فأنكشفت حدائق التاج الفسيحة التى نسقت بالنافورات والمنحدرات والطرقات الملونة والنقائع يزينا زهر البشنين وورقه صفت من حولها مخاريط الشجر الباسق وفى وسط كل أولئك يقوم التاج كالعروس ولكن أنى لقلبي الكليل أن يصور بدائمه ويحكى أعجازه . قد تنقل الكلمات والصور إلى القارىء شيئاً عن المكان ولكن أنى لها أن تشعره



( شكل ٢٨ ) جـ من الديون الحاس في زخرفته الفاخر  
وهندسه العواية الاسلامية في دلهي

بالدهول والإكبار الذى يحسه من يراه بعينه ! صور لنفسك قصراً فاخراً أقيم كله من الرخام الوضاء والمرمر البراق تحوطه فى الأركان ما آذن دقيقة رشيقة وتتوسطه قبة كبيرة رائعة تحوطها القباب الصغيرة والمنائر الرفيعة والأرض والجدران قد رصعت كلها بالزهور والزخارف الفارسية لا بالرسم الزيتي بل بالياقوت والزمرد والزربرد وما إليها وتزين الجدران إلى جانب هذا آيات الذكر الحكيم كلها لا بالمعاد بل بمقصود الرخام الأسود ألبس الجدران البيضاء ، والمدحش أن المهندس قد راعى المنظور فى كتابتها بحيث أنك تراها تبدو فى أعلى المكان وفى أسفله بحجم واحد رغم علوه الشاهق ، وفى بعض الصفحات ترى الرخام قد خرط فى أشكال شتى بين بارز وغائر ، أما النوافذ والفتحات فأشبهه بشباك الخمرات فى دقة فائقة وهندسة عجيبة قدت فى الرخام وكان يغطى غالب الفتحات الزجاج العليبي (الليكا البيضاء) ولم يبق منها اليوم سوى لوح واحد ، وفى قلب المكان ترى المقبرة من المرمر رصع بمختلف الأحجار الكريمة يحوطها سور من مقصوص الرخام وهذه تضم رفات زوجة شاه جهان ( ممتاز محل ) وكان يحوطها سور من فضة ويكسو القبة غشاء ( ٤ - آسيا )



(شكل ٢٩) مسجد الأئمة في قلعة دلي

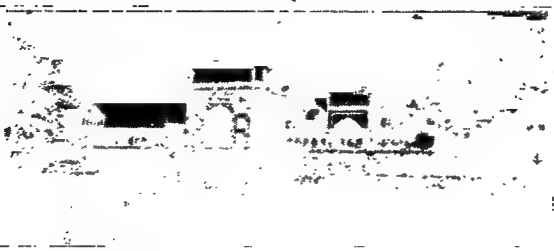
فاستازم البناء ١٧ سنة، وكان طوال هذه المدة يشغل عشرون ألف عامل حتى بلغت أكلافه أربعة ملايين من الجنيهات في ذاك الوقت الذي كانت الأموال فيه نادرة .

والقبة الرئيسية أثر ساحر في ترديد صدى الصوت يفوق ذاك الذي لاحظته في فيزا بأيطاليا، وقفت داخلها وكأني طربت لما أن تصورت المرقى بصوته الرخيم يردد الآيات البينات أو يصيح ببارات التأيين والندبة في أنغامها الشجية التي تبدو وكأنها دوى أصوات الملائكة تردده تلك القبة من الساء ولا أنسى زيارتي الثانية للنج في الساء وكانت ليلة مقمرة فبدا وجهه في ضوء القمر الشاحب وسكون الليل الرهيب فأثار في النفس من ذكريات وأهاج من شجون .

تلك هي آية تقدير شاه جهات لزوجته القاتنة التي أحباها حباً جماً وأخلص لما فشاها الرأي في مهام الحكم وكان خاتم الدولة بيدها وكانت رحيمة بالناس

ثقل من ذهب خالص كانت زنته ٢٦٥٠ رطلاً، ويدخل الضوء من الباب فقط فيسقط على المقبرة رأساً فتشرق وسط الأركان المظلمة، وقد الصقت بجانبها مقبرة أخرى فيا بعد دفن فيها زوجها وكان قد بدأ يقيم لنفسه مقبرة على مثال التاج في الجانب الآخر من النهر . وقد قيل إن السلطان استدعى عباقرة الفن من

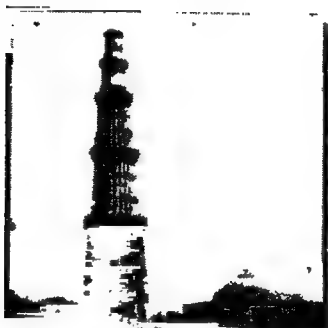
العرب وفارس والهند وأوروبا



( شكل ٣٠ ) المسجد الجامع في دلهي وفي ركنه الأيمن بعض مخلفات النبي صلعم

تدخل لمصلحتهم وكانت تلازم زوجها في حملاته الحربية حتى كانت الحملة التي غزا بها نائري الدكن فاختطفها الموت لما أن جاءها الخاض في طفلها الرابع عشر فعاد محزوناً كسير القلب حتى حرم على رعاياه كل مظاهر السرور طويلاً وحبس نفسه عن الناس وعطل أعمال الدولة وقيل أنه سمى الحكم واعتزم التنازل لابنه .

**مقبرة اعتماد الدولة :** أقامتها (نور محل) زوج الامبراطور (جهانجير) مدفناً لأبويها وكان أبوها من كبار رجال الدولة وفد مع زوجه من فارس تحت اسم ( مرزاغياث ) طلباً للجاء والثراء في بلاد الهند فنقدت ذخيرتهم في الطريق وزادهم الحظ ارتباً كما بمولودة ترددوا طويلاً في التخلص منها حتى مرت بهم قافلة فأنقذتهم جميعاً فلما جاءوا السلطان نالوا لديه حظوة وأحب جهانجير — وكان إذ ذاك أميراً — فتاتهما ذات الجلال القتان لكن أباه الامبراطور رفض ذلك وزوجها من أحد قواده فلما مات وولى ابنه الحكم كلف الضابط أن يطلق زوجته فأبى فذس له وقتله وحبس الزوجة في القصر حتى قبلت أن تتزوج منه فغير اسمها (نور محل) أى نور القصر وسماها ( نور جهان ) أى نور الدنيا ، والمقبرة آية فنية أخرى تلى التاج في العظمة ودقة الصنع .



## مقبرة الأكبر :

وهي من المباني الجديرة بالزيارة  
أقيمت من الصخر الرملى الأحمر  
تبطنه من داخله رفاقى الرخام  
الأبيض فى رواء كبير وهي تضم  
رفات (أكبر) مؤسس أجرا  
ولذلك يطلق على المدينة أحياناً  
(أكبر باد).

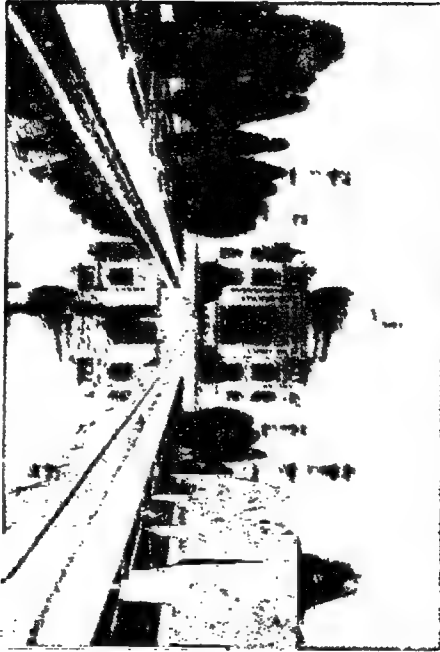
## القلعة : سنيهة بتلك

التي فى دلى فى شكاها  
ومحتوياتها وتزيد قصر الياسمين

وسمى كذلك لسكنة أزهار (سكل ٣١) منار قط وهو برج صرمولى فى دلى  
الياسمين التي رصع بها المكان ، وقد أعده جهانبجير مقر زوجته (نور محل) إذ  
كان يشرف على نهر الجننا ويكشف التاج محل بمحادثه على الجانب الآخر من  
النهر ، وقد أقامت به سيدة التاج (ممتاز محل) زمناً طويلاً .

الى بمباى : عادت أجرا صوب بمباى (فى ٣٨ ساعة) ، وكنا نمر غالب  
الطريق على بقاع شبه صحراوية هي حافة صحراء نار فى مقاطعة راجوتانا ، ولذلك  
كان الجو مؤلماً والتراب خائفاً والجفاف بالغا أشده ، فاكدنا نرى للنبات أنرا  
، وى بعض الشجيرات القصيرة المنتشرة ، على أما كلما فاربنا جانب البحر الى بمباى  
زادت نزوة الاقلام بالنبت وتحسنت الوجوه الأدبية وقل الحفاة ونقارب الزى  
(سروال أبيض وجاكتة طويلة) ، ومما ألفت نظرنا بوجه خاص زى السيدات  
وقد بدت الألوان الزاهية الصافىة فى ملاءاتهن ، فكثيراً ما كنت أرى جمهرة

(شكل ٣٢) الناج محل ، حرة المد وآية الهندسة المعمارية



منهن يسرن جماعات كل منهن في لون خاص كأنهن قوس السماء يتحرك في بريق ورواء ، وقد عبرها قنطرة نهر نابتى الذى يبلغ انساعه ثلاثة أمثال النيل على أنه كان جافا لا يكاد يجرى له ماء شأن سائر أخوار الهند التى كنا نمر بها كل آن وهى ناضبة مما يشعر بأهمية الرياح الموسمية ، فلولا أمطارها لما كانت بلادهم فى الحصب شيئا مذكورا .

## مبای : أو الخلیج الجیل

كما سماها البرتغاليون ، وقيل إن الاسم مشتق من آلهة البلدة (مباديشي) في أكبر معابد المدينة بدت مدينة عظيمة حقاً ذات مبان فاخرة وقصور شاذخة وطرق معبدة فسيحة ، فهي في نظري المدينة الهندية الوحيدة التي تحكي مدائن أوروبا وجاهة ونظاماً وهي العاصمة التجارية للهند ، فالحركة فيها صاخبة أبدأ وبها محطتان للسكة الحديدية

( شكل ٣٣ ) أمام عظمة ( التاج محل )  
الخالدة في ضوء القمر

من آخر محاط العالم وهما محطة فيكتوريا ومحطة الوسط ، ولعل أجمل نواحيها صخرة مبار تشرف على الخلیج في منظر رائع وهي مسكن الطبقة الارستقراطية كلها فلات فاخرة تحوطها الحدائق البانعة والمتنزهات الأنيقة أخص منها : ( الحديقة المعلقة ) التي تشرف على البحر وتنكشف من دونها أبراج السكون الخمسة حيث ترى رصيفاً حفرت به فجوات يضع فيها شيمة ( البارسي ) موتاهم وسرعان ما تنقض عليها العقبان من الأشجار المجاورة فتأكل اللحم وتترك العظام ، وهذه توارى في بثر بدون حرق ، ذلك لأن هذا المذهب يعتقد في طهارة العناصر الثلاثة ( الماء والتراب والنار ) لذلك لا يصح تدنيسها ، ويحمل الجثث وهي عارية عباد ملتحمون إلى ذرى تلك الأبراج ومحيط أكبرها ٢٧٦ قدماً وعلوها ٢٥ ، وعند حمل العظام يلبس القوم التفازات ويقف أهل الموقى طويلاً في الحدائق هناك للتفكير في الموت وحولهم كثير من أشجار ( السرو ) ، والقوم يعتقدون أنه يشير دائماً إلى السماء ليذكركم بالموت ، وعامتهم يبيعون استخدام النار في الطبخ لكن غلاتهم





(شكل ٢٤) مقبرة اعتماد البولة ، وهي من آيات الهندسة المفقولة الاسلامية في أجرا

يحرمون ذلك ، وجماعة البارسي من عبدة النار ، وهم أتباع الفيلسوف الفارسي (زردشت) عددهم يناهز للمليون ، ويعرفون باستعدادهم العظيم للتقدم وهم في مقدمة تجار العالم خبرة وأمانة .

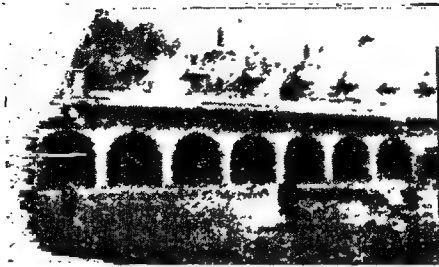
**البقر المقدس :** وقد استرعى نظري في الهند عامة وفي بمباي خاصة كثرة البقر الذي يترك طليقاً يجوب أحياء الطرق في غير حصر ذلك لأن المهندوس يقدسونه ويمدون قتل البقرة لا بل وبمجرد ضربها جرماً لا يقتفر ، فكم من مرة كان يفاجئني سائق السيارة أو الترام بالوقوف لأن هناك بقرة تنام وسط الطريق فلا يجرؤ أحد أن يضربها وإن طال وقوفه نزل فسمح عليها برفق حتى تقوم ، ودهشت مرة وأنا في محطة (راتلام) لأني رأيت قطار السكة الحديدية أخذ يدوي صغيراً وهو مقبل على المحطة ثم وقف فجأة وبالبحت وجد الناس بقرة تمرح بجانب القضبان ، وقد حدث مرة أن أميراً هندوسياً صدم بقرة بسيارته فقتلها فظل يكفر عن ذنبه هذا بالهدايا الباهظة للبراهما أمداً طويلاً حتى غفر ذنبه ، وكل فرد وهو على سرير الموت يمسك بذنب البقرة حتى تفيض روحه إن أراد الجنة .



( شكل ٣٥ ) على شرفة ريج الياسيم في أحرأ

بلغنى أنه لما حضرت الوفاة مهرابا كاتمير الأخير طلب أن تساق البقرة إليه فى غرفته ، فلما لم يفتحوا فى ذلك حمل الأمير إليها فأمسك بذنبها حتى طاشت روحه ، وقد قيل إن العصيان الهندى الكبير كان من السهل تلافه لو أن بريطانيا منعت ذبح البقر ، وكان ولا يزال بعض الجند يأبون حمل السلاح نظهم أن دهن البقر يدخل فى تركيبه ، وثار الكثير لأنهم كلفوا أن يفرغوا قطراً تملأها لحوم البقر المحفوظة فى علب جى بها من استراليا .

ويقدس الجميع حسمة منتجات فى البقرة وهى : اللبن والمسلى واللبن المتعجن والروث والبول ، وتلك توضع فى أوان ساعة الصلاة ثم تمزج ببعضها ويشرىها القوم تبركاً كأعظم مطهر من الآنام ، وهذا المزيج يسمى فى عرفهم ( Panchagavia ) وغريب أن يكون أثر البول فى الطهر أبلغ لسيهم ، فكثيراً ما كنا نرى الناس يقفون أثر بقرة لكى يحملوا البول وهو دافى فى آنية ، وبسرعون بها إلى بيوتهم ليشربوه على الفور أو ليدهنوا به وجوههم وروءوسهم . وقد يتلقاه الرجل فى يديه ويحتسيه أمامنا وهم يعدوننا أنجاساً لأننا نأكل لحم البقر ، ولذلك فهم لا يسلمون علينا باليد مطلقاً وإن اضطروا لجهاؤهم لبسوا القفازات ، فكم من مرة



مددت فيها يدي  
لأصافح بعض  
من تعرفت بهم  
من زملاء القطار  
من بين المتعلمين  
فكان خجلى  
شديداً عند  
ما كنت أراهم

( شكل ٣٦ ) في فناء مسجد القاعة في أجرا

يرفضون ذلك ويضمون أيديهم إلى صدورهم لرد تحيتي لهم ، وحدث مرة أن  
خادم القطار قسم لي الطعام في العربية التي كنت أركبها ، وما كاد يقع نظري إخواني  
الهنود من حولي على اللحم الذي آكله حتى تنحوا عني ، وأخذت ترمقني نظراتهم  
بشيء من الازمئزاز ، وقد عانيت طويلاً حتى استعدت علاقتي الحسنة معهم كرة  
أخرى ، وصارحتهم بأنهم يرون في ذلك الرجس كله ، وأن نفسه تنقرز  
ويعروه الشعور بالنقص لمجرد رؤية اللحم ، وكثيراً ما كنا نرى البقر تطلق جيده  
العقود ، وتغضب قرونها بالألوان وتزينها أطواق النحاس البراق ، ويقبل السارة  
على البقر لتأكل وتقبل .

ومن عجيب أمرهم أنهم يهلون إطعام البقر على قداسه ، ويكتفون بتركه  
يجوب الطرق ويرعى ما ألتى فيها من قمامات ، لذلك نرى غالب الأبقار عجافاً  
هزالاً قد أصابها مختلف الأمراض ، ومما ساعد على انحطاط نوع البقر هناك  
أن من يهب عجلًا أو بقرة للمعبود تتركاً أو لمناسبة موت عزيز لديه يبتاع أرخص  
الأنواع وأردأها وتطلق هذه وتظل ما كالا للمعابد بدون رعاية أو استئلال ، وقد  
قدر عددها بنحو سبعين مليوناً لا يستفاد منها شيء ، ولو استغل هذا العدد لانتج  
ما قيمته ١١٧٣ مليون جنيه في العام ، وطالما تقع المشاحنات المبيدة بين الهندوس



( شكل ٣٧ ) محطة فكتوريا في بجاي من أنغرمباني "مالم" ، وإلى اليسار دار البلدية

والمسلمين يوم عيد الأنحى بسبب ذبح المعجول ، وإن نعجب فمعجبنا من تناقضهم ، فالبرهما هو الذى يبيعها للمسلمين أحياناً إلى ذلك تضاف قسوة الهنود جميعاً فى معاملة ذاك الحيوان المقدس عند استخدامه فى جر العربات ، والمعجول هى دابة الجر الرئيسية فى الهند ، فلا تكاد ترى حيواناً سليم الذنب لأن السائق يضغط على فقرات ذنبه طول الطريق يستحثه على مواصلة السير لذلك تراها تتكسر ، إلى ذلك تعذيب البقرة ساعة حلبها إذ يدخل الخالب فى دبر البقرة عصى زودت بأهداب خشنة ولا يفتأ يحركها معتقداً أن ذلك يدر اللبن ( Phuka ) غير أنه بما يحدثه ذلك فى البقرة من الآلام المبرحة .

عبر الدكن : قمنا تساق الغات الغربية ونعبر هضبة الدكن إلى مدراس ( ٢٥ ساعة ) فجرتنا فاطرة كهربائية ، وأخذت تصمد بنا فى سرعة بخيفة والمناظر من حولنا كأنها من مناظر سويسرا أو اسكتلندا أو أستراليا فى التمايل بين ربي تكسوها الخضرة الوفيرة وخوانق وهوى غائرة سحيقة ومجارى وغدران وتقايع آسنة وكأنها من لجين ، ظل المنظر هكذا ساحراً زهاء أربع ساعات حتى وصلت پونا ، وهنا عادت المناظر مملّة موحدة إذ أصبحنا فوق هضبة الدكن ، على أن الجو قد تحسن ونقصت الحرارة قصاً محسوساً ، والسكة الحديدية إلى هنا عمل هندسى عظيم غاص بالليات والمطاوى العجيبة والاتفاق المتعددة ، والكهرباء تستمد من



( شكل ٣٨ ) برج السكون حيث يعرض جماعة ( البارسي ) جثث موتاهم  
فتفتش عليها تلك القبائل فتنهش لحمها على القور

منحدرات للماء حبس ماؤها في أنابيب ضخمة لتزيده قوة ، لبثنا نسير فوق  
الدكن طويلا تلك البلاد التي تكاد تكون جافة إذ لا يصيبها من المطر إلا النادر ،  
لذلك كنا نرى في الحقول شبه آبار أو أحواض مستديرة يملأها المطر ويدخر فيها  
ليستقي منه القوم ، وقلما كنا نمر بالقرى والدمساكر مما يؤيد ندرة السكان هناك ،  
على أن بقاءا من الأرض كان يعدها ذوها استقبالا للمطر الضئيل المنتظر ، والناس  
هنا أكثر مهيبة من سوامم ولا يزال غالبيتهم من سلائل ( الدرافيديين ) سكان  
الهند الأوائل ، ومن أعجب عاداتهم أن يشاطر في الزوجة الواحدة أكثر من زوج  
واحد وبخاصة الإخوة ، وكانوا إلى أمد قريب يتعقبون أنسابهم عن طريق الأم  
لذلك كان الميراث الرئيسي لابن الأخت أو ابن بنتها أو لأى شخص من فرع  
الأنثى أما الابن فلا يرث ولا تزال تلك العادة اليوم بقية بين قبائل ( تودا Toda )  
هناك ، ويمد المهندوس أولئك القوم من الطبقات النجسة المنبوذة .

الطبقات والمنبوذون : لما أن أغار المهندوس على الدكن من



( شكل ٣٩ ) مريقى من عدة الباري مارس

الشمال قسموا الناس طبقات مد أن تملكوا الأراضي ووضع زعماء الدين (البراهما) أنفسهم موضع وكلا- الآلهة ، ويلبهم في المقام المعانلة ( Kshattiyas ) ثم الزراع ( Vaisyns ) وكان يحترق أفراد الطبقتين السابقتين ثم يلى أولئك طبقة ( Sudra ) السدرا وهم الخدم والأتباع ، ومن كل أولئك يتكون الهندوس ، وأخذت تلك الطبقات الأربع تنسب إلى سبع ومذاهب عدة ، فكانت إلى سنة ١٨٧٢ ٦٩ ونما عديدها حتى أصبحت ٢٣٧٨ في سنة ١٩٠١ ولا تزال تزيد في كل يوم . ويعتقد الهندوس أن الرجس بصيهم إن اقدروا من أحد أفراد طبقة أدنى .هم ولا يتبادلون المصاهرة قط ، ويقاطع الجميع كل فرد قد سرف الاسباب الطبقة فلا تقبله حتى الطبقة التي هي أدنى منه ولا يغفر ذنبه إلا بعد تقديم القرابين الباهظة ( للبراهما ) ، وكثيراً ما كنت أرى القوم في عربة القطار يتحون جانباً ، ويخبثون طعامهم عن أعين الأجانب أمتالى خسية أن تدنس نظراتنا طعامهم الطاهر ، وكنا نرى جميع الناس حتى المدقمين منهم يحملون أواني من محاس بها ماء يشرب للمسافر منه ولا يأمن لغيره قط أن يمسه مخافة تدينسها وإذا فرغت ينزل في الحائط نفسه فيملأها سده من صنوبر محكم الغلق تمدد مصالحة السكة



الحديدية في جميع  
المحاط لهذا الغرض،  
وفي السجون يأى  
المحرم تناول الأرز  
حتى يتأكد أن  
الطاهى من أفراد  
طبقتة .

وهناك طبقة  
تعدّها الطبقات  
السالفة دون الجنس  
البشرى ويطلقون

( شكل ٤٠ ) البير المقدس يعرض أمهات الطرق في بباى

عليها كلمة پارياه ( Pariah ) خصت بهم الأعمال الوضعة ولحق اسمهم العار ، من  
بينهم الكناس والخانوقى والحلاق واللولة وغيرهم ، وقد حرموا التعليم ، فلا يباح لهم  
القراءة حتى فى الكتاب المقدس ولا يدخلون المعبد ، ولبس لهم أن يستقوا من  
الآثار العامة ، ولا ينقاضون أمام المحاكم ، ولا يدخلون صدله ولا حانوتاً ، وفى  
بعض للقاطعات لا يباح لهم المرور فى بعض الطرق العامة مخافة نديسها . فيتعاون  
حاجانهم بوساطة قوم يتحرون على ذلك ، ولهم أن يمارسوا مهنة التسول وعندئذ  
لا يقفون فى الطرق بل يصيحون وهم على بعد فإن أتى إليهم المارة بالصدقات  
انتظروا حتى يفرغ الطريق من المارة وأسرعوا لالتقاطها والعودة عاجلاً ، ويعد  
البعض ظل أولئك مجساً فإن سقط على طعام وجب إبلافه ، ومن هنا فهمت  
السبب الذى من أجله كنت أرى كل ركاب القطار يحملون ( أعمدة الطعام )  
من أربع ( طاسات ) أو خمس ، كلها من الأرز ذلك مخافة أن يصيب الدنس



الطعام وعندئذ يمكن إتلاف  
(طاسة) واحدة لا الجميع ،  
وبعض أفراد تلك الطبقة  
يدنس غيره وهو بعيد عنه  
من أثر تنفسه أو رائحته ،  
لذلك يقف أولئك على بعد  
قد يفوق مائة متر عن  
الطريق العامة ، فإن قرب  
أكثر من ذلك وجب عليه  
أن يضع في عرض الطريق  
ورقة شجر خضراء ، وعايها

كومة من تراب ليدل ( شكل ٤١ ) إحدى نساء طبقة النبيذيين الأنجاس  
الناس بذلك أن هناك فرداً نجساً على مقربة ، فإذا رآها ( البراهما ) وقف وصاح  
غاضباً ، وعندئذ يعدو النجس حتى إذا ما بعد عنه بالمسافة المعينة صاح هو بدوره  
معلنًا ( البراهما ) بالمرور ، وفي بعض الجهات ( كساحل مالابار ) لا يباح لهم إقامة  
المساكن الثابتة بل أخصاص مؤقتة ، ولقد كان من حق سائر الطبقات الممتازة  
أن يقطعوا من يعترضهم من هؤلاء طعنات قد تودى بحياتهم ، وإن حرم القانون  
ذلك اليوم ، وعدد تلك الطبقة من النبيذيين ستون مليوناً ، أى نحو خمس سكان  
الهند ، ولقد تخصص فريق منهم في الإجمام والتشرد والمطاراة ، وعدددهم  
نحو ٤٤ مليوناً ينشون في طول البلاد وعرضها تحت اسم القبائل المجرمة .

ولقد منحت الحكومة طبقة النبيذيين اليوم كثيراً من الامتيازات على رغم  
معارضة الطبقات الأخرى ، لكنك تجد هذا محترماً في المدن الكبرى ، أما في





( شكل ٤٢ ) مثل من أمراء الهند الذين ينعمون على  
حساب شعوبهم البائسة

الأرياف فيسلبون  
عملياً جميع حقوقهم ،  
ففي مقاطعة مدراس  
مثلاً يبيع القانون  
قبول أولادهم في  
المدارس ، لكنهم  
لا يدخلون سوى  
٦٠٩ مدرسة من  
بين ٨١٥٧ مدرسة ،  
ويرى كثير من  
التململين ورجال  
التشريع من الهنود  
وجوب مساواتهم  
بالضير ، لكنهم  
يقولون أن عملاً

كهذا يثير السواد الأعظم من الهندوس ، لأن نظام العاقيات في صلب الدين ،  
وقد بدأ منبوذو بنفالة وعددهم مليونان يناضلون ليدخلوا أبناءهم للمدارس ، ويعتقد  
كثير منهم الإسلام والمسيحية تخلصاً من ظلم الطبقات المبيد .  
والعجيب أنك لا ترى فرقاً في الشكل بين الطبقات النجسة وغير النجسة ،  
وقد ترى من أفراد الأنجاس من يروك منظره أكثر من أفراد الطبقات  
المتأززة ، على أنهم لا يجراؤن أن يدخلوا مكاناً به أحد هؤلاء ، وللدesh أن  
غالب للنبوذيين راض عن هذا النظام ، لأن الدين هو الذي يأمر به ، وإن أخذ  
عدد الثاثرين عليه منهم يزيد يوماً فيوماً خصوصاً في مدارس ويكتب كثير من

المتتورين من المنود في ضرورة بقاء نظام الطبقات احتفاظاً بأوامر الدين وهم يرون أن الأنجاس يكفيهم أنهم لم يفسطوا حقهم في الآخرة !

إلى مدراس : ظل القطار ينهب الأرض فوق الدكن ، واخترق جزءاً من مقاطعة ( حيدر باد ) أكبر المقاطعات المستقلة ، حاكمها أوتوقراطي شديد البأس وصاحب ثروة خيالية تحكى ثروة ساميان ، إذ يعد أغنى أمراء الدنيا ، قدرت كنوزه بأربعين مليون جنيه ، والعجيب أنه مسلم مع أن تسعة أعشار رعاياه من الهندوس ، وهو أكثر الأمراء ولاء لانجلترا ، ويطلق عليه ( نظام حيدر باد ) وهو الوحيد الذى يسك نقوداً خاصة به تغاير سائر نقود الهند ورعاياه في الجنوب من الدرافيديين وفي الشمال من الآريين ، والأراضى هنا فقيرة ذات حزون غالبها مهمل ، ولم أربها من دلائل الخصب والغنى الذى كنت أقرأ شيئاً ، وعلمت أن الأهالى يدفعون للحكومة روية ( ٧ قروش ) عن كل فدان انجليزى في كل عام ، وغالب الجهات المتزرعة ينمو بها بعض أنواع الفول ثم العظم ( النيلة ) وكان يبدو عشباً كالبرسيم في ورق صريض ، على أنه يكبر في شجيرات قصيرة تقتاع وتمطن في الماء ، ثم تغلى فتسيل العصارة السمكية وتجهز في أقراص هي النياج المعروف ، وكان أظهر الشجر هنا نخيل ( بالميرا ) وهي شجرة تؤتى ثمرأ كالزجيل يأكله القوم ويستخرجون منه السكر ، وإذا خدشوا الجذع سالت منه عصارة سريعة التخمير يعمل منها خر الطبقة الفقيرة المسكر القوى الذى يسميه القوم ( تودى Toddy ) وإذا زرع الشجر حديثاً كون جذوراً نشوية خلال الثلاثة الشهور الأولى تقتاع وتجفف ويستمد منها دقيق الحلوى .

وهنا زامانى في القطار رجل تعرفت به بمناسبة عجيبة ذلك أننى لاحظت بجانبى على زجاج النافذة حشرة تطير ولها طنين أزغنى فسمدت إلى قتلها فتعرض الرجل وحينئذ تم تناهيا بمندبلا وأبقى بها من النافذة وبمحادثته علمت أنه يدين بمذهب :



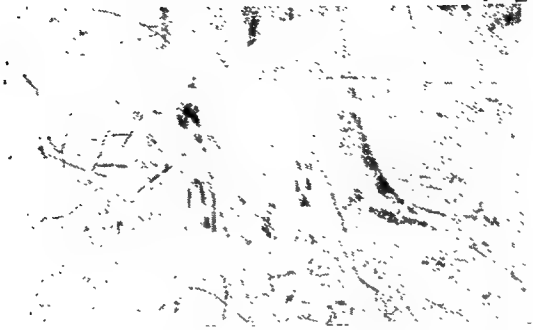
( شكل ٤٣ ) القردة تخرج آمنة حتى في جوار السكة الحديدية

الجانبي : وهذا يحرم إتلاف الحياة كائنة ما كانت من بينها الحشرات الضارة ، والنحل وما إليها ، حتى أنهم يحتمون كنس الأرض قبل الجلوس ، وعدم رش الأرض بماء كثير خشية قتل بعض الأرواح الطاهرة ، وتراهم يغطون أفواههم بقطعة من حرير خشية أن تدخل فيها حشرة أو بعوضة فتتوت ، وهم لذلك يفضلون الاشتغال بالتجارة والصناعة ، ويكرهون الزراعة لأن المحراث يتاف كثيراً من الحيوان ، وتلك جريمة كبرى .

وعدد أولئك في الهند يناهز أربعة ملايين ، وهم يدعون أنهم كانوا بوديين قبل أن يخلق بودا نفسه ، وهم يتفقون مع عامة الهندوس في الاعتقاد في تناسخ الأرواح ، فهم يرون أن الروح تحمل أجساداً أخرى قد تكون آدمية ، وقد تكون لطائفة من الحيوان بعضها من طبقة عالية ، والبعض من طبقة خسيصة ، فالرجل الفاسد قد تحمل روحه بعد موته سمكة أو حشرة ، ولما كانت جميع الحيوانات عرضة لانتحال روح آدمية حرم الجميع قتلها حتى ولو كانت مؤذية ، ففي سنة ١٨٩٦ حين فتك الطاعون بالهند فتكا ذريعاً عين مجلس أمر تسار جوائز تصرف ( ٥ — آسيا )

لمن يمسك بالقيمان كى تجلس بما فيها من براغيث ملونة حتى إذا ما انقضى خطر الطاعون أطلقت ثانية ، وفى كثير من البلدان تكثر الطيور الضارة كثرة هائلة فلا يتعرض لها القوم . فثلاثا كنت فى كولمبو كانت صيحات الغربان المنفرة تلك التى تسير فى سحابات تكاد تكسو أعلى البيوت تغلق راحتى ، وكنت كل يوم أستيقظ حول الساعة الرابعة صباحاً على أصواتها المزعجة ، وكانت تقيم أوكارها فى جوانب الحجرات ، وزواياها بكثرة عجيبة ، وبعض الطيور يتلف المزارع ، ومع ذلك لا يسبها أحد بسوء ، وكأن طوائف الحيوان أحست ذلك الرفق ، فأضحت مستأنسة ، أذكر مرة أنى رأيت سرباً من الطاووس يمر بجانبى فى محطة مقول سراى فى اطمشتان غريب ، وكم كنت أدخل من معابد أرى بها القردة تقف على كواهل الناس وتداعبهم فى غير خوف ، وقد رأيت قرداً فى سوق دلهى يسترق القاكهة للمروضة ويأكلها ، والبائع يراه بعينه فلا يتعرض له ، وقد بلغ احترامهم للحيوان حد التقديس . فهم يقدسون القرد والفيل والتمسك والطاووس والبيضاء ، وحتى الأفى التى يموت بسببها عدد كبير كل عام ترى لها معابد خاصة تمرح الأفاعى فيها ، وتنحت لها تماثيل يسجد القوم أمامها .

وصلت مدراس ومنها قمت صوب الجنوب فزادت الأرض فقراً وجدباً ، ومررنا بمحطة ترنتشو پولى ذات الصخرة التاريخية المشهورة ، وهنا ركب إلى جانبى هندى بادن الجسم منفر للنظر ، وكأنه ( الفول الآدمى ) جلس بجانبى ، ونصفه الأعلى عار ، ويغطي بشيء كاللحم لامع تملوه وجبته خطوط من التراب الدينى الذى كان يحدده بأصابعه بين ساعة وأخرى ليدل الناس على طيبته الدينية الممتازة خشية أن يدنس من هو أدنى منه ، وهو من الوجهاء لما بدا من أتباعه وخدمه من ركاب الدرجة الرابعة الذين كانوا يقدون إليه فى الدرجة الثانية كلما وقف القطار ، وكان طوال الوقت يتمخط فى الهواء مرة كل دقيقتين ، ويصق السائل السموى من أثر العشب الذى يعضه القوم جميعاً ، وكانت سيقانه وأقدامه عارية ،



( شكل ٤٤ ) مارال قتائل المدا اهل سر دس عوود السامات بحالهم المحببة

ولما حان ميعاد الغذاء أخرج من جانبه قطعة من ورق شجر الموز ووضعها بجانبه وفتح عامود الطعام واغترف بكامل يده الأرز مرات ووضعها على ورقة الموز ، ثم صب عليه بعضاً من مسلي البقر وعجنه بيده ثم أخذ يلقه بسرعة واضطراب مخافة أن يقع نظري على الطعام وهو يلتمسه فيفسده ، وقد أعاد الكرة من الطاسة الثانية ثم الثالثة وكلها من الأرز المسلوق ليس غير ، واختتم الوجبة بمسح يديه في جسمه في شكل قدر ، على أنى لا أعطه حقه في التأني إذ كان يحلى يديه بالسوار العريض وأصابه بالخواتيم الثقيلة وجسده بالعقود ، وأذنيه بالاقراط ، والشيب والشيخوخة قد نالا منه كثيراً .

وصلنا نهاية الهند الجنوبية ، وانتقلنا إلى جانب البحر كي نستقل السابحة عبر خليج منار إلى جزيرة سيلان ، وهنا جاء الطبيب وحجر على جميع الركاب الوافدين من مدراس لأنها كانت مصابة بالكوليرا ، وكاد يمتنى من الدخول إلى الجزيرة لولا أن أبرزت له تذكرة السفر على الباخرة ( فوشيمي مارو ) إلى اليابان من كولمبو في اليوم التالي مباشرة .

خاتمة : ذلك بعض ما رأيته في بلاد الهند التي يخطئ الكثير فيعدونها  
قطراً واحداً على أنها في الحق قارة لا بل عالم بأسره إذ زاد عديدها على خمس  
سكان الدنيا ، وتعددت شعوبها الذين يتكلمون ٢٢٢ لهجة مختلفة ، ونحو  
خمسین لغة كتابية متباينة ، وقد اتسع نطاق عقائدهم من أعماق الفلسفة البرهمية  
المأدنة إلى سذاجة عبادة الطبيعة وتقديس الحيوانات الدنيا ، والهنود أكثر الناس  
تديناً وبخاصة الهندوس وهم ٢١٦ مليوناً ومجموع سكان الهند ٣٢٠ مليوناً ،  
وكاوا عباد الطبيعة منذ ثلاثة آلاف سنة ، نالوهم المقدس (الطر والنار والشمس) ،  
ثم أعقب ذلك اعتقادهم في براهما روح القدس الذي يتغلغل في كل شيء ويسود  
كل نفس ، ولا تكاد ترى عملاً أو تصرفاً يتم في معزل عن الدين ، لذلك مثلاً  
براهما في رموز شتى نراها نحن مصحكة عجبية ، فبراهما هو الخالق وله أربعة رءوس  
وأربع أذرع ، وهو في معنى آخر يتمثل في فشنو الإله الحافظ لكل شيء\* (يحمل  
طوقاً وصدفة ومضرباً وغصناً من البشنين كلا في يد ) ، وفي معنى ثالث يتمثل في  
سيفا إله التدمير والإنشاء يحوط أخذاً جلد النمر ، ثم أعقبت ذلك رموز براهما  
المقدسة وهي : السمكة والسلحفاة والخلوف والإنسان يبدو في صورة الأسد ،  
والبطل راماً وكرشنا وآخرهم بودا الذي ضم إلى القائمة المقدسة استرضاء للبوديين ،  
أما البطل راماً فكان له خادمه هانومان يعبد القوم في شكل قرد عليه طلاء  
أحمر ، أما كرشنا فنخضب باللون الأزرق ويطأ أفعى بقدميه ويعرف على منمار ،  
وكان له زوجات عدة وذرية لا حصر لها وتقده بصفة خاصة طبقة العمال وكانت  
زوج فشنو آلهة الحال والثراء ظهرت من تحت ماء البحر وكأنها الزهرة ،  
ويقدها أصحاب التاجر والخوانيت ، أما سيفا فمختلف إلى القابر ومحارق الجثث  
وزوجه فالي (الفضيلة) التي لا يمكن استرضاؤها إلا بسفك الدماء ، وتقديم  
الذبايح ، وابناها (جانش) مجدّد المخلوط بحسمه البادن يتوجه رأس قبل ،  
وكارتيكبا إله الحرب وقائد الأحياء من الجن .



( شكل ٤٥ ) أحد أبطال ( الفقراء ) خزم طهره  
بين إعصاب مواطنيه

هكذا نشأت عقائدهم  
وتعددت آلهتهم وملأت  
آفاق الهند معادهم وأنصابهم  
في غير حصر حتى حق عليهم  
قول هيرودوت في أجدادها  
قدماء المصريين ( أنهم  
أكثر شعوب الأرض  
تعبداً ) لذلك أحمت البلاد  
مربي خصيباً للشعوة  
والخرافات والمعجزات التي  
يعتقدها الجوع بأيمان وثيق ،  
فالقديسون في زعمهم  
يستطيعون قطع الألسن  
وإرجاعها إلى حالتها الأولى ،

وإلقاء جبل في الهواء يظل عالقاً ثم يصعد عليه القديس ويعود وفي مده أنشلاء  
ابن عاق لا يفتأ أن يعيده القديس إلى الحياة ، وأمثال تلك الخرافات عديدة  
بحيث يخيل للإنسان أن كل شيء منها بدا معجزاً يمكن حدوثه في تلك البلاد  
الحوطة بالأسرار .

وعقلاؤهم يمحضون وقتهم في التفكير العميق ويضنون أحسادهم في سبيل  
تفذية نفوسهم فتقتصر أمانهم على خرقة سنر المورة ، وطعامهم لا يتجاوز سد  
الرقم ، وغلاهم من مختلف اللذاهب سمون ( الفقراء ) ويقدهم مواطنوهم لأنهم  
نبذوا الدنيا ورغبوا في الآخرة ، فبعضهم يعذب نفسه وينام على القنادر ، والبعض

يخزم ظهره ويلق من جسده في الهواء طويلا استرضاء للآلهة سيثا ، والبعض يدفن نفسه حيا أو يرفع ذراعه إلى السماء حتى تتصلب عضلاته أو يقف طوا حياته وهو يرعش جسده ولا يتكى على شيء يخفف من آلامه وتميز كل أولئك جدائل من الشعر ترسل في غزارة متفردة .

ولا يفوتني أن أشير إلى مبلغ الجمل المطلق والقرع المدقع الذي كنت ألمسه في كل نواحي الهند حتى كدت أشك فيما قرأته طويلا عن تلك البلاد وما فيها من منابع للثروة والعلم لا تنفذ . فالأمية هناك عامة والجهل منتشر ، وقد ساعدت على ذلك عوامل من بينها تعدد اللغات وتعدد حروف كل واحدة ( بين ٢٠٠ و ٥٠٠ حرفا ) وتعدد الطبقات وتعدد القرى وتفرقها بحيث يصعب أن تزود بالمدرسين إلى ذلك عدم الرغبة في تعليم النساء وهن نصف السكان تماما وكذلك طبقة المنبوذين مما أخرج من دائرة التعليم نحو ١٥٠ مليوناً بين منبوذين ونساء إلى ذلك اعراض الأمراء عن تعليم الأفراد خشية أن يشوروا عليهم ، وعدم توافر المال للانفاق على التعليم .

أما جانب الثروة فمهم إلى حد كبير ، فالأراضي تزرع بطرق عتيقة وبغير تسميد ، والملكية مشتتة في مساحات متفرقة ، وإنتاج الماشية معطل لأن ٧٠ مليوناً منها في ملكية المعابد إلى ذلك تنقات الزواج التي تلزم الآباء أن يدفعوا لبناتهم أموالا طائلة . أما الاستدانة بالربا الفاحش فشائعة بين الجميع حتى قدر الدين على الهند من تلك الناحية بنحو ٤٠٠ مليون جنيه ( الربا بين ٣٣ و ٢٠٠ ٪ ) ويميل عامة الهنود إلى اكتناز المال وبخاصة الذهب ما استطاعوا بغير توظيف ، ولا يقل ما هو مكنوز عند الأهالي عن ٥٠٠ مليوناً ، فلو وظف هذا لأصبحت الهند من أغنى بلاد الدنيا ، ويقول رجال الاقتصاد إن الهند وحدها تبتلع ٤٠ ٪ من إنتاج الذهب في الدنيا و ٣٠ ٪ من الفضة في كل عام ، ولا تنس أثر التسول في فقر البلاد ، فالدين البرهي يحث الناس على التصديق للدساوين لأن ذلك يعد ديناً لهم





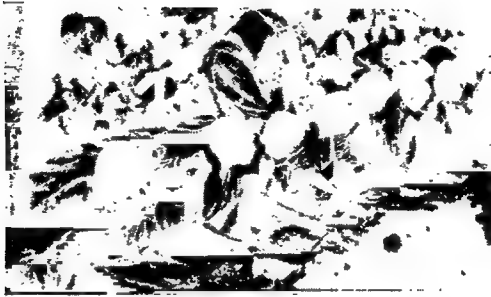
( شكل ٤٦ ) الفقير المحزون يتأمل من تلك الراقصة  
إسعاداً في تعذيب نفسه

يتقاضونه في الآخرة ، ولقد  
نما عدد أولئك حتى بلغ  
٧٢ مليوناً من بينهم طبقة  
الفقراء وهم مليون ونصف  
تقريباً هذا إلى عدد البراهما  
الذى يتمتع حصره .

ويُعد كثير من الهنود  
نققات الدفاع أكبر مبدد  
لثروة البلاد إذ تستنفد في  
زعمهم ٥٩ ٪ من الميزانية  
فلا يبقى شيء يذكر لينفق

منه على إصلاح شئون البلاد ، وإن قرر الانحياز أنها لا تزيد على ٣٠ ٪ أى  
بمعدل ٢٢ شلن على كل فرد في الهند فمهما في كل عام أعنى فوق ثلاثين مليوناً  
من الجنيهات .

على أنا يجب أن نذكر أن مدينة الهند بدأت قبل المدينيات الأوروبية وإن  
خلل سيرها بطيئاً وتقدمها غير محسوس ويرى بعض أنبائها أن مدينة الهند لها فضل  
على العالم من الناحية المعنوية التى تسعى وراء المثل الأعلى لا للمادة كما فى الغرب ،  
ويرى بعض الحكماء أن الهند منشأ الإنسان ومنبت فطته ، فنى تلال ( سيواليك )  
الواطنة جنوب سملا وما يليها شمالا بفرب إلى أفغانستان دفائن قيمة لفصائل بائدة  
من حيوان يرجع عهده إلى العصر الثالث الجيولوجى ، وهى أكبر مجموعة كشفت  
لحفريات الحيوان التدينى دلت على أن شمال غرب الهند هى المنطقة التى نشأت فيها ،  
ومنها تشعبت سلالتها إلى جميع الأصقاع ، ولذلك أصبحت تلك الزاوية من الدنيا



( شكل ٤٧ ) في مواسم الحج تأكل كل طائفة من الهدوس وحدها وتقدم  
الصدقات من طعام الأرض على ورق المور بدل الآنية خشية بدسها  
محط أنظار الباحثين من مختلف الأوساط العلمية ، وهم يرجحون أنها مولد  
الإنسان الأول .

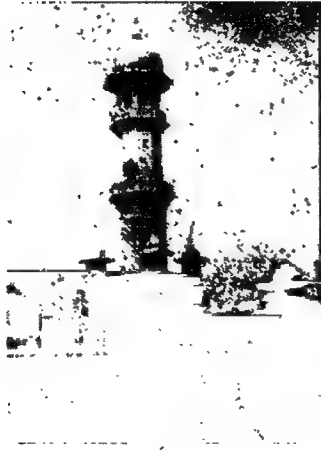
# الملايو

## جنة الدنيا وبستانها اليانع

الى سنغافورة والملايو : فى حسة أيام بعد مفادرة كولومبو أقباما على سنغافورة وسط الجزائر المنشورة إزاء ساحلى سومطرة إلى اليمين ، وشاطى' الملايو إلى اليسار ، والبلاد صخرية على الجانبين ، وبخاصة سومطرة التى بدت فى شكل مخيف برماها المعقدة التى تتعاقب كأنها عقد من جبال لانهايه ، وكنا نقدم ساعاتنا كل يوم حتى بلغ مجموع ما قدمناه من كولبو ساعة ونصفا ، وكأننا بذلك كنا نتعجل الأيام ونساقها إذ كنا تقارب مشارق الشمس فيكرميقات الظهر كل يوم عن سالفه .

سنغافوره : ( ومعناها مدينة الأسد ) : بدت ممدودة الأرصفة على جوانب الرى التى يتلوى خلالها البحر فى عدة أجوان مكنها أن تؤوى من السفن شيئا كثيرا ، كل طائفة فى مقصورة منعزلة عن الأخرى ، وعلى جوانب الرى تقوم المساكن بسقوفها الحمراء المتحدرة ، وتشرف عليها الحاميات العسكرية العاتية . حلت المدينة فاسترعى نظرى بها حسن القيام على طرقها الفسيحة النظيفة ، تجانبها الجارى لتصريف مطرها الوايل المستمر ، والترام هناك يسير على الأرض فى غير قضبان يكسو عجله المطاط المصمت ، وله سنجتان متجاورتان متصلان بسلكين ، وهو يسير بمهارة عجيبة ، ويتلوى من جانب إلى الآخر ، والسنجة لا تزال متصلة بالأسلاك وغالب البيوت فى هندسة بسيطة لا تزيد على طابقين ، وتشرف على الطرق بيوائك ضيقة بدل الأطارين انقاء المطر ، وعليها تقوم المحال التجارية باعلاناتها التى تكتب بالصينية والانجليزية ،

فى شرائح مستطيلة ، وغالب السكان من الصينيين يليهم المنود ثم الملايو ، ومن الغريب أن الذين يفهمون الانجليزية قليلون ، ويشق الجزيرة نهر سنغافورة الصغير تجانبه شعاب البحر الضيقة وكأنها القنوات تعبرها القناطر المديدة ، والمتنزعات الجميلة والميادين الجذابة لا تدخل تحت حصر ، والمدينة خفيفة الروح إلى حد يجعلها من المدائن النادرة ، وفى المساء دخلت ملهى تعرض به بعض ألماهم أذكر منها مقصورة الغناء الصينى ، كان يجلس القتيات حول مائدة عليها الأنوار وحوها المصاييحعلقة من الورق الصينى الملون ، وكان يقف خلفهن قارع الطبل وضارب الناقوس وعازف ( الرباب ) ، أما الغناء فتوجع فى غير توافق ، وكانت تخفى شدة الطبول المزججة تلك الأصوات للنفرة ، ثم مقصورة للرقص الصينى وغالبه بحركات الأرجل والأيدى ، وثالثة للتمثيل على النمط الهزلى المصرى ، ولم يكن تراحم القوم على تلك الملامهى كبيراً رغم رخص أجورها ، وكانت تسترعى نظرى الثروة الهائلة فى الثبت من حولى أينما حطت ، مما أيد القول بأن الملايو جنة الدنيا وبتناها البانع ، وأخص أنواع النبات هناك ( المطاط ) بأشجاره القضية النحيلة الباسقة التى تعد اليوم أعظم موارد الثروة هناك ، على الرغم من أن أثمانه قد تدهورت تدهوراً مخيفاً حتى بدأ القوم يفكرون فى استبداله بغيره ، وقد كانت النباتات متعددة وغللات البلاد متنوعة ، لكن علو سعر المطاط حدا بهم إلى استهزال كل ما عداه حتى كاد شجره اليوم يسد الآفاق مع أنه دخيل أتى به القوم من أمريكا عقب أن كشفها كولب الذى رأى صبية الأمريكان يلعبون بالمطاط الكرة قسائل ماذا عسى أن تكون تلك المادة التى تبدو صماء ثقيلة فإذا مالست الأرض أنضحت جوفاء خفيفة ، فأجابه القوم قائلين ( كاوتشو ) وأروه شجره وعصيره الذى إذا سخن جمد وكون تلك الكور والأقراص السوداء ، وكذلك رآه يتزارو فيما بعد فى ييرو وقد ضايقه المطر فرأى الأهالى يلبسون أحذيتهم وأغطية رءوسهم من ( الكاوتشو ) فنقلوه إلى الشرق ولم تعرف فائدته



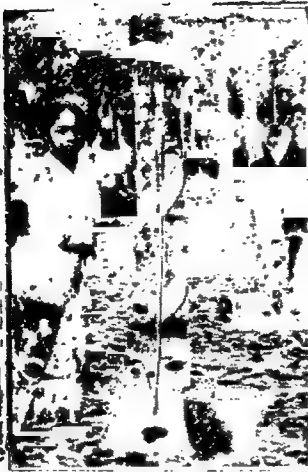
( شكل ٤٨ ) أملم مسجد سنغافورة

في مسح الكتابة إلا بعد  
قرنين ونصف ، وفي القرن  
التاسع عشر استخدم في  
الأنابيب ، ثم صنع منه  
( ما كنتوش ) رداءه الواقى  
من المطر بأن ألصق قطعتين  
من القماش بمطاط رخو لين  
وأخيراً عرفوا كيف يخلطونه  
بالكبريت ليحتمل قلب  
الأجواء ، ولما زادت شهرة  
المطاط زرعه الانجليز في  
حديقة ( كيو ) في لندن داخل  
بيوت زجاجية ، ومنها نقل

إلى المستعمرات الشرقية ومن بينها سيلان والملايو ، وهنا أحرق القوم أشجارهم  
جميعاً ليخلو الجو لشجر المطاط ، وكنا نرى العمال في المزارع يجوبون أرجاءها  
بمشارطهم التي يشقون بها خدوشاً تسيل منها العصارة إلى كيزان معاقمة ثم يجمع  
العامل الواحد في كل يوم محصول ٣٠٠ أو ٤٠٠ شجرة وينقله إلى المصنع وسط  
المزرعة لينطى ويصير أقراصاً هي المطاط الخام ، وقد كان يباع الرطل قديماً بستين  
قرشاً فنزل اليوم إلى قرشين ونصف ، لذلك حل بالبلاد كساد لم يسبق له مثيل ،  
وأقلس في المطاط كثير من كبار التجار هناك ، على أن البمض يرى بصيص  
أمل في أن هذا الرخص سيزيد الطلب على المطاط ، فيعود إلى حالته المربحة رغم  
ثمنه الضئيل .

**سلطنة جوهور :** من ضواحي سنغافورة ركبنا إليها سيارة عبرت جزيرة سنغافورة كلها سائرة إلى الشمال صوب الملايو ، ولا تسل عن ثروة الطريق في الأدغال والمايات بعضها غفل لم تمسه يد الإنسان . وهنا كدنا نذهل لتعدد الفصائل من الشجر والعشب والسرخس إلى ذلك الحيوانات الوفيرة ، وبخاصة القردة التي كانت تطل علينا من جميع جوانب الغابات ، ويقول القوم بأن تلك الأماكن غنية جداً بالأفاعى والحفاش واليراعة وبعض الوحوش ، أما طريقنا فكان يتلوى كالأنفى وسط الغابات القائمة ، وحيث كانت تتمهد الأرض يد الإنسان ، كنا نرى أشجار المطاط في صفوف متوازية تكاد تملأ ثلاثة أرباع الأراضي ، وقد مررنا ببعض للزراع وفيها بدأ ذووها يستأصلون الشجر ليفسحوا المجال لغيره كالخضر والفاكهة ، وبخاصة الأناناس الذي كان يبدو نباته وكأنه الصبار الكبير تتوسط كل شجيرة ثمرة واحدة في طول ( كوز الشام ) وفي لون برتقالى وملس خشن محبب ، وكلما قطعت الثمرة أعقبتها غيرها ، ويستمر الأثمار طول العام .

لبثنا نسير بالسيارة وسط تلك الجنة النادرة زهاء ساعتين ، وبعدها عبرنا البوغاز إلى الملايو فدخلنا سلطنة جوهور ، وهي إحدى ولايات الملايو التي يحكمها سلطان مسلم تحت إشراف الإنجليز ، وعند ما فار بنا قصر السلطان دخلنا في مجموعة من متنزعات أبدع تنسيقها ، يتوسطها قصر من طبقتين ، تمد في الدور الأسفل غرف الولايم وعليها السط الفاخرة وغرف المعروضات من الهدايا بين فضاء وذهب وأسلحة ، وفي الدور الأعلى غرف الجلوس والنوم وكلها على النمط الغربي والسلطان زوج لأحدى الأوروبيات قلما يقيم هناك ، فهو يمضى تسعة شهور خارج بلاده . يعيش عيشة بذخ وإسراف شديد ، والناس من دونه يكاد يقتلهم الفقر ، وهكذا سائر الأمراء أمثاله في تلك الولايات ينعمون على حساب الرعايا البائسين ، فسبحان مقسم الأرزاق ! وبجانب القصر مسجد في هندسة شبيه مغولية



(شكل ٤٩) قنات اللادو في سجنهم العربية  
الجميلة بجمعن الطلاط

تقوم حوله أبراج بدل للآذن  
وبهوه فاخر النقش والأثاث  
ينزل الإنسان درجاً من رخام  
إلى المنسل (الليضة) القسيحة  
للوضوء ، وفي عودتنا إلى  
سنغافورة زرنا حديقة النبات  
دائمة الصبت ، وبخاصة في  
مجموعة أشجار النافذة للممتازة  
أبحرت الباخرة وظلت  
تسير خلال مجاميع الجزائر  
تكسوها الغابات والربى زهاء  
ثلاث ساعات مما يقنع المرء  
بعضلة هذا الموقع من الوجهة  
العسكرية فهو حقاً مفتاح

الشرق الأقصى ، ولذلك ليس بعجيب أن وجدنا العمل سائراً على سابق وقدم في  
إنجاز القاعدة البحرية الكبرى رغم أكلافها الباهظة التي لا تقل عن أحد عشر  
مليون جنيه ، وأول من احتل جزيرة سنغافورة (السير ستامفورد رافل) سنة ١٨١٩  
وكانت تكسى بالغابات المهمة ، وبها قرية حقيرة فانتاعها الانجليز من سلطان  
جوهور بخمسة آلاف جنيه و ١٥٠٠ جنيه كمرتب سنوي يدفع لمدة حياة ذاك  
السلطان ، واليوم تضم سكانها فأنحوا ٤٢٠ ألفاً منهم ٣١٥ صينيون و ٥٤ ملايين  
و ٣٣ هنود ، ولكثرة التزاحم هناك بدأت الحكومة تفكر في تحديد المهاجرة إليها  
واعترافاً بفضل (السير رافل) ترى تمثاله يزين أكبر ميادين المدينة ، واسمه ذائع  
في كثير من منشآتها .



( شكل ٥٠ ) سخرة پناج تكسوها الغابات ويسلقها ترام الجبال

أما سائر الملايو فتتألف من ولايات بعضها مؤتاف والبعض تحت سلاطين مستقلين وجميعهم تحت إرشاد الانجليز ، وأول مكان احتله الانجليز من شبه الجزيرة مدينة ملقة التي انتزعوها من هولاندة ، ثم پناج وهي جزيرة على الساحل الغربى ، وكانت تدير كل ذلك شركة الهند الشرقية ثم انتقلت للتاج البريطانى ، ويغلب أن تكون الجهات التي تقام بها الحصون الانجليزية إلى الجانب الغربى من الملايو لتشرف على البوغاز .

رسونا على پناج : فى عودتى لمصر ويفصلها عن الملايو بوغاز ضيق يؤوى عدداً كبيراً من السفن ، والجزيرة صخرية يحيط بشاطئها طريق مبسوط يحيطه ٢٦ ميلا ، وتقام غالب المساكن على جانب ذلك الطريق ، على أن بعضها كان يقوم على منحدراتها التي يصلو بعضها إلى ثلاثة آلاف قدم . أما الطبقة المحتازة فتقطعن النروة التي تصلها بقطار كهربائى هوائى . ومن هنالك ينكشف منظر البحر وشتى جزائره فى رواء ساحر ، ومبانيها شبيهة بتلك التي فى سنغافورة وكذلك ساكنوها ، ولعل أجملهم سحنة الملايو فهم أقرب إلى الملاحح العربية فى سمرة خفيفة ، وهم أخف روحاً وأكثر جاذبية من الصينيين والهنود وتموز الجميع النظافة

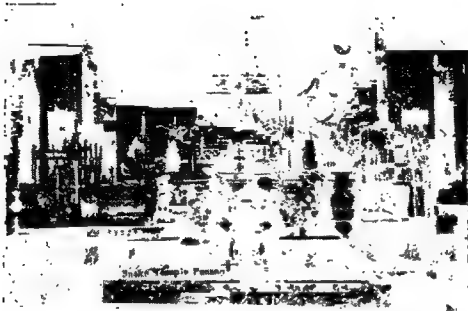




( شكل ٥١ ) تقوم بيوت الملايو على عمد  
من خشب وسط الغابات

وكثير غيرها ، وكانت تقوم مساكن القوم وسط تلك الغابات شأنها في جميع بلاد الملايو على عمد من جذوع الشجر لاجتناب السيول والحشرات وليستظلوا بالشجر الكثيف من وهج الشمس الاستوائية ، وهناك حديقة للنبات شبيهة بتلك التي في سنغافورة ، ولعل أغرب ما زرته هناك معبد الأفاعى ، دخلناه فراعتنا كثرة الأفاعى الطليقة التي لا تصيب أحداً بأذى رغم أنها كانت تسير حولنا وترحف فوق أكتافنا بأحجامها المختلفة ونقوشها البديعة ، وكان كثير منها يتسلى من الأركان والمصاييح والشرقات وعددها مائتان تستهلك في اليوم مائة بيضة ، وهى تخرج لترح في الغابات المجاورة للمعبد ليلاً ، وتظل طوال نهارها داخل المعبد ، وغريب أنها لا تؤذى رغم وجود أسنانها ، وكنا نرى كثيراً من جلودها الشفافة

وعالهم يبدو بجسمه العارى  
البراق للنفر ، وقد التصقوا  
بجدران دورم في خمول زائد ،  
ولعل للجوارظ الحب الخار المجهد  
أثراً في هذا ، أما ضواحي  
المدينة فتكسوها الغابات  
الكثيفة وكان أظهر شجرها  
الترجيل والمطاط وبعض  
أشجار الفاكهة الغريبة  
كالمانجوستين والراموندان  
والدوريان ، ولغالبها أهذاب  
في ألوان مخنفة ، كذلك  
فاكهة الخبز والأناس



( شكل ٥٢ ) معبد الأفاعى تخرج به الحيات وتبتلى من جمع الأركان  
التي انسلخت عنها معلقة في كامل طولها وقشها ، وهناك في قفص كبير أفعى بالغة  
الحجم والطول تنفر نفرات مخيفة كلما أحطنا بها ، ورواد المعبد يقدسون تلك  
الأفاعى ، ويقدمون لها المساعدات المالية إبقاء عليها وإجلالاً لها .  
ونفقات المعيشة في تلك البلاد عامة إلى حد لا يطاق رغم أن المرء يزهد في  
المقام في جوها المحرق القتال .  
عادرنا الملايو وسنغافورة صوب بلاد اليابان و بعد حصة أيام وصلنا هنج كنج  
وفي ثلاثة أيام أخرى رسونا على تنغهاى . ثم تبعها كوى أول شور اليابان في  
ثلاثة أيام أخرى .

## اليابان

### آية العصر في الاخلاص والنهوض

نبذة تاريخية : يبدأ تاريخ اليابان منذ عهد الامبراطور ( كياي ـ تنو ) سنة ٥٤٠ ميلادية ، وسبقه نحو ألف عام سادتها الأوهام والأفاصيص عن بعض الأبطال إذ لم يدون عنها شيء باليقين ، وفي القرن السادس دخلت البوذية البلاد وبدأت مدنية اليابان الحلقة ، فلقد أحضر القسس من كوريا كتبهم المقدسة ، ونقلوا معهم فن الطباعة وتماثيل بوذا وطلائفة من صائنى التماثيل وبناء المعابد والمصورين والمثالين والمدرسين ، ونشروا التقويم والحساب الصينى ، ولقد ساد الدين الجديد عقول البلاط حتى عدوه دين النولة سنة ٦٢١ ، وعد الأمير ( شوتوكو ) مؤسسه ، على أن دين البلاد — الشنتوى — قاوم الدين الجديد فى البدء ، لكن سرعان ماتهادن الإثنان لما أن اعترف البوذى بالألهة الشنتوية ، نهض عندئذ الفن اليابانى ، ونشطت العمارة فظهرت آثارها فى معبد ( هوريجو ) أقدم بناء أقيم من الخشب فى العالم والآثر الوحيد الباقي اليوم الذى أقيم على نمط الهندسة السكورية والصينية منذ ١٣٠٠ سنة .

وفى صدر القرن السابع سادت الحضارة الصينية الناس جميعاً حتى فى نظام الحكومة الذى تغير من الحكم الإقطاعى إلى الملكية ( سنة ٦٠٣ ) فقسمت فروع الادارة على النمط الصينى ، ونشأت طبقة من الأشراف ، على أن هذا النظام كان له خصوم فساعدت المشادة بين الفريقين على قيام هيئة عسكرية امتازت على جماعة الزراع واتخذت ( نارا ) عاصمة البلاد كلها سنة ٧١٠ وهنا ازدهر الفن ، يؤيد ذلك التمثال الأكبر ( دياوتسو ) لبودا ولا يزال أكبر تماثيل اليابان من النحاس ثم الناقوس الأكبر وكذلك أقدم كتاب خط باليابانية .

وعلى أثر ازدياد الحاسة للدين الحديث كثرت المنشآت الدينية ، واتسعت أملاكها واثروتها تحرمها فئة مسلحة لم تلبث أن تدخلت في شئون الدولة ، فلم تر الحكومة بداً من نقل العاصمة إلى كيوتو سنة ٧٩٤ التي ظلت مهداً للحضارة أربعة قرون ، حتى كانت سنة ١١٩٢ حين أهاجم ( يوريتومو ) حكومة عسكرية في كاماكورا فأصبح نفوذ الحضارة الامبراطورية ( كيوتو ) صورياً بجانبها واختار وزراءه من زعماء عائلات خاصة طالما أدى التنافر بينها إلى قتال داخلي ، وآلت سلطة البلاد إليهم ، وأصبح الميكادو لا حول له ولا قوة .

أخضع ( يوريتومو ) البلاد جميعها وازدهر في كاماكورا نوع من الحضارة ساذج يلامح الروح العسكرية إذ ذاك ، ومن العائلات التي سادت متعاقبة فوجيوارا ، وطايرا ( هايكي ) وميناموتو ( جنجي ) ، ومن الأسرات العامة عائلة ( هوجو ) التي سادت مائة سنة ، حتى غلبتها أسرة ( نيتا ) حين أحرقت العاصمة كاماكورا وأعيد الامبراطور ( جودايجو ) من منفاه ، فزادت حركة المصيان حتى قامت حكومة ( شواجن أشيكاجا ) في كيوتو ، وهنا امتاز العصر بالتهذيب الفوق والرقى الفني ، وانتشرت حفلات الشاي والتثيل والرقص على نمط ( نو ) القديم ، ونشطت التجارة مع الصين ، وتزاور القسس ورجال الفن بين البلدين ، وفي سنة ١٥٤١ وصلت أول باخرة برتغالية وتبعها الاسبان ، ثم أسست أول بعثة للجزويت سنة ١٥٤٩ .

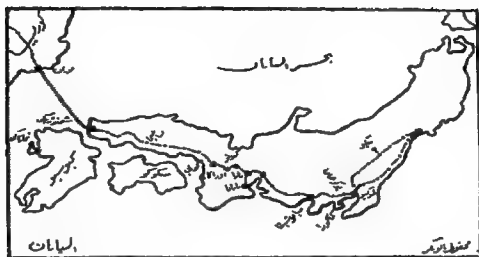
سادت القوضى البلاد مائة عام حتى جاء ( هيدوشي ) فهدأها وحاول فتح كوريا والصين سنة ١٥٩٢ ، لكن أهل كوريا بمعاونة الصين وقفوا في سبيله وتبع هذا نزاع داخلي أدى إلى انتصار ( أياسو ) من أسرة ( طوكوجاوا ) سنة ١٦١٥ وظلت حكومة شواجن تلك الأسرة ٢٥٠ سنة استتمت البلاد خلالها بالسلم والانتعاش ، خصوصاً وأنهم أباحوا حرية الاتجار والعقائد ، فشجر النزاع بين الهولنديين والبرتغال سنة ١٦٣٧ فتدخلت الحكومة اليابانية وقاومتهم بالشدة

وحرمت على الأجانب الدخول إلى بلادها ، حتى كانت سنة ١٨٥٣ حين أقبل الكومودور بيرى من أمريكا يطالب اليابان بفتح ثغورها للتجارة الأجنبية ، فأصرع الشواجن إلى الميكادو ، وكان قبل مهلا ، فطلبوا منه السماح بذلك ، فرفضت الحاشية وقرروا طرد الأجانب جميعاً بقوة الدايميو ، فرجع الأجانب يطالبون بالتعويض عما فقدوا من بواخر ورعايا ، ولما ظهر الشجون ( كايبكى ) إذ ذاك بالعجز عن معالجة الموقف تنازل عن حقوقه للميكادو الذى استعاد سلالته لأول مرة بعد أن سلبها ألف عام .

ومنذ ١٨٥٨ أمست البلاد عدة معاهدات مع الأجانب وبدأت تشعر بحاجتها للنهوض كي تتشى مع العالم المتمدنين ، وكان فى عجزها أمام الأجانب حين أرغموها على التعويض خير حافظ لها على بناء الجيوش والأساطيل التى زادت سمعتها فى انتصارها على الصين سنة ١٨٩٢ وعلى الروسيا سنة ١٩٠٤ حين بسطت نفوذها على كوريا وشبه جزيرة لياوتونج وسكة حديد منشوريا وجنوب سخالين وفى ١٩١٠ تم لها ضم كوريا نهائياً ، وتعاونت مع الحلفاء فى عصيان الملاكهن ( Boxer ) وفى الحرب الكبرى خطلت إلى الأمام خطوات الجبارة وأصبحت آية الدنيا جميعاً فى التقدم والنهوض .

## اليابان

أصبحنا والجزائر الصخرية تنتشر من ايماننا وشمائلنا فى غير حصر ، وشعر اليابانيون أنهم فى دارهم لما كان يبدو على وجوههم من بشر وكبرياء وتفاخر ، إذ كنا نرى البواخر اليابانية تتمخر عباب الماء بين الجزائر المترامية فى كثرة هائلة ، وكانت تبدو على ذرى تلك الجزائر الحصون العاتية وساريات البرق اللاسلكى ، وكلما أوغلنا فى تلك المياه اليابانية بدت منعة للكان ذاك الذى لن يدركه العدو كائنة ما كانت قوته ، ولا شك أن لموقع جزائر اليابان فضلاً كبيراً فى دفع غائلة



الأجنبي عنها ، ويحظر القوم إظهار آلة التصوير في تلك البحار ، وكنت أراهم طوال المدة يتطلعون بشيء من الإكبار لوطنهم والإخلاص له ذاك الإخلاص الذي أضحى مضرب الأمثال ، ولم كنت أعبطهم على موقفهم هذا وأتألم لنصيبنا من تلك العزة ، بدت إلى يميننا جزيرة كيوسيو (ومعناها أرض القارات التسع) ثم تبعتها جزيرة سيكوكو (أرض القارات الأربع) وكانت تبدو مداخن المصانع العديدة شاذخة في السماء ، ولبثنا النهار كله والجزائر تتراعى والبواخر اليابانية تمر تباعاً ، أما مشاهد الطبيعة هنا فساحرة ، جزائر تتراعى في أشكال هندسية متباينة تميزها المخاريط البركانية وتكسوها الخضرة للدرجة والسماء تفتثر بالسحب الخفيفة التي تنعكس عليها أضواء الغروب في بريق يستهوى القلوب ، ويسمون ذاك القسم البحر الداخلي وهو يمتد بين الجزيرتين السالقتين جنوباً وجزيرة هندو (القارة الرئيسية في لغتهم) شمالاً وامتداده ٢٧٠ ميلاً ويتسع ما بين ثلاثة أميال وثلاثين ومجموع جزائره تناهز ثلاثة آلاف ، ولعله أجمل بحار اليابان طراً .

أقبلنا على كوبى : أكبر ثغور اليابان التجارية ، وهى تقوم في حجر جبل مشرف تكسوه الغابات وتزين منحدراته مباني المدينة في رونق جذاب ، وما كدت أظأ أرضها حتى بدت الحياة اليابانية في مظهرها العجيب الجميل ، الناس يسرون في سيل دافق ، كل إلى عمله بفشاطه المشهور ، وأنت لن ترى



(شكل ٥٣) البحر الداخلي وحزائره الأنيقة المترامية

منهم عاطلاً أو خاملاً ، ولا تسمع لكثرتهم جلبة ولا ضوضاء ، اللهم إلا قفقة أحذيتهم الخشبية ( قباقيهم ) نساء ورجالا تلك التي تسترعى الأنظار ، وقد تشير السخرية يادى الأمر على أنها خير دافع عنهم أثر رطوبة جومهم إلى الاقتصاد فى أكلاتها ، والعجيب أنك تراهم يسرون بها فى سرعة عجيبة وإن اعوجت مشيتهم حتى لينخيل إليك أن فى أرجاهم غمراً ، والجيج يلبسون الأردية الفضفاضة التي يسمونها ( كيمونو ) وكأنها ( القفطان ) بأكامه الهادلة المتسعة وحزامه العريض والرداء يكاد يمس القدمين لطوله ويقاب أن يكون من قماش خشن بسيط اللون للرجال لأنهم يمتدحون الخشونة والتكشف ، أما النساء فى حرائر مهففة وألوان فنية ساحرة وتحاول كل سيدة ألا تلبس من لون سبقتها إليه غيرها ، لذلك اضطر النساجون أن يحيكوا هذه الأقمشة قطعاً مختلفة تكفى كل لرداء واحد ، ولعل أعجب ما فى السيدة حزامها وشعرها ، أما الحزام ( أوبى ) فبالغ الطول والعرض عرضه فوق ثلث المتر وطوله أربعة أمتار إلا قليلا ، يلف حول الجسم مرتين ، ثم يربط الباقي فوق الظهر فى شكل متنفخ كأنه الفراش بديع اللون ، خلته يادى الأمر وسادة تحملها السيدة كي تتكىء عليها إذا ما جلست ، وما كان أشد خجلى عند



(شكل ٥٤) حناء يابانية في كامل  
ردائها القوي

ما سألت أحداً: لماذا تحمل  
السيدات تلك الوسائد  
الثقيلة؟ فخبرني وهو يضحك  
أنه رباط الزينة والتجمل  
(فيونكا)، وقد علمت أن  
متوسط ثمنه لا يقل عن عشرة  
جنيهاً.

والنساء سافرات،  
ورؤوسهن عارية يكسوها تاج  
طبيعي من شعر أسود براق  
ثقيل، يعنون بتنسيق العناية  
كلها وهو الذي يعد مقياس  
الجاه والجمال، وتراه يكور  
ويطوى فوق شباك من

السلك في أشكال هندسية معجبة جذابة تختلف باختلاف الطبقات والأعمار،  
والأغنياء يستقلون الماشطات في كل أسبوع لتعده ولا يقل أجرهن عن جنيه،  
وتظل شباك الأسبوع كله أو تزيد.

أما الوجوه فصفرة اللون منحرفة العيون، ويقاب أن يستخدمن الأدھنة  
البياض لا الحمراء، وجمال الوجوه نادر وإن كانت الرشاقة والجاذبية بالغة حدّاً  
كبيراً يزيد بها حسنّاً ذلك المندام العجيب في ألوانه الرقطاء الزاهية، وتلك المشية  
التي تنجب بها السيدة وكأنها البجع الساحر.

فتنا بجولة في جهة ريفية تسمى: أراشياما في قاطرة كهربائية سلكت طرائق



متلوية تحوطها الغدران والتلال بجملها  
الغابات في مناظر ساحرة شأت سائر  
الريف هناك ، وأخيراً حللنا القرية التي  
تقوم على جدول ماء يتلوى ينة ويسرة  
وسط الربا الشاهقة تتخللها البيوت من  
خشب في شكل نظيف أنيق وبعض  
أجزائها تتخذ حوانيت ومه هي صغيرة ،  
وكنا نرى السلع تعرض وعليها أثمانها  
فيمر الواحد ويتناول ما يريد ويلقى  
بدرهماته في صندوق منلق في غير  
حاجة إلى رقيب ، فانظر مبلغ الأمانة

( شكل ٥٥ ) الشع آية النجل  
عند اليابانيات

والثقة المتبادلة بينهم ! أخذنا زورقا وذهبنا في الندير بعيداً وسط الخضرة  
الوفيرة والجنادل والنحدرات تحوطها الزهور ، وهكذا طبيعة اليابان في كل ناحية  
منها ، فليس بمجيب أن يقدرها أهلها ويشقوها بل ويعبدوها ، وهم ينقلون عنها  
أسماءهم إذ ترامح يحملون اسم جبل شامخ أو ذروة سامقة أو حقل ممتد أو مرج  
جذاب ، كذلك فهم يقدسون المكان الجميل ، فتقوم عند مدخله أقواس من  
خشب هي شعار التقديس ليسهم ، ولا يخلو مكان جميل من معبد لأنهم عبدوا  
طبيعة بلادهم الطاهرة ، ويخال بعضهم أن تقديسهم لوطنهم أثر من آثار جمال  
بلادهم التي استأثرتهم فعبدها وقدسوها ، إلى ذلك الزهور التي نبغوا في تميمها  
وترتيبها حتى الأطفال منهم فلم في تنسيقها نظم مختلف باختلاف البيئات وللناسبات  
فكل تصنيف منها يدل على معنى خاص يفهمونه لجرد النظر إلى باقة من الزهر ،  
وهي في مقدمة ما يتعلمه النشء في المدارس وبخاصة الفتيات ، ولا يكاد يمضى  
شهر لا بل أسبوع لا ترى به طائفة جديدة من زهور وهم لذلك يجذون الحساب



(شكل ٥٦) تربية الزهور يدرسها  
حتى الأطفال منذ نعائهم

بالتقويم الزهري قترام يؤرخون  
الخطاب مثلا بزهرة كذا يدل  
كتابة التاريخ لأن لكل أسبوع  
طائفة خاصة من زهور يعرفها  
الجميع .

آوينا بعد تلك الزهرة  
الساحرة إلى نزل ياباني وما  
كادت تقف بنا السيارة أمامه  
حتى أسرع أصحابه رجلا ونساء  
ملاكا وأتباعا يتقدمهم رئيسهم  
لاستقبالنا شأنهم مع كل ضيف  
وصاحوا جميعاً صيحة ترحيب

أعقبها سلسلة انحناءات عاجلة متكررة تكاد تلمس فيها جباههم الأرض احتراماً  
وتأدباً ، والعادة أن يرد الضيف التحية بأحسن منها وإلا عد ذلك من سوء  
الآداب فأخذنا ننحنى مرات كنت خلالها موضع سخرية أمام نفسي لأنني لم  
أكن أعرف كيف تكون وما حدودها . بعد ذلك تقدمنا نحو المدخل فراعنا  
صيف ( القباقيب ) والأحذية على جانبيه وكلها لنزلاء الدار إذ يجب خلع الأحذية  
جميعاً أمام السيوت والقنادق فخلعنا عنا أحذيتنا وناولتنا الفتاة ( خنا ) من الخوص  
وكلها صغيرة الحجم لأن أقدامهم أصغر بكثير من أقدامنا ، أخذنا نسير به في دهاليز  
الدار وكلها تقام من خشب يطلى بأدهنة براقّة غاية في النظافة ويهتز تحت أقدامنا  
وكان النزل من طبقتين ، ولما أن وصلنا غرفتنا خلعنا الخف أمامها ودخلنا غرفة  
صغيرة تفرش أرضها بقطع من الحصير السيك الطري يحوط كل واحدة افريز  
أسود ، ولا تكاد ترى داخلها من الأثاث إلا منضدة واطئة في الخراط الياباني

حولها الحشيات (الثلث) الوثيرة يجلس القوم عليها ركعاً طوال الوقت ، وخلف الضيف مقصورة هي ليسهن موضع التجلة والتقديس (توكونوما) بها (فاز) ثمين يملأ بالزهر المناسب للمقام ويقلب أن تطل الباقية نحو الضيف علامة الترحيب به وهم يقرأون في كل باقة معنى جديداً لمجرد النظر ، وعند المدخل حاجز (باراقان) قصير أنيق ، وتتدلى من الجدران ألواح مصورة (كا كيمونو) برسوم يابانية ثمينة ، أما النوافذ فمعدومة لأن جانب الحائط ينفتح كله بالانزلاق وراء الذى يليه بحيث يمكن أن تصبح الحجرة شرفة (بلكونة) أو تزال فواصل الحجرات كلها فتظهر اللوكائدة كلها بهوا واحدا ، كذلك الحالة في مساكنهم جميعاً في الريف والحضر .

أخذنا مجلسنا (الرفقاء) من المائدة فتقدمت منا فتاة بكو بين صغيرين من شراب أخضر يمتقدون أنه قاتل للعطش لم يرقنى طعمه وعلت أنه مسحوق الشاى ينلى في الماء ، ثم دنت منا فتاة ثانية ويدها سلة صغيرة من خيزران (بامبو) وبها قطيلة (فوطة) مباللة بماء مغلى يتصاعد منها البخار فتناولناها ومسحنا بها وجوهنا وأيدينا فشرعنا بانتعاش كبير في ذلك الجو الحار وتلك تقدم في كل مكان حتى في الحال التجارية ، وبعد هنيهة أقبلت فتاة أخرى تحمل الشاى اليابانى الخفيف الذى لم يكبد يصفر ماؤه والذى يتناوله الجميع بدون تحلية قط (بدون سكر) في قهَاب صغيرة مكورة من الخشب اليابانى الثمين (اللاكيه) وما كاد يستوى بنا المجلس حتى أقبلت الفتاة تهمس في أذنى فلم أفهم اليابانية فخرنى صاحبي أنها تريدنى أن أخلع حلتى لأرتدى (الكيمونو) فقممت وهى تلازمنى وتتقدم بنفسها لتخلع عنى ملابسى وترخى الكيمونو على جسدى وكان يملكنى الحياء لولا ما رأيته من جرأة صديقى الذى علمت منه ألا حرج في ذلك فتلك عادة القوم هناك ، ولما أن عدت إلى المائدة أقبلت فتاة الحمام تقول أنها أعدته لى فقلت لصاحبي لا حاجة لى به ، لكن علمت أن ذلك ينافى طباعهم إذ هم يرونه

فرضاً على الجميع أن يستحموا مرة أو اثنتين في اليوم ، قادتني هي وجمع من صويحباتها إلى الحمام وهناك دخلت غرفة صغيرة صفت بها الحشيات والتشكّات للاستراحة قليلا بعد الحمام ومن داخلها حوض الحمام من خشب نظيف يملؤه ماء ساخن جدا في درجة حرارة تتراوح بين ٤٠ و ٥٠ م وإلى جانبه مقاعد صغيرة من خشب وأكواز ومناطيل خشبية ، وقفت الفتاة وانتظرت في حيرة حتى تخرج لأوصد الباب فما كادت تجتاز الباب إلى الخارج حتى أسرع بقلقه لكنني لم أجد به ما يحبسني عن التفتح فخلعت ثيابي وإذا بالفتاة تدخل وتنظر إلى كأنها تريد أن تخدمني في شيء ، فجلست خجلا إلى جوار الحوض ، ولما أن أدركت ما كنت فيه من ربكة خرجت فأسرعت بدعك جسمي بالصابون ، وما كان أشد دهشتي حين دخلت مع زميلات لها وكأنها شكنتني إليهن ، فما كان مني إلا أن رميت بنفسي في الحوض رغم مائه المحرق ، هنا علت صيحة الضجر منهن وأسرعن إلى الخارج ، ولم أدر ما الخبر فعبجت بالغروج ، وإذا بالمهرج قد زاد وعلا وعلت بعد أننى ارتكبت خطأ فاحشا ، لأنه لا يجوز النزول في الحوض مخافة تدينه فكانت منى اعتذارات لا أعلن أنها كفرت لديهم عن سيئتي هذه لأنى حرمت الاستحمام كل نزلاء اللوكايدة سحابة اليوم حتى يطهر ويحدد ماؤه وعجبت لما علت بعد أن رؤية الأجساد عارية من الحسنين أمر طبعي لا غبار عليه عندهم ، فالفتيات يناولن الرجال ما يطلبون ، ويفسان لهم ظهورهم وهم عرايا وكثيراً ما يقتسل اليابانيون نساء ورجالا أمام بيوتهم في جانب من الطريق لا ينظر إليهم أحد خصوصاً بين الطبقات المقيمة ، وقد كانت الحمامات العمومية خليطاً من الحسنين معاً ، ولما أن كثر تعدد الأجانب لهم أمروا بوضع جبل يفصل بين ناحية النساء والرجال ، أمر نراه نحن شائناً وهم يرونه عادياً لا يقع بسببه فساد قط ! ولا يأمن الغريب وهو في الحمام أن يطل عليه الجميع من شقوق الدار الخشبية خصوصاً وأنهم يعجبون لأجسادنا الطويلة وسحننا القريبة عنهم !



( شكل ٥٧ ) جاب من بيوتهم الحشوية المنسقة

ويستنكر الأجانب رؤية أجساد اليابانيين أو اليابانيات عارية ، على أن اليابانيين يرون ذلك أمراً طبيعياً ، فهو مهدى للعيول الجنسية التي تبدو واضحة في غالب الأوروبيين . حدث مرة أن نادى أحد القناصل خادمه الياباني فجاء يرتدى قميصاً ونصف جسمه الأسفل عار ، وكان في مجلس القنصل بعض السيدات فتفر من هذا وطرده الخادم لوقته .

عدت إلى المائدة فأحاطت بنا الفتيات يحاولن مسامرتنا وتلك عاداتهم في كل مكان حتى في البيوت إذ يجلس حول الضيف فتيات الدار يسامرنه إمعاناً في التأدب والتظرف ، وفي صرفهن لا يجوز أن يترك الضيف وحده لحظة واحدة حتى يمين وقت النوم ، ولما كانت ساعة الطعام أقبل الفتيات يحملن القرامير ( الصواني ) الصغيرة من الخشب اللامع ، عليها الأواني المكورة الصغيرة من خشب براق ، وفي مقدمة الجميع ( برميل ) تنظيف من خشب يملؤه الأرز المسلوق .

ملأت الفتاة لى آنية الأرز وسلتنيها ، وفيها عصوان دقيقتان أتناول بهما الطعام وكان أول صنوف اللحم قطعاً من سمك نيء عليه قطع الثلج ، لك أن تغمس القطعة قبل تناولها في سائل أحمر قاني حريف كالخل ، وما كنت أخاله

نيماً فما كدت أعض على قطعة السمك حتى عاقها النفس ، وجزعت جزءاً شديداً وآثرت أن أزدريها صحيحة لأنجو من رائحتها وفساد طعمها ، ثم تبعها صنف من حساء السمك البارد ثم الساخن ثم شواؤه فنوع يحكى (الجنبرى) إلى جانب شىء كالبطاطا الحلوة وبعض الأعشاب ، أخصها أعشاب البحر التي يجبون رائحتها للنتنة والخضر (المخللة) ، كل هذا تتناوله في مجاورة الأرز الذى كله فرغ إناؤه عجبت الفتاة بملئه من جديد ، ولما انتهى اللحم قدم صنف من الفالوجج (مادته من الأرز) لا تكاد تحس حلاوته ثم أعقب ذلك بعض الفاكهة وكانت من خوخ ونوع آخر لم أره من قبل ، وكأنه قرون البازلاء البالغة ، وخلال كل ذلك كانت الفتاة تملأ لنا كأس النبيذ اليابانى (الساكى) الذى يتخذة القوم من الأرز في طعمه المنفر ، وتعيد الكرة مثنى وثلاث ورباع وبين آونة وأخرى يجب علينا بعد احتسائه أن نفسله بالماء ونملاؤه ثم تقدمه للفتاة قشربه ، ثم تعود فتفسله هى وتقدمه لنا ثانية ، وتلك من آداب المائدة لديهم لا يصح إغفالها ، وفى نهاية الطعام نبقى فى آية الأرز قليلا ونصب عليه الشاى وترشفه بصوت مرتفع منفر علامة على ختام الطعام ، قترفع (الصوانى) ويقدم الشاى المر نشرب منه ما نشاء ، موقف ساحر حقاً لولا ما كان يحوطنى من ارتباك شديد فى أداء التحيات المتكررة على الوجه الأكمل ، وفى استخدام العصى بدل الملاعق والشوك فهى تتطلب مراعاة طويلاً .

وكان فى الفرقة المجانية لنا قوم لعب (الساكى) بمقولم — واليابانى سريع التأثير بالخطر على خفته — فأخذوا يصيحون ويغنون وهم جلوس وأمامهم (الصوانى) الصغيرة والفتيات يعزفن على الآلات الموسيقية اليابانية (الشامسين) شبيه (الطنبور) الكبير برقبته الطويلة و (قصعته) المربعة وله ثلاثة أوتار منفردة رنينها يحكى رنين المزهر (العود) القوى ، والعزف يكون بقطعة من خشب كالمروحة ، وهذه لا يكاد يخلو منها بيت أو منزل ، والقطعة الثانية تحكى (القانون) من ثلاثة عشر



( شكل ٥٨ ) أحب الآلات الموسيقية ليهم الثامسين  
إلى اليمين والكوتو إلى اليسار

وتراً منفرداً ويسمى ( كوتو ) والأنغام متشابهة بسيطة في غير تعقيد على أنها تعوزها الجاذبية ، أما أغانيهم فنغرة للغاية حتى الفتيات اللاتي يهزرن في أصواتهن بتقطيع منكر وكأنها أصوات ( الماعز ) ، اعتزمت الارتحال فودعنا الجميع بأدبهم الجم ، ثم قدم لنا رب النزل هدية صغيرة منديلا منقوشاً يلف في غطاء من ورق أبيض ثقيل يربط بشريط نصفه أبيض والنصف أحمر ، وفي عقدته قطعة من سمك مجفف تيمناً ، ومثل تلك الهدايا يتبادلها الجميع كلما تزاوروا في مناسبات كثيرة ويفالئ بعضهم حتى يبيع الاستدانة كي يؤدي هذا المظهر من الكرم ، ولذلك كثرت المحال التجارية الخاصة ببيع تلك الهدايا .

عدنا إلى كوبي وتفقنا بعض معابدها وجلها متشابهة تعوزها الفخامة ، ومن أجلها مسجد القمر في قمة ماياسان (ومعناه الجبل المحترم) ، ويتوجون بتلك الكلمة (سان) كل الجهات الطبيعية الجميلة ، وهذا المبد في ذروة الجبل المشرف على المدينة تسلقناه بترام هواثي كان يديره سويسريون إلى أمد قريب واليوم يديره اليابانيون بعد أن استغنوا عن معونة الأجانب شأنهم في جميع المنشآت الكبيرة

الأخرى ، لذلك ترى الأجانب حاققين عليهم . من هذا الطو الشاهق بدت المدينة ممدودة على شاطئ البحر في رواء بالغ ، وكنا نرى مبانيها على بعد تتصل بضواحي أوزاكا أكبر البلاد الصناعية ، وفي نهاية الترام كثير من المقاهي والمطاعم زهيدة الأسعار ، رغم نظافتها التامة ونفامتها الرائعة ، حتى أنى تساءلت عن سبب ذلك فعلت أن الجبهة يعدها الجميع متنزهاً شعبياً يشجع الفقراء على حب الرياضة والاستمتاع بالطبيعة ، وللناس أن يستأجروا خياماً زهيدة الأجر للمبيت فوق منحدرات الجبال حيثما شاءوا ، من هنا بدأنا بصعود البرج الموصلة للمسجد وعددها ثلاثمائة وسط الأدغال والنبت الوفير ، كابدنا كبير المشقة في ارتقاها فكان لنا في سحر المناظر هنالك خير عوض عما صرفناه من عناء وجهد ، ويحج إلى هذا المسجد نحو ثلث مليون في السنة إجلالا لتمثال صغير لأم بودا ، وعند ما أعظم الجو بدت المدينة من دوننا تحكي بسيطاً من الجمر المتلألئ ، أوقية السماء وقد انقلبت بنجومها ، فبدت من تحتنا وكانت ثريات الخط الكهربائي تبدو كالقمد الرائع البديع .

وفي المساء زرت بعض دور الملاهي ، ولعل أحبها لديهم الخيالة (السينما) التي لا يكاد يخلو منها شارع ، وللقوم بها ولع شديد ، وأعجب ما يسترعى النظر بها رجل يقف بجانب اللوحة ويشرح باليابانية في صوته المنفر كل ما يعرض من المناظر ، وكان سبب ذلك عرض أفلام أجنبية ، لكنهم يتبعون نفس الطريقة رغم أن غالب الأفلام اليوم تصنع في اليابان وتكتب إيضاحاتها باليابانية ، وقد يرفع الستار عن مسرح يظهر فيه فتياتهم وهن يرقصن ويفتنين ، وقد يمثان روايات باباكة لا تنقص عن الأوروبيات ، رغم أنه لم يسمح للنساء باحتلاء المسارح هناك إلا قريباً .

ومن أكبر دور الملاهي التي زرتها ملهى (تكاراسوكا) في قرية بين كوبى واوزاكا يتسع لألف وخمسمائة ، وهو فاخر إلى حد كبير ، على أن أجوره زهيدة





( شكل ٥٩ ) طريقة اليابانيات في حمل الأطفال وراء ظهورهن

للغاية ، رغبة منهم في الترويح عن عناء الفقراء . وكأنه مدينة صغيرة تمون أهلها بكل شيء من مطاعم وملاعب وحدائق وحمامات وما إليها ، والتمثيل فيه على النظام الحديث في الغالب ، والممثلات كلهن فتيات وقد يلبسن أثواب الرجال وقد يمثلن على أنغام الموسيقى ، وأجل ما هناك الأزياء الخلابية وسرعة تغييرها رغم الكثيرة الهائلة في عدد الممثلات ، كما أن مشاهد المسرح رائعة وأضواء خاطفة مما يشهد لهم بالتقدم المعجيب .

ومما أدهشني في هذا المجتمع المائل ميل الناس إلى الهدوء وبخاصة الأطفال فقد كنت أرى السيدات يحملن أطفالهن وقد ربطوا إلى ظهورهن ، فلا يكاد يرى منهم سوى رأس نائٍ — وتلك عادتهم في حمل الأطفال — ولم أكد أسمع همساً طوال الوقت ، والمعروف عن الياباني أنه هادئ الأعصاب بارد الطبع ، ويظهر أن تلك فطرته منذ طفولته ، لذلك لا تكاد تسمع لسيل الناس الدافق



(شكل ٦٠) سوق موتوماتشي الزاخر ليلًا  
ومصايحه تحكي البوائك شأن أسواق اليابان طرا

في الطرق من جلبه اللهم إلا  
قمقمة (القباقيب) هذا إلى  
صغير السيارات ودوى  
الراديو المنبعث من غالب  
الحال التجارية .

أذكر أنني تركت آلة  
التصوير هنا بين فصول  
الرواية ولما عدت لم أجدها  
فأبلغت الأمر لرجل البوليس  
وهنا رأيت عجباً إذ عرت  
الرجل هزة قومية وساده  
هو وإخوانه اضطراب وخجل  
وأخذ يدافع عن اليابان  
ويعتذر للحادث بأن عامة

الناس هناك من طبقة العمال فقد يسف بعضهم إلى حد السرقة على أنه أكد لي  
أنه لا يمكن أن يضع شيئاً في بلاد اليابان ، وأنه سيرسل إلى الفتوغرافية قريباً  
أينما كنت بعد أن أخذ عنواني وهو مضطرب متألماً لأن في ذلك جرحاً للعزة  
اليابانية التي يقدسها الجميع .

عدنا إلى كوبي وتجهلنا في إحدى أسواقها (موتوماتشي) الذي لا يكاد  
المرء يشق طريقه وسط جماهير الغادين فيه والرائحين ، وأجمل ما يرى في المساء  
حين تضاء مصابيح الأسواق في بوابات من حديد ترص عليها الثريات الكبيرة  
في تلالؤ شديد إلى ذلك أضواء المحال التجارية بمفروشاتها اليابانية الجلذابة وهذه



( شكل ٦١ ) نهر يوكوهاما وترى طريقتهم في الترحيب والاستقبال

تظل إلى ساعة متأخرة من الليل ، وفي فروعه أزقة تحكى خان الخليلي عندنا يلد للمرء التجول فيها طويلا لغرابة المناظر وجمال الألوان وشدة بريق المكان ونظافته ، وهنالك دار وطنية للسينما يجلس المتفرجون فيها على الحشيات (والثلت ) على نظام البيوت اليابانية .

الى يوكوهاما : قمت بالباخرة ظهراً صوب يوكوها التي وصلتها الساعة الثانية بعد ظهر اليوم التالى ، أما البحر فقيليل الجزائر ، موحد المناظر ، ممل ليس فيه شيء من جمال البحر الداخلى سالف الذكر ، حلت المدينة فبدت ثغراً عظيم الحركة نظيف الطرق فسيحها ، وهى مدينة تحكى فى كثير من الوجوه المدن الأوربية ، لولا هندام الناس وسخنهم لذلك لم ترقنى كثيراً ، ولقد أنشئت منذ ١٩٢٣ حين دكها الزلزال عن آخرها ، وفى ثلاث سنين أعيد بناؤها على ( ٧ - آسيا )

أساسها الجديد ، وبلغت أكلافها عشرين مليون جنيه .

أما طوكيو العاصمة فقد دمر الزلزال نصفها وأهلك من أهلها ٥٨ ألفاً ، وكبدت خسائر بنحو خمسمائة مليون جنيه ، وقد أنقذت الحكومة على تعديرها وإنشائها من جديد فوق السبعين مليوناً .

**كاماكورا** : ضاحية تبعد عن يوكوهاما بنحو ساعة بالسيارة التي مرت

بنا في طرق متلوية تعلو وتهبط ، ومن حولها الرابي ذات المناظر الساحرة ، تجلها الغابات ، وتكسو مدرجاتها منابت الأرز ، ولقد اتخذ المدينة ( شوجون مينا موتو ) عاصمة اليابان في القرن الثاني عشر ، وظلت كذلك مائتي عام ، وكان سكانها يناهزون نحو ثمانمائة ألف ، لكنها انضمرت اليوم وأصبحت مزاراً صيفياً ، ولا يزال بها بعض العابد الهامة ، ولعل أجملها



( شكل ٦٢ )

معبد بودا الذي يقوم فيه تمثال هائل لبودا بعد أجل تماثيل بودا في نظرائه الودية اليابان طراً ، علوه خمسون قدماً أقيم سنة ١٢٥٢ وسط معبد دمرته عاصفة سنة ١٣٦٩ ، واكتسحه المد سنة ١٤٩٤ — واليابان تعرف بقسوة عواصفها المساة بالثيفون وبعثو مدحا — وكانت عيون التمثال من ذهب ، ونطاق جبهته من فضة زتها ثلاثون رطلا ، وهو يمثل ( Amida ) أحب معبودات اليابان ، وتعجبك نظراته الهادئة ، ويدها اللبسوطان على حجره ، والأبهامان يتلامسان علامة الأيمان الراسخ — وفي بعض التماثيل ترى اليد اليسرى مبسطة على حجره واليمنى مرفوعة وهذا دليل التبشير ، وفي غيرها تضم اليدان إلى الصدر دليل الجمع بين الحياة الروحية والمادية . وثم معابد كثيرة فآخرة تزينا تماثيل بودا وحفظته في أشكالها المنفرة المروعة ويحفظ في بعضها شيء من مخلفات عصر كاماكورا من أناث وأردية . أساحة وما إليها .



عدت إلى يوكوهاما ،  
ومنها إلى طوكيو حاضرة البلاد  
فوصلنا في ثلثي ساعة ووسائل  
النقل إليها متعددة ، وفي  
اتقان ودقة ونظافة ترى المقاعد  
وقد أعدت بالفرش الوثيرة  
بعضها يسير بالبخار والبعض  
بالكهرباء وهذه تكاد تم  
البلاد كلها في كثرة هائلة  
وأجور زهيدة جداً هذا إلى  
الترام والأتوبيس والسيارات .  
والحق أن وسائل النقل في

اليابان كلها مما يدعو للاعجاب ( شكل ٦٣ ) أمام نصب بودا الرائع في كاماكورا  
والأكبار ، فهي ترعى صواحـل الجمهور وتوفر له الراحة التامة والأمن المكفول فتري  
في الحاط كافة وسائل الارشاد والمـدى من خرائط وهـايـيـح إلى ذلك عناية حارس  
القطار وأدبه الجم ، فعند ما تقارب كل محطة يستأذن ويدخل العربـة ، ثم ينحني  
ويرفع قبـعته احتراماً ويخاطبنا في بشاشة فائلاً : سادتي نحن مقبلون على مكان  
كذا وقبل مبارحتـه العربـة يدير لنا وجهه وينحني ثانية ثم يخرج ، إلى ذلك  
كنت ألاحظ أدب سائقي السيارات فلا يمر أحدم على زميله دون أن يحييه  
بانحناءاته الودية ، وهو يتقبل منك ما تعطيه أجراً مهما قل ولا يناقشك قط بل  
يصيح فائلاً ( آريجاتوسان ) أعني شكراً سيدي المحترم ويشيعك بانحناء وابتسام ،  
وإن سألت أحد المارة شيئاً بالغ في خدمتك وإكرامك فإن لم يفهمك استرشد  
بغيره في الحال . أدب جم وتسامح جميل امتازت به اليابان على سائر الشعوب .

**طوكيو :** (ومعناها العاصمة الشرقية ، سكانها ٣½ مليوناً ) بأى لسان

أستطيع أن أقص ما أرى من عظمة ودقة ، تميّز حسن وذوق سليم ، مدينة تتجلى في كل مناحيها أبهة الملك وعزة السلطان ، هي تتوق في نظري كثيراً من عواصم أوروبا بقصورها الشاحخة وطرقها الممدودة ، وحدائقها الورافة ، تكاد تمتد كل طرقها الرئيسية على نمط واحد واتساع رحب يتوسطها ممر الترام والعجلات الكبيرة . ثم أفريز من خضرة ثم ممر العجلات الصغيرة فأطار للمارة ، والمصاييح تعلو في عناقيد إلى مد البصر ، ورجل البوليس يتوسط مفارق الطرق ، ويسير الحركة بالمصاييح الملونة والصفاير واليدين في دقة عجيبية ومهابة يقدرها الجميع . وتوزع مخافر البوليس في بلاد اليابان ، يغيره في البلدان الأخرى إذ ترى جوسقاً صغيراً به ضابط البوليس ومعاونه ، وحوّلها التليفون والسجلات والخرائط ، وتوزع تلك الجواسق في مسافات متقاربة ، وحتى داخل الأزقة لتكفل الأمن من جهة ولنهدي المارة لما يطلبون . أما نظام البوليس المركز في أقسام كبيرة نائية عن بعضها كما نراه عندنا فليس له وجود ، لذلك فإنك ترى البوليس ملماً هناك بكل شيء ، علماً بدقائق منطقته الصغيرة وسكانها . حدث مرة أن أحد الزلاء من الطليان انتقل إلى دار جديدة ، فلما كان المساء عاد الرجل فاشتبه عليه الأمر وضل طريقه إلى داره الجديدة ، فباغته رجل البوليس وهو حائر فائلاً : أنت فلان ؟ ماذا تريد ؟ تخبره أنه ضل طريقه ، فقادته رجل البوليس إلى بيته الجديد ! لذلك قلما تغلت البوليس هناك جريمة لا يهتدى إليها عاجلاً .

حلت نزل (Chuo) الفاخر ، وهو على النمط الأفريقي يديره اليابانيون رجالاً ونساء ، قهوبات بالانحناءات والابتسامات وما أن حلت غرفتي حتى أقبلت الفتاة تقدم شاي التحية — وهذا يكرر كلما عدت إلى النزل وفي أية ساعة — ثم عقبته بأخباري أن قد أعد الحمام ، وحتى في غرفة الطعام الأفريقية تراهن وقوفاً زراعات يحاولون تسليتك ولو لم يعرفن لنتك ، حدث أن مر فتانان



( شكل ٦٤ ) المدخل اريثيى لطوكيز فى وىح المصابيح الوضاء للا

بياب النزل ، وأنا فى عرفة الطعام يعزفن على الشامسين ويرقصن ويفغنين ، فأسرعت إليهن ومعى صاحب الفندق وفتيانه ، وقالوا إن تلك هى الوسيلة الوحيدة التى يباح فيها الاستجداء ، يؤيد ذلك أنى لم أر متسولاً واحداً فى جميع البلاد التى جبتها هناك ، وماكدت أبرز آلة التصوير لآخذ صورتهن حتى غضب الجميع ومنعوني دفاعاً عن عزتهن القومية ، فاعتذرت لهم رغم أن الفتيات كن فى هندام نظيف جذاب .

هدانى تجوالى فى المساء إلى شارع (جنزا) بأضوائه الخاطفة وتنسيقه اليابانى الخلاب هو متنزّه الشباب ، ومحط سروره حوى ٣٤٨ من الأتزال والملاهى ومشارب الشاي وما إليها ، إلى ذلك بعض المحال التجارية تعرض بها المستحدثات التى تروق الشباب ، ولن أنسى قفعة (القباقيب) ولا سحابات الفراش الآدمى فى ألوانه الجميلة ، ومن المقاهى ما هو يابانى ترى الأحذية والقباقيب ، وقد صفت أمام الباب إذ يجب خلعها قبل الدخول ، ولعل أكبر مميزات هذا الشارع الباعة الرحل الذين يقرشون الاطارين بسامهم طوال الطريق ، وهى نفائس الصناعات اليابانية الصغيرة التى تدل على مهارتهم الكاملة خصوصاً إذا علمت أن غالبيتها

يصنع في البيوت ( كلب الأطفال وأشغال الورق والغاب وما إليها ) ، وإذا ما انتصف الليل عكف كل يطوى معروضاته قطعة قطعة بثبات وصبر غريب ، ثم يحملها إلى بيته ليعيد الكرة في القد . نشاط وصبر إلى نظافة وتكشف امتاز بها الياباني فكان مزاحماً قوياً لزميله الأمريكي والأوروبي .

قصبت قصر الامبراطور ، وهنا تجلت العظمة بأجلى معانيها ، هو شبه قلعة مشرفة كأنها الجبل يحوطها خندق تعبره القناطر تؤدي إلى القصر ، وهندسته مزيج من اليابانية والصينية في طابق واحد ، وسقوف منحدره خشبية تنقوس أركانها إلى السماء ، ولا يباح لأحد دخول القصر ولا تصويره تقديساً له وللإمبراطور ابن السماء ، حدث أنى كنت أحاول أخذ صورة فلم أشعر إلا وفارس قد أقبل مسرعاً وأخذ الفتوغرافية وأفسد الفلم بيده وهو يعتذر بأن ذلك غير مباح وتركنى بعد أن بش في وجهى وانحنى تأدباً ، أما الميدان الذى يتقدم القصر فعظيم لا يعرف مداه ، وتقوم عليه حول القصر كثير من دور الحكومة في قصور سامقة أخصها دار البرلمان في هندستها الفريدة ووزارة الحربية والبحرية بأعمدة اللاسلكى تسامت السماء وتهول الناظر بضخامتها وتتناثر هنا وهناك تماثيل عليتهم ممن أبلوا للوطن البلاء الحسن .

وتقديس القوم للإمبراطور يثير الدهشة فكل شئ هناك يتلاشى إلى جانبه فهو مطلق التصرف في البلاد وسلطة البرلمان ضئيلة أمامه خصوصاً فيما يختص بالمالية والشئون الحربية ، ومجلس الوزراء مسئول أمامه فقط وهو الذى يعين رئيسه ولا يشترط اختيار الوزراء من رجال الحزب السائد فى البرلمان ، ووزير الحربية والبحرية يقابلان الإمبراطور رأساً ولا يسقطان بسقوط الوزارة .

ويتساءل المرء كيف يقبل القوم هذا الخضوع والولاء الشديد لهذا النوع من الحكم المطلق ، على أن نظام اليابان الاجتماعى والدينى يساعد على ذلك حتى الهيئات التجارية والصناعية ، فهي تقوم على صوالح الأسرة والقرية والدولة ،





وتلقين النشء الإخلاص  
للوطن فرض على الجميع  
خصوصاً منذ عهد الامبراطور  
ميجي (١٨٦٨ — ١٩١٢)  
جد الامبراطور الحالي وخالق  
النهضة اليابانية ، ذاك الذي  
حول مبادئ الديانة السائدة  
في اليابان ، وهي الشنتوية  
— التي تعبد الأجداد —

إلى عبادة الوطن ، فكل

(شكل ٦٥) اللوسيقيات التجولات في طوكيو ، وتلك  
هي الطريقة الوحيدة التي يباح فيها الاستجداء  
الشمس ، وهي جدة الأسرة الحاكمة ، فالامبراطور أذن هو يمثل الآلهة في الأرض  
لا يعصى له أمر ، وساعدهم على ذلك حماسه النادرة في النهوض ببلاده ، لذلك  
عد البيت الامبراطوري مقدساً ، حتى أن القوم لا يصح لهم ذكر اسم الامبراطور  
بل يسمونه ( Tenno Heika ) أي ابن السماء ، حدث مرة أن سمى ريفي ابنه  
باسم الامبراطور على غير علم منه ، فلما عرف أن هذا هو اسم الامبراطور انتحر  
خجلاً وخزيًا ، وحدث آخر أن أحد أكابر الموظفين تعرض في محاضرته لمستقبل  
اليابان ، وأشار إلى النزعة الديمقراطية التي تتزايد ، وتأملاً لما عساه أن يحمل باليابان  
من الويلات إذا حدث لا قدر الله وزال حكم الأسرة المالكة ، فكان هذا مبرراً  
لفصله على الفور . ويحمل الجميع صور الامبراطور ويحتفونها في صدورهم إلى يوم  
عيد الميلاد حين تعرض في حفل كبير يقام في المدارس وغيرها ، وعند كشفها  
ينخر الجميع ركعاً ، ويخالون أن روح الامبراطور تحل بعض للعباد أحياناً ، لذلك

علمت أن فاضى القضاة الذى كلف الحكم فى قضية خطيرة تمس الاشتراكية كان يذهب إلى معبد طوكيو كل صباح ليستمد الإلهام الصادر من روح الامبراطور ميجى لى يوقه فى الحكم .

وقلما يخرج الامبراطور ليراء الناس ، وإن حصل ذلك أغلقت جميع النوافذ على جانبي الطريق حتى لا ينظر إليه أحد من عل ، ويصطف الناس وعيونهم إلى الأرض ، ولا يجروا أحدهم النظر إليه هما علت مرتبته ، ويقف البوليس وظهوره إلى الامبراطور ، ويجب على مصلحة الصحة أن تطهر الطريق كلها قبل مروره ، وقلما يحضر الامبراطور بنفسه الولائم والحفلات الرسمية التى تقام فى القصر ، ويحضرها كبار الأجانب وسفراؤهم ، ويقلب أن ينبس عنه أحد الأمراء ، وقد يطلع عليهم وهم وقوف فى صف ويرفع لهم يده ، حتى قيل أن غالب السفراء لا يطبقون ذلك رغم أنها من تقاليد البلاد .

فليس بمعجيب إذن أن يخلق هذا حكومة مركزية مدعومة الأركان فى أمد وجيز ، فالى سنة ١٨٦٨ كانت اليابان مقسمة إلى اقطاعات تحت أمرة (الدايميو) الذين كان يرأسهم (الشواجن) ، أى الحكام العسكريون ، وهم حكام اليابان الحقيقيون ، وكانت أسرة (توكوجاوا) هى السائدة خلال ٢٥٠ سنة ، وكانت من قبل من أسرات (الدايميو) ، أما الامبراطور فكان فى كيو توكا أنه سجين لادخل له بالسياسة ، وفى منتصف القرن التاسع عشر بدأت حكومة الشواجن تضغط بسبب سوء الحكم وبده تدخل الأجانب الذين هددوا استقلال البلاد إذ أرغموهم على فتح ثغورهم للأجانب سنة ١٨٥٤ فبدأ جلياً (للساموراي) مديرى المقاطعات من قبل زعماء الأقطاع أن تغيير الحكومة واجب إذا أرادوا المحافظة على استقلال اليابان ، فأغروا الزعماء من الدايميو الذين كانوا حاققين على (الشواجن) ، فثاروا جميعاً بزعامة أسرى (تشوشو ، ساتسوما) الذين ناشدوا رجال الحرب أن يخلصوا غير الشواجن ويعيدوا للإمبراطور سلطته ، فنجحوا وبدأ العصر الجديد سنة ١٨٦٨



( شكل ٦٦ شارع جنـزا مسترام الشاب في طوكيو

حين تسلـم الامـراطـور ( ميـجي ) الأـمر بـعد ما حـرمـته الأـسـرة تسـعـانة سـنة ، وفـي ١٨٧١ زـال حـكم الأـقـطـاع تـامـاً وسـلم الـدايـميـو بـلادـهم ثم تـنازـلـوا عـن سـمـيـع امتـبـازاتـهم المـالـيـة المـوروثـة بـمـحض اخـتـيارهم رـغم عـدم وـجـود وـارد أـخـرى لـهم ، وهـنا تـبدـو مـتـانة الخـلق الـيابـانـي فـي التـضـحـيـة والـاخـلاص ، إذ تـركـوا صـوالـجـهم الذـابـة وتـعاوـنـوا عـلى مـعاوـذـة النـظـم الجـديـدة لـصـالح الـيابـان ، أـما الشـعب فـلم يـقـم بـشـئ إـيـجـابـي قـط .

ولـكـي تـتمـشـي البـلاد مـع الدـول العـظـمـى تـسـعـروا بـالحـاجة لـالجـيـوش والأـسـاطـيل الحـديـثـة والنـهـوض بـالصـنـاعـة ، ووسـائـل النـقل والتـعـلـيـم ، وقـد وقـع جـل هـذه الأـعـمال عـلى عـاتـق أسـرتـى ( تشـوشـو ، سـاتـسـوما ) الذـيـن أتـوا بـالمـعـجـزات لـإقـتـاذ السـلاد مـن الخـاطـر الـتى كـادت تـحـيـق بـها ، ولم يـروا لـازـماً أن يـقـلـدوا أـورـوبا فـي كـل شـئ ، بل فـي تـنـظـيـم الحـكـومـة ووسـائـل الإـتـاج ، وقـد نـفـح الأـمـير ( أيتـوا ) الـدـمـتـور سـنة ١٨٨٩ عـلى أـسـاس دسـتـور أـلمـانيا ، وعـيـن عـالـب زـعـماء الأـقـطـاع ( الـدايـميـو ) أـعـضـاء فـي المـجلس الأـعـلى ( والسـامـوراى ) فـي المـجلس الأـدنى ؛ وخصـت أسـرتـا ( تشـوشـو ، سـاتـسـوما ) بـالحـريـة والبـحـريـة ، وـكان لـهم الرأى الأـعـلى حـتى بـدأ يـناوـسـهم بـعض المـهـيـثات الأـخـرى . فـلـجـأوا إلـى تـشـكـيـل هـيـأة أسـمـوها ( Genro ) ، أى جـمـاعـة السـياسـيـين المـخـشـكين لـتـقـوم

موظيفة المستشار الإمبراطورى ، وهم الذين يقترحون تعيين رئيس الوزراء ، وينصحون للإمبراطور بكل التصرفات ووزيرا الحرية والبحرية يختاران من بين رجالها ، فالحكومة اليابانية نوع من الأجلاركية ، لكنها مصلحة تعمل للرأى العام حساباً ، والرأى العام فى اليابان قوى جداً ، فلمجرد احتجاجه على تصرفات الوزارة سنة ١٩١٤ استقالت هى ، وكذلك التى تبعها سنة ١٩١٨ حين احتجوا على وزارة ( تيروشى ) الذى كان ينتمى إلى ( الجنزو ) ويومئذ قام الناس باعتصاب الأرز الذى أسقط الوزارة لوقتها ، وفى سنة ١٩٢٣ استقالت وزارة ( ياماموتو ) على أثر اغتيال حياة الأمير نائب الملك ، الأمر الذى عده الشعب دليلاً على عجز الوزارة أن توطد الأمن فى البلاد ، وكما حدث اعتداء من هذا القبيل أسرع الوزارة أو رؤساء الشرطة بتقديم الاستقالة كما حصل فى يناير الماضى حين حاول شاب ثورى من كوريا أن يقتال الإمبراطور بقبلة انفجرت فأصاب أحد خيل المركبة فاستقال مدير الشرطة وكبار البوليس اعتقاداً منهم أنهم المسؤولون عن ذلك ، وكذلك انتحار الأميرال شنوازادى قائد أسطول اليابان فى مياه شنتهاى ، لما أن عزل بسبب سوء تصرفه هناك فى الحرب الحالية بينها وبين الصين .

على أن جماعة الجنرو ممثلى عهد الأقطاع اليوم بدأوا يشعرون بتناوى قوى اليوم هو نفوذ رجال الأعمال التجارية والمالية والصناعية خصوصاً فى طوكيو للركز المالى ، وفى أوزاكا المركز الصناعى ، وكثير من أولئك من سلائل الساموراي وأسرة ( متسوى ) أغنى الجميع وهى تشتغل تحت إرشاد الحكومة ، وقد بدأ نفوذها يؤثر فى الحكومة ويسود رجال الحياة العسكرية ، لذلك بدأت تنتعش سلطة المجلس الأدنى الذى يستمد المال من تلك الهيئات الصناعية لمناهضة رجال الحرب ، وقد نجحوا فى إسناد الوزارة إلى ( كاتو ) من نصرائهم سنة ١٩٢٤ لذلك كان يطلق عليها ( حكومة متسويشى ) هذا وقد أدى نمو الصناعة إلى العناية الاشتراكية لصالح العمال ، وبدأ يظهر أثر هذا فى التحفز للاضراب ،



( شكل ٦٧ ) مدخل النصر الامبراطورى ، وفي أعلاه صورة  
الامبراطور والامبراطورة

وفي النزاع الذى بدأ بين المزارعين والملاك على أن الحكومة تقاوم كل ذلك مقاومة فعالة خصوصاً ، وأن غالب الصناعة ووسائل النقل تحت إشرافها المباشر .

وتتماز طوكيو بمتنزهاتها الكثيرة زرت فيها متنزه ( هيبيا ) عظيم الاتساع وغير الزهور وبخاصة ( الأزاليا ) ويحبد القوم فيه مكاناً صالحاً للنزهة واللعب ، ولذلك ترى أدوات اللعب كالصوامج والأراجيح وما إليها منتشرة في أرجائه القسيحة كذلك متنزه ( شيبا ) ويشتهر بمدافن أسرة طوكوجاوا من الشواجين ، وبعضها فاخر النقش في الخروط اليابانى الغريب ، وأغشية الذهب والفضة في إشراف لا يفوقه سوى مدافن فكو .

ولعل أكبر المتنزهات وأجملها ( وينو ) تزينه أشجار الكريز بزهرها الجميل ، وفي داخله كثير من الملاعب إلى ذلك حديقة الحيوان للتواضعة ، ودار السكتب ، والمتحف الفنى ، والمتحف الامبراطورى ، وهذا أهمها وإن بدا صغيراً قليل المروضات بالنسبة لمتاحف أوروبا ، ومجاميعه في الطابق الأعلى رسوم خيالية

مطرزة على ستائر ثقيلة . ثم منتجات اللاكيه المرصع بالصدف وجدائل الذهب في إتيان كبير ، وفي الدور الأسفل تعرض الأدوات النحاسية والخشبية . ثم الزجاج والخزف والأحجار الملونة . ثم تماثيل كبيرة لبودا وحراسه وغفاريته بعضها من ذهب وفضة ، والبعض من خشب إلى ذلك بعض الأسلحة القديمة والنقود ، على أن الفن يعوز غالبها وقرر المعروضات لا يكشف للقوم عن ماض مجيد قط ، فهم لم يرثوا عن آباؤهم من عظمتهم الحالية مما يزيدهم إكباراً وغرراً .

قصدت إلى متنزه (اساكوسا) ، وفي مدخله معبد شعبي لآلهة الرحمة نصل إليه وسط طريق صفت على جانبه الحوانيت بمعرضاتها اليابانية الجذابة ، ومصاييحها الورقية الملونة وشرفاتها الخشبية وأنت تذهل هناك لسيل الناس الجارف صباحاً ومساءً وكلهم في أرديتهم القومية الجذابة ، والمعبد فاخر وأعجب ما رأيته هنالك لفائف ضخمة من شعر آدمى جدل في جبال بالغة الطول والسلك تبرع به فتيات ذاك العصر كي يعاونوا على سرعة إقامة للمعبد بعمده الضخمة التي لم تقو الجبال العادية على رفعها ، وفي ذلك مثل لميلهم الشديد للتضحية خصوصاً وأن الشعراً أكبر ما تعز به الفتاة اليابانية وتتجمل بمرآه ، وهذا المعبد هو المكان الوحيد من ذاك الحى من طوكيو الذى لم يحترق على أثر نكبة الزلزال الكبرى سنة ١٩٢٣ فزأ القوم ذلك إلى قدسيته ، وعجيب أن ترى خلف المعبد مباشرة أكبر مناطق طوكيو للمجون والملاهى الشعبية تلك التي يعدها الجميع خير مكان للتسلية ، لذلك لا تهدأ حركة المتنزه ولا تحبوا أضواؤه الخاطفة طوال الليل .

في المساء طلبت إلى صاحب النزل أن يدلنى على دار للتمثيل اليابانى القديم وهو أحب أنواع التمثيل ليسهم فأرشدنى إلى (تياترو شيباشى) من أغم دور التمثيل في طوكيو وما أن وصلت الباب وهمت بشراء التذكرة حتى تقدمت إلى فتاة تمجيد الإنجليزية تقول : أأنت ياسيدى المسترثابت النازل في لوكاندة شوو؟ فدهشت وقلت نم . فقادتنى إلى داخل المكان بعد أن رفضت بتاتاً أن أدفع ثمن التذكرة



( شكل ٦٨ ) الطريق النجاري إلى مدد أساكوسا بحوايه الحسية وسل للارة الناق  
وأحتنى مجلساً فاخراً ، وفالت بأن التياترو ملك لشقيق صاحب النزل ، وقد  
أعطانا إشارة تليفونية أن نكرم وفادتك ، فصررتى تلك الأخلاق الجيلة ، وظلت  
الفتاة تشرح لى بالإنجليزية كل مشاهد التمثيل طوال الوقت حتى برحت المكان !  
أما التمثيل فغاية فى الإتقان ، ومناظر المسرح رائعة ، وكلما أريد تغيير مشهد  
دار المسرح كله على كبره حول نفسه ، فبدا منظر جديد ، والرواية كانت قصة  
لفتاة زوجها أبواها من صبي لا تحبه وهى طفلة كهادة اليابانيين قديماً ، ولا يزال  
للعادة أثر إلى اليوم ، وكانت تحب فتى آخر جندياً لم يسعها إلا أن تسير إليه مخالفة  
أبويها ، فتلاقى الفتى مع غريمه ، وكان معه أعوان كثيرون بارزهم جميعاً وغالبهم  
فصرعهم عن آخرهم ، وأجل ماراقتى منظر ( حمارة ) ضمت القوم وهم يرقصون  
ويهللون ، وقد أخذ ( الساكى ) بلهم جميعاً بشكل يدل على أن الألمان كان دينهم  
( ولا يزالون يكثر من تناول الخمر ) وختمت الرواية بفصل المبارزة التى يفاخر  
بها القوم ويحولونها إلى اليوم ، وكان المتفرون يصفقون بحدة تشجيعاً لهم ، وبقدر  
التكلف فى نعومة اللفظ والتدلل من جانب النساء ، كانت غلظة الرجال فى  
حديثهم واتعالم وجوهاً مقطبة وهم يتكلمون فى نفعة الأمر المستبد ، ولأقل

سبب كانوا يستلون سيوفهم ، وهذا النوع من التثيل يسمونه ( نو ) ، وتقام له أكبر دور التثيل في جميع البلدان ، ويتسابق القوم لاقتناء تذاكره في تهافت عجيب .

زرت بعض معابد المدينة ، وأخرها معبد الإمبراطور مييجي ، خالق التمضة اليابانية ، مداخله ممتدة تتخللها البوابات الحشبية الشائخة — وهي تتقدم مداخل المعابد كلها — وفي قراره مقصورة الهيكل يسجد الناس أمامها ، ويقفون بقطع النقود تقريباً وزلفى ، ثم زرت معبد ( سنجاكوجي ) ، وبشتهر بمدافن جنود ( الرونين ) ، أى فاقدى الرئيس ولم قصة محمية إذ كانوا أتباعاً لرئيس لحقته إهانة من غيره فهم بطعنه ، لكن حيل بينه وبين رغبته وقفى عليه بالانتحار كما ذنبهم فهام أتباعه هؤلاء ( وكانوا ٤٧ ) لا يهناً لم عيش حتى يأخذوا بنار سيدهم ، ولما حققوا أمنيتهم أسرعوا إلى قبر سيدهم ، وأعانوا أنهم أدوا الأمانة ثم انتحروا جميعاً بجواره خشية أن يحكم عليهم بالموت بشكل غير مشرف ، لذلك أفام اليابانيون لهم معبداً لأنهم يقدمون الشجاعة والوفاء ، ولو في مظهرها الوحشى .

والأخذ بالنار كان لديهم مقدساً لحو العار ، فإذا أهان أحدهم غيره قتله ، لكن يعود القانون فبحكم على القاتل بالانتحار ، وإلا قتل نفسه قبل ذلك ، فإن نفذ فيه الحكم ظل الثأر في رقة أتباعه الذين لا بد أن يأخذوا بنار سيدهم يوماً ما ، وعجيب أن كان قانونهم يبيع ذلك ، وكان يحتم على المستقم أن يبلغ الأمر للمحكمة لكي تحدد له ميعاد الانتقام ، وإذا احتس القاتل في الأشراف أو أصبح جندياً سقط عنه القصاص وقيل أن تلك التعاليم أخذت عن ( كنفوشيسوس ) . والانتحار أشرف لديهم من الاعدام ، لذلك كان يفضل القاتل أن ينتحر أمام الناس بيديه ، وكان القانون يعطى للمجرم الحق في الانتحار أمام الناس أو ينفذ فيه الاعدام ويؤثر المنتحر أن يموت بسيفه الخاص ( Harakiri ) وهاك وصف حادثة انتحار حدثت أمام جمع من الأوربيين :





(شكل ٦٩) أحد مشاهد التمثيل الفدعة أحب أواعه لسم

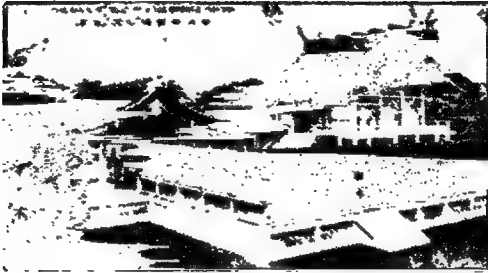
حكم على الأمير تاكي زنزا بورو بالانتحار ترصية للأجانب لأنه هو الذي أمر بضرب النار عليهم سنة ١٨٦٨ فدعا الميكادو الأجانب إلى أحد المعابد واصطف الجند وحجى بالمتحرف ومعه اثناث من أعز أصدقائه ليساعده على قتل نفسه إن خائنه قواه وتسلم الخنجر المديب ماضى الحدين وجلس الترفصاء كعادة اليابانيين ، ثم رفع الخنجر فوق رأسه شجاعة واحتراماً وأخذ يعترف بحريته في جرأة واقدام وطلب معذرة الحاضرين وسألهم أن يسبقوا عليه شرف مشاهدتهم إياه وهو يقر بطنه ، ثم انحنى مرات احتراماً ورفق قيصه ومال إلى الأمام قليلاً مخافة أن يقع على ظهره ساعة انتحاره ، وهو عار لا يمحى ، ثم أخذ يرمق الخنجر بنظرات العجب والتيه وطن به جانب بطنه الأيسر وطق يشقه محرماً يده إلى الجانب الأيمن ، وهنا اجتذبه إلى أعلى إمعاناً في الشجاعة والجلد ، وهو خلال ذلك كله لم يمتنع وجهه ، بعد ذلك انحنى إلى الأمام ساجداً ، وفي لمح البصر هوى سيف صديقه على رأسه فقصاها عن جسمه ثم مسح الحسام بورقة وأعاده إلى غمده بعد أن انحنى وانسحب .

منظر مزعج ؛ لكنه يدل على مبلغ ضبط النفس ، ورياسة الجأش ، وهدوء

الأعصاب في التتحر وأصحابه ، وعجيب أنهم يعدون ذلك أكبر فخر خصوصاً إذا قام أقرب القربين بالاجهاز على حياة صديقه ، وهذا يقده جميع اليابانيين للرجة أن بعضهم عرض على البرلمان سنة ١٨٦٩ إلغاء الانتحار فرفض اقتراحه بأغلبية ٢٠٠ ضد ٩ بحجة الإخلاص للمبدأ ، والشعور القوي وحفز الفضيلة ، وعجيب أن (أونو سيجورو) ، وهو الذي اقترح هذا الإلغاء مات بالطريقة نفسها بعد ذلك بزمن يسير ، هذا ورغم تحريم القانون ذلك اليوم ترى الانتحار منتشرًا هناك ، لمناسبات تافهة .

تفقدت بعض الحال التجارية الكبرى ، وأخصها (متسوكوشي) شبيه لافاييت بباريس ، وتشكوريل بمصر ؛ إلا أنه ألهم بناء وأعظم امتداداً حوى كل شيء حتى الطيور والفاكهة ، والمطاعم ، والمقاهي . إلى جانب مستلزمات النساء والرجال جميعاً ، وفوق سطحه بعد الدور السابع حديقة يابانية أشبه بالحدايق المعلقة ينو شجرها ويتفتح زهرها وتتوسطها النافورات والصخور ، وترى المقاعد صفت للمتريضين ، وأراجيح الأطفال ، وملاعبهم منتشرة خلالها ، وأمثال تلك الحدايق تعلو غالب المباني وتسمى بالحدايق السماوية ، وفي أقصى أركان الحديقة هيكل يقام لإله النجاح يزوره الجميع لكيلا تنسيهم المادة واجبههم المعنوي ، وللمحل عدد كبير من السيارات الضخمة الفاخرة تنقل رواد المكان إلى محطة سكة الحديد ومنها بدون مقابل .

إلى نكو : مصطفى ملكي ساحر صافي السماء — ومن ثم سمى نكو أعنى ضوء الشمس — يقع وسط الجبال المعقدة تفصل ما بينها وديان متلوية سحيقة تنقص بالشلالات والخوانق ، وعابات الصنوبر تكاد تكسو المدينة كلها ، وصاتها في ثلاث ساعات بقطار الكهرباء فبدت مناظر الطريق في قسمه الأول سهولاً يكسوها الأرز الذي يخطط الأرض في تماثل جميل وبين آونة وأخرى تبدو منابت الكتان والحصر ، وعلى مقربة من نكو ظهرت الرابي والغابات وأخذنا في الصعود



( شكل ٧٠ ) داخل معبد مييجى فى كامل روعته

حتى حللتا القرية ببيوتها الخشبية اليابانية التى يستخدم ظاهرها لمرض المتجات اليابانية الدقيقة ، وأم جانب هنالك ناحية المعابد فهى عديدة لا تحصى ، وطالبها جميل الهندسة موفور الطلاء ، سلكنا سبلنا إليها صعداً ، ومررنا بجانب قنطرة مقوسة صغيرة فى لون أحمر جذاب ، تقع على نهر دايا المقدس ، ويسمونها القنطرة الإلهية ، ولا يجوز أن يعبرها غير الامبراطور وأسرتة فحسب ، وأخر المعابد طراً معبد (اياسو) ومدفنه ، وهو مؤسس أسرة شواجن طوكوجاوا (١٦٠٠ -

١٨٦٨) بناها حفيد اياسو ثالث الشواجن سنة ١٦٢٤ ، وظل العمل ١٢ سنة يسنله من المال ١٥ ألفاً كل يوم حتى قدرت نفقاته بمليونى جنيه ، أخذنا نجتاز بوابات من خشب باسق من خرط بابانى تطوقها رفائق النحاس البراق وطلاء الذهب الخاطف ، وتلفت النظر بنوع خاص ، البوابة الثانية التى تبهر النظر لكثرة زخرفها وبريقها ، ولا يكاد يفوقها جمالاً سوى (تاج محل) فى الهند ، وفى داخلها تقوم القبرة فى هرم مدرج من نحاس يضم الرماد المخفف من احتراق جثة اياسو ، وعندما تم بناؤه خشي هندسوه حسد الآلهة وحنقها على الامبراطور من فرط جمال البناء ، لذلك أقاموا نماذج مصغرة للبناء فوق بعض الأعمدة وهى منكسة

دفعاً لتلك واقاء غضب الآلهة ، وأغرب ما يذكره القوم عن ايباسو أنه أباح للزوج الطلاق بتبر مبرر كما أباح اتخاذ أى عدد من الخليلات مع الزوجة ، على أن يكون أولاده منهم جميعاً شرعيين ، لكن ابن الزوجة هو الوارث ، وإلا وراث أخوه أو أقرب الناس إليه ، وإذا لم تعقب الزوجة سوى الأناث تبنى أحد أفراد عائلة أخرى ، ولا يجوز لمن دون ١٦ سنة أن يتبنى غيره إلا إذا كان على فراش الموت خشية انقطاع حبل الأسرة ، وكان يبيح للزوج قتل زوجته مع خليلها ، فإن قتل أحدها عد مذنباً ، وحول المكان معابد لا تدخل تحت حصر ، وبجانبه ( ياجودا ) تمثل برجاً يابانياً من سبع طبقات ، وتعد من أجل منتجات الفن الياباني ، وترى في مداخل أغلب المعابد خصوصاً البودية تماثيل حفظة المكان وقتلة الجن في أشكال مزعجة منفرة ، لا تسيع لك نفسك النظر إليها ويسميا بعضهم ( ياجوج ومأجوج ) ، وكنت ألاحظ الزائرين اليابانيين يصقون عليها قطعاً من ورق يمضفونها ، فان التصقت لبابة الورق بالتمثال كان خيراً وإلا دل على غضب الآلهة وعدم قبول الصلاة .

وللمدينة مدخل رائع بين صفيين من شجر ( Cryptomeria ) السامق الريب الذي يكاد يتعاقب من أعلاه ويخط طريقاً فاتماً رائماً يمتد ٣٢ ميلاً في تمايل جناب أقيمت أشجاره سنة ١٦٤٨ قبلت ٤٠ ألفاً وهى اليوم ١٨ ألفاً ، والسير في الطريق يذهب بخيال المرء كل مذهب بحيث يترك في الخيلة أثر لا تمحوه السنون ، وهنا أقلتى سيارة وسارت صمداً بين الربى والشلالات والنقائع فوق طريق ليانه من الأعاجيب عدت منها ٣٥ لية ، وكانت السيارات تسير كأنها متوازية تماماً كل درجة من الطريق تعلو الأخرى ، وكلما علونا بعد غور الوديان وقر منظرها لكن ظل دوى مائها يتردد في أرجاء الربى من حولنا في شدة رهيبية وبعد ساعة كاملة في ذاك الصعود ، وقفنا إلى جانب شلال كوجون وغور مستطه ٣٣٠ قدما ، وقد أعد القوم قبائله مشرب شاي جميل ، أخيراً وصلنا منبع النهر



( شكل ٧١ ) حديقة معلقة فوق الطابق السابع  
من محل مسوكوسى التجارى فى طوكيو

من بحيرة ( شوزنجى ) على  
علو ٤١٩٤ قدم تنعكس على  
صفحتها اللجينية الآسنة الى  
السندسية ، ومنظرها من  
داخل المبدل الذى أقيم قديماً  
لها ساحر جدير ببقرية  
الشراء التى تستطيع ترجمته  
للناس فى جلاء وسحر بيان  
ويقضى أن نكو جمعت بين  
جمال الفن الأثرى والابداع  
الطبيعى فى مقام هانى لحجى  
الفنون ورواد الهدوء وواسعى

الخيال ، ولليابانيين الحق فى مثلهم السائر : — لا تقل نكو ( Neko أى غم ) إلا  
بعد أن ترى نكو ( Nīkko ) على أنى لاحظت افتقار مناظر اليايات الطبيعية  
لطوائف الحيوان على اختلاف أنواعه فى لا تلائم الصياد قط ، وقلم يسمع الرء  
فيما تغريد طائر فأحراشها وعاباتها ساكنة سكوت للوت مما يجعلها موحشة رغم  
جمالها الساحر .

تقت بجولة على ضفاف نهر ( سوميدا ) فى طوكيو فهالنى منظر المصاييح الملونة  
من الورق تصف على جانبي النهر ، وعلت أن يوحى هذا صادف حفلة يسمونها :  
عيد المصاييح حين تحرق سيقان جافة من الكتان فى مدفن العائلة وقبل خمودها  
يشعل فيها مصباح المدفن ، ومنه يضاء مصباح آخر ينقل إلى البيت ويضاء منه  
الهيكل ، ويزعمون أن هذه النار توقظ أرواح الأجداد فتسير على هديها إلى البيت



(شكل ٧٢) البوابة الفاخرة في مبدأياسو

لذلك يقدمون القرابين من  
للأكولات أمام الهيكل في كل  
بيت ويركعون للآلهة ، وفي نهاية  
الليل تعود الأرواح إلى مقرها بعد  
أن تبارك النرية وتكفل لها  
السعادة طوال العام ، وفي غالب  
البلاد تضاء مصابيح لاحتصر لها  
في شكل طيور الماء وتعمد في اليم  
إلى المصب وسط تهليل القوم في  
الضفاف والزوارق في مشهد  
غريب .

وأمثال تلك الحفلات يقيمونها في كثير من المناسبات من بينها : حفلة رأس  
السنة القمرية — لأن حسابهم القديم كان وفق التقويم القمري<sup>(١)</sup> فتقام شجرة  
أمام كل بيت تدخلها الآلهة في زعمهم فان حسن استقبالها كانت سنتهم سنة خير  
وركة ، لذلك يقطع الجميع الشجرة المقدسة قبل نهاية السنة بأربعة أيام وتغلى  
بالعشب في زاوية من البيت ، ويقدم ( الساكي ) حولها ، وفي ليلة رأس السنة  
تزرع أمام الدار ومنها تصنع عصى الأكل التي تستخدم في حفلات السنة كلها ،  
وبعد أسبوعين تقتلع هذه الأشجار وتحرق خارج المدينة وسط تهليل الجماهير  
توديعاً للآلهة ، وفي هذا العيد يؤدي كل مدين دينه ، وإلا فقد شرفه بين الناس

(١) لا يزالون يسمون اليوم إلى ١٢ ساعة مزدوجة يرمز لكل بحيوان : فن منتصف  
الليل إلى البانبة صباحاً ساعة الفأر ، نالها ساعة النور ، ثم الثور ، ثم الأرنب ، ثم التين ، ثم  
الأسي ، ثم الحصان ، ثم الجمل ، ثم القرد ، فالديك ، فالغند ، فالنمل ؛ فيقول لك أحدهم  
سأزورك ساعة الأفي أي بين العاسرة والثانية عشرة وهكذا



(شكل ٧٣) في مدخل معابد نكو ومن وراثنا  
البرج القديم

لذلك يحاول دفعه ، فإن عجز  
عرض بعض ما يمتلك للبيع  
ويحاول اجتذاب المشترين  
ولذلك تكتظ الأسواق في  
الأسبوع الأخير من السنة  
بالباعة والمشتريين لوفاء دينهم ،  
وعجيب أن يُحل بعضهم  
السرقه لسد دينه لأنه يرى  
في عدم الوفاء بمعده جرماً  
أكبر من السرقه ، ولهذا  
كانت أغلب الجرائم هناك  
في هذين الأسبوعين ،  
وأعجب من ذلك أن الدائن  
لا يأخذ صكاً على مدينه بل

يقول له : إن لم تدفع في الميعاد قلت الأمر لجيرانك ، وفي هذه الفضيحة الكبرى  
ومن أجل حفلاتهم : حفلات الأطفال : حفلة الفتيات ( هينا مانسوري )  
تقيمها كل عائلة عقب فتيات ، ويكون ذلك يوم ٣١ مارس وهو موسم أزهار  
شجر الخوخ ، ويشترك فيها جميع أوانس الأسرة ، ولا يشترك فيها الذكور قط ،  
فتقوم دميّتان كبيرتان تمثلان نبيلاً وزوجته ومن حولهما دمي كثيرة تمثل الخدم  
والأتباع ، ويابس الجميع ثياباً فاخرة وتعرض بجانب الدمي سائر أدوات المنزل في  
حجم صغير دقيق ، وبعض تلك يتطلب نفقات باهظة لذلك قامت مصانع لاعداد  
ذلك ، وفتيات الجيران يدعون لتناول الطعام في تلك الآنية الصغيرة وإلى جانبه  
شراب مخفف من ( الساكي ) ، وبعد ذلك يلعبون ويمزقون ويفنون ، وقبل بزوغ



(شكل ٧٤) ندخل نكو من طريق تحفه أشجار  
(الكربوميديا) إلى مدى ٢٢ ميلا

الفجر تلف كل المروضات  
لكي يمد ذلك فالأ زواج  
الفتاة المبكر ، ويقولون إن  
تلك العادة خرافة قديمة نقلت  
عن تفلؤلم بالبنات لأنهن  
بشير إنتاج الأرض الوفير ،  
لذلك كالأ يكافون البنات  
بعمل الدمى لتدفن في الحقول  
ثم تطورت إلى الاعتقاد بأن  
الدمى تمام تقى القتيات الشر ،  
وكان من عاداتهم القديمة أن  
تحلق الفتاة يوم الزفاف حاجبها  
وتخضب أسنانها باللون  
الأسود علامة الوفاء ، لذلك

ترام يثلون ذلك في الدمى المروضة في هذا العيد  
أما القتيان : فيقيمون لهم حفلة ( تانجونوسكو ) كل معروضاتها من دروع  
وحراب وأعلام وأردية عسكرية يقدم أمامها الساكى والخلوى ، ويأكل الأطفال  
كحك الأرز تكسوه أوراق الشجر ، وفي هذا العيد يستعم جميع الأطفال في ماء  
ساخن جداً تعطره أوراق شجرة خضراء و يقيمون أعمدة تطير فوقها مقاصيص  
الورق وكأنها الطير أو السمك يسبح في الهواء

إلى هاكونى : قطعنا ٥٢ ميلاً إلى ضاحية تسمى ميانوشيتا ( أغنى أسفل  
الجليل ) في مناظر لا تقل سحراً عن مناظر نكو وبها من المقاهى والانزال الشئ  
الكثير حلت أغرها على نهر ( هايا ) وحول النزل كثير من الينابيع التى قد تبلغ





حرارة بعنفها  
٧٥ ثم يوم القوم  
للأستحمام  
والأستشفاء ،  
ومن هناك  
أقلتني سيارة  
إلى بحيرة  
هاكوني التي

( شكل ٧٥ ) المصايح الملونة تلقى في الم وهي تلاماً فينب  
بها التيار جيداً وسط تهليل القوم

تبعد بنحو ٨ أميال فوق الربي هنالك بدت صفحة من فضة ينعكس عليها ( فوجي  
ياما ) أروع مناظر اليابان وأعلاها ذروة وأسماها مكاناً حتى عده الجميع خير الجهات  
للقدسة قاطبة ويحج إليه الجميع في مواسم معينة بمصايحهم وقرابينهم ويتسلقون  
خروطه القاتم تجله خطوط الثلج الرضاء وهو أبداً يرسم على غيا البحيرة حتى في  
ضوء القمر لنلك أسماها القوم بحيرة ( ساكاسافوجي ) أعنى فوجي للزدوج ، على أن  
يومنا كان غائماً كثيف الضباب غزير الأمطار لئلك أخفى عنا جانباً من روعة  
للمناظر ، ولم أكد أرى من فوجي إلا قبساً ضئيلاً لم يشف غلة ، فكأنه آلى إلا  
أن يحرمنى الاستمتاع به كاملاً لأنى غريب عن أهله مارق عن مذهبه ، على أنى  
في عودتى من طوكيو إلى أوزاكا كنت أراه بكامل روائه طوال الطريق .

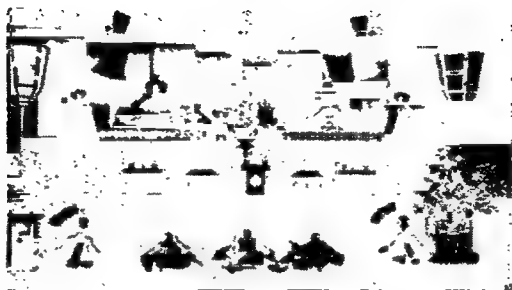
عدت إلى طوكيو ورجعت في زيارة بعض دور العلم بمعاونة صديق يابانى هو  
( المستريوكو ياما ) أقام في مصر سنتين في رئاسة للعرض اليابانى وهو كما بدالى من  
أحاديثه من المحبين لمصر والمصريين ولا يذكر بلادنا إلا بالخير مما حيينى فيه ،  
وقد عاوننى في ارتياد كثير من نواحي العاصمة وضواحيها ، ولقد كان واسطة  
التعارف بينى وبين أحد أساتذة الجامعة من الأمريكان ، ولم يسعدنى الحظ



(شكل ٧٦) شجرة رأس السنة أمام النار

بزيارة المدارس لأنها كانت  
في شهور العطلة ، غير أنى لم  
أحرم فائدة ما قصه على من  
أنباء التعليم في تلك البلاد  
الناهضة التي قلت غالب  
نظمها في التعليم عن أمريكا  
ولقد نشط التعليم منذ سنة  
١٨٦٩ حين أقسم الامبراطور  
انه سيعمل على نشر التعليم  
حتى لا تبقى عائلة جاهلة ولا  
يبقى عضو أى من أية عائلة  
كائنة ما كانت ، ولقد نجحوا  
في ذلك حتى لم يبق من

الأميين اليوم ما يبلغ الواحد في المائة ، وللطلبة هناك شأنهم في بلاد الشرق طرا :  
احترام شديد وتأثيرهم في رأى العام كبير ، وكثيراً ما يتدخلون في شئون الدولة  
نفسها ، ولهم ملابس خاصة شبيهة بالملابس العسكرية ، وتلك ثقات عن ألمانيا ،  
وجميع المدارس تحت إدارة حكومية ، ونظام التعليم هناك ديمقراطى لا يفرق بين  
أبناء الطبقات المختلفة ، ويدرس التلاميذ في المدارس الابتدائية لغتهم وتاريخهم  
وشعرأ كبيراً من علم الأخلاق والكتب موحدة وترمى إلى حثهم على التضحية  
والولاء للدولة ، والتعليم الابتدائى اجبارى للذكور والاناث ومدته ست سنين ،  
ويليه التعليم المتوسط لمدة خمس سنين ويحكى للدارس الثانوية عندنا وهو مجاني  
هنا أيضاً على أنه غير اجبارى ، وعند الالتحاق بتلك المدارس يجب على الطالب  
أداء امتحان مسابقة ، لأن تلك المدارس لا تسع سوى ١٠٪ ممن آتموا التعليم



( شكل ٧٧ ) عيد الفتيات يحضرن فيه حول الدى الكثرية ويقدمن  
مختلف الطعام والمراب

الابتدائى وهنا يبدأ تعليم اللغة الانجليزية ، ولى التعليم المتوسط التعليم العالى  
لمدة أربع سنين ، ومن أراد دخول الجامعة اقتصر فى فرع آخر من المدارس  
العليا على ثلاث سنين ، وفى الجامعة يظل ثلاث سنين أو أربعاً . وبذلك  
لا ينتهى الطالب من دراسته إلا فى سن السادسة والعشرين على الأقل ، ولعل  
سبب طول مدة الدراسة هكذا راجع إلى أنه يثلى نوعين من الثقافة : اليابانية  
والغربية ، وكذلك قد تكون صعوبة اللغة اليابانية من الأسباب فانها تؤخر  
الطالب نحو ثلاث سنين ، ومن مزايا نظام التعليم فى اليابان أنه يقوم على  
امتحانات المسابقة فالكفاءة هى الشفيع الوحيد فى دخول المدارس وليست الجاه  
والمال ( كما هى الحال فى إنجلترا مثلاً ) والطالب يجد نفسه فى التحضير لتلك  
الاختبارات من جهة ، ولدروسه المدرسية من جهة أخرى ، مما أثر فى حالته  
الصحية ، والتدريس هناك يقوم على المحاضرات فى المدارس العليا كلها ، وعدد  
الفرق كبير جداً ودروس الأسبوع ٣٥ مما لم يترك للطالب وقتاً كافياً للاطلاع  
فاعتمد على المدرس وما يلقنه إياه ، وقد جانباً كبيراً من قوة الابتكار رغم ما أوتى



( شكل ٧٨ ) عيد الصبية وتعرض فيه الحراب والدروع والجبول ولأجناد

اليابانى من تود فى القريحة وفرط فى الذكاء يفوق أقرانه فى سائر الشعوب

ولفت النظر ما للرأى العام بين الطلبة من الأثر على المدرس فإن لم يرق الطلبة قدوده علناً وطلبوا بتغييره ، ويفل أن يحجب طلبهم ، ولا يعد المدرس ناجحاً إلا إذا استمال طلبته إليه ، ولهذا أثره السيء فى تفاقمهم عن التحق فى الدرس وهم يحاولون أن يظهرُوا بمظهر العلماء ، وفى هذا ما فيه من القور الأجوفا الذى زاده احترام أهل تلك البلاد للرق العقلى والثقافة أكثر مما يلاحظ ذلك فى بلاد الغرب التى لا تعطى للتعلّم ذاك الاحترام الكبير ، لذلك يحاول للتعلّمون طلاب أساليبهم فى إغراب كبير ، وقد يدخلون بعض الكلمات الأجنبية زيادة فى التمنيق وحجاً فى الظهور ، حدث مرة أن قام وزير يخطب فى دعاية دينية فلما انتهى من كلمته فى لغتها المتكلفة التفت أحد الحاضرين إلى جاره وقال : أنا لا أفهم الإنجليزية ! كذلك حدث لما زار إيفشتين اليابان وحاضرهم فى موضوع النسبية أن كان يستمع له أستاذ ألمانى وتلميذه يابانى تلقى عليه الألمانية لمدة نصف عام فلما انتهت المحاضرة قال الطالب لأستاذه : أنا أفهم كل شىء بالألمانية ولم تكن بنا حاجة



(شكل ٧٩) مخروط فوسى ياما الرائع يعكس  
على صفحة بحيرة هاكونى

إلى هذا المترجم  
فقال له أستاذه:  
إذن فأنت أقدر  
منى فى الألمانية  
لأننى لم أفهم  
من الموضوع  
إلا القليل !

ومنذ عهد  
ميجي كان

غرض التعليم هناك نقل المدنية المادية عن الغرب حفظ كيان الدولة . ولم تعترف اليابان بأن حضارتها ونظامها الاجتماعى دون حضارة الغرب مقاماً فكان هم الزعماء الوطنيين الجمع بين الاثنين رغم ما بينهما من تنافر ، ففى أوروبا يرمى التعليم إلى ترقية عقل الفرد وخلق بصرف النظر عن قومه وعائلته ، لكن الياباني خاضع الأسرة وللدولة بحكم نظامه الاجتماعى لذلك كان الغرض من تعليمه خدمة السياسة القومية ومن ثم نجاح التعليم هناك فى تخريج طائفة قديرة من رجال الإدارة والجند ورجال الصناعة والتجارة والأعمال المالية ، وبفضل هؤلاء بلغت البلاد هذا المستوى من الرقى . أما النابيهون المبرزون الصابرة فيندر وجودهم هناك .

على أن التغير بدأ يسود طوائف الطلبة منذ الحرب الكبرى فقد تدقت عناصر الحضارة الغربية تلك التى قوت روح النقد لتصرفات القداماء وأصبح موقف الشبان هناك شبيهاً بموقف شباب إيطاليا عهد النهضة حين ثملوا بخر ما دامهم من حضارة الغرب خصوصاً فى الفن والموسيقى والنظام الاجتماعى والسياسى فبعد أن كان يلحق الطاعة للآباء والولاء للدولة والخضوع لتعليم الدين الشنتوى أخذ يدرس فى الجامعات الحرية الشخصية والحكومات النيابية مما يثيره على التنظيم

القديمة قترأه اليوم حائراً أى السبيلين يسلك مما أضعف إيمانه فلم يرم لغرض واحد ذلك الذى كان خير كفيل يتقدم اليابان الأخير ، وقد أحس بافتقاره لوسائل التسلية التى تتمتع بها نظيره الغربى ، وكذلك أحس بضيق فسحة الفراغ التى تساعد الاطلاع والبحث .

ولا يزال ينقد الأجانب نظام المدارس لكبر الفصول وحدانة عهد المدرسين ذاك الذى لا يوجد التعارف الشخصى بين المدرس وطلبتة ويزيل التأديب الظاهر ويحل الحب المتبادل والإخلاص محله ، ولا يزال المدرس الذى يتمزج بالطالبة عرضة للإهانة هناك ، وقد أخذ الآباء يهتمون النشء بنقص فى الوطنية يبدو جلياً فى نفورهم من التجنيد ، وأوضح ما يظهر ذلك فى كراهية الطلبة للضابط الذى يخصص لتعليم الطلبة النظم العسكرية فى جميع الكليات ، على أن الفرنسيين عموماً والإنجليز خصوصاً يرون أن نظام التعليم اليابانى على ما به من عيوب أفضل من نظهم لأنه يسوى بين الطبقات جميعها فلا يفضل طالب لجاهه أو ثروته بل لكفاءته مما ساعد الحب المتبادل بين أفراد جميع الطبقات . فكان لذلك أثره القومى الجليل .

الى كيوتو : ( ومعناها عاصمة العواصم ) : أخذت القطار السريع فوصلتها فى عشر ساعات ، أسست سنة ٧٩٤ وظلت عاصمة البلاد إلى ١٨٦٩ حين انتقلت إلى طوكيو ( العاصمة الشرقية ) وهى تقع وسط سهل تحوطه الربى من جوانب ثلاثة ، وقد كانت ولا تزال مقر الحضارة والفنون اليابانية البهجة ، ودكا تد خير المدن اليابانية التى لم تمسها يد التجديد قط فنال مبانها خشبية واطئة كساثر القرى اليابانية أثارها قليل تفادياً من أخطار الزلازل التى يباغ متوسط هزاتها الشديدة ثلاثاً فى كل يوم حتى أثر ذلك على مجارى صرف المياه والأوضار فأفسدت رائحة بلادهم وحولهم حتى اتهمهم الأجانب بضعف حاسة الشم ، والعجيب أن



( شكل ٨٠ ) حفلة الغاي التزلية وما يحوطها من مراسيم

البحث الطبي أثبت ضعف الشم والسمع والبصر في المتوسط هناك ولعل للعناخ  
أثراً في هذا . وحدائق البيوت نسقت على النمط الياباني . والحديقة اليابانية نموذج  
مصغر لما يحوطهم من مناظر طبيعية فرغم صغرها توم بوجود الجبال والبحيرات  
وقد يخيل للمرء أنه يرى شلالات على بعد رغم عدم وجود المياه ، وقد يعبر المرء  
صخرة أو قنطرة صغيرة تشعر بنهر وترى بقاعاً مهيّلة عليها الحصى والرمل كأنه  
جزء من شاطئ بحر ، وكثيراً ما يقلد البستاني منطقة طبيعية معينة ، وتقع حدائق  
البيوت غالباً خلفها تطل عليها الحجرات الهامة لأن الحديقة مابجاً العائلة في سرورها  
وراحتها وتعبدها ففيها نوع من العزلة والحجاب وقد تكون الحديقة جباية نقلاً  
عن منحدرات الجبال وقد تكون مبسوطة نقلاً عن مرج أو وادي ، وبحيرات  
الحديقة يجب أن تشعر ببحر صغير بسواحلها الرملية الخشنة وصخورها المشورة



( شكل ٨١ ) الفتيات يقطفن أوراق الشاي الأخضر في مرارعه  
الناسمة في اليابان

وسطها ، ولا تخلو الحديقة من العيون النافقة ، ولكي توحى بالجمال الطبيعي وجب أن تقام للمصاييح من الحجر لتتمشى مع الصخور والأشجار ، وقد كان الغرض منها الاضاءة وانحنت اليوم للزينة ، ويراعى في ترتيب الشجر والنبت الاندماج وعدم التماثل مع الجمال الفتان ، وينتقى نحو أربعة أحماس الشجر من دائم الخضرة أما النفقى قليل ومن ذوات الألوان التي تشعر بالدفء في الربيع والخريف ، ولا تخلو حديقة من شجرتي البرقوق والكريز ذوات الزهور الساحرة أما الشجر المزهر فلا حصره ولا بد أن تبعثر الأشجار المزهرة خاف الدائمة الخضرة لكيلا يخلو الزهر من الخضرة حوله ، ولكيلا تشعر بعض فصول السنة بشئ من الجذب والجفاف ، ولا يكاد يخلو الماء من شجر السوسن والبنفسج . ذلك نموذج من حدائقهم التي تحكى الطبيعة ، زرت بعضها في الميادين وأخرى في البيوت ، وهناك جلست في مقصورة الشاي التي يغلب أن تقام في كل بيت ومن تحتنا الحشيات ( الشلت ) من الحرير البراق ، وللشاي عندهم غرام عجيب يقدمونه في أوانيهم الثمينة من الخشب المزركش بالذهب ( واللاكيه ) والفتيات يقدمن





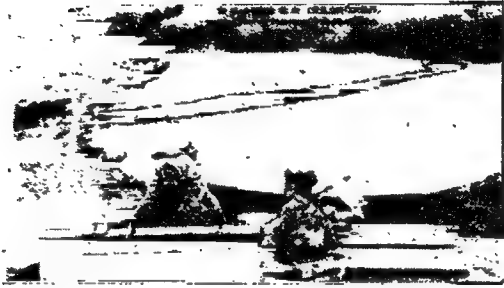
( شكل ٨٢ )

على القس ثم انتشر بين متزه ماروياما في كيوتو وهو مثل من الحدائق اليابانية الخاصة ، وكان يشرب مسحوقاً كالبن ، وقيل إن للموسيقى كانت تعزف عند سماع صوته وهو يسحق احتراماً له وشاع بينهم أن شربه يطيل العمر ، وقد كشف الأستاذ سوزوكي سنة ١٩٢٥ أن الشاي الأخضر الياباني يحتوي على مقدار من الفيتامين (ج) أكبر مما في الفاكهة والخضر وهو ينشط الأعصاب ، لذلك يستهلك القوم ثلاثة أرباع ما يزرعون وهو مائة مليون رطل ، وأول ما نقله الأوروبيون عنهم سنة ١٥٦٥ بواسطة ( المايدا ) البرتغالي ويقصون أن بعض عظمائهم مد ساطعاً للشاي باع ثلاثة أميال تكسوه الآنية الثينة الفاخرة وحضره ٣٦٠ من المدعوين في كيوتو وعن هذا النظام نقله الفرنسيون

الكثوس ونحن تقدم لمن كؤوسهن مجاملة وأدبا ، وقيمونه حفلات في مواسم خاصة ويستقدون أنه من أكبر العوامل على تعليم القوم أدب الاجتماع وهو الذي نهض بكثير من صناعاتهم الدقيقة كالصوير والإلاكيه والخزف وتنسيق الحدائق وتجميل الزهور ، وقد أصبحت أواني الشاي لديهم من النقاش ، وقد نقلوا ذلك عن الصين منذ القرن السابع ، وكان شرب الشاي إذ ذاك قاصراً

ومن المتنزهات ذائعة الصيت في كيرتو (مارو ياما) قضيت في جناحه طويلاً ثم عرجت على زيارة معبده الكبير، وأعجب ما هنالك نار يقوم الجميع على إشعالها أبداً ومنها يأخذ الناس قبساً في خيوط يتعاونها من القسس ويذهبون مسرعين إلى بيوتهم لإشعال نار مستهل السنة كي تغل بركة النور المقدس تحمل في البيت وتستطيع أرواح الأجداد زيارته، وبعد أن جبت كثيراً من الممايد عرجت على القصر الامبراطورى بأسواره الممتدة يحوطها الخندق، وهنا يتوج الامبراطور إلى اليوم في حفل كبير، وبعده دخلت المتحف ولعله أكبر متاحف اليابان لكثرة معروضاته من مخلفات اليابان القديمة على أنها في نظري لا تشعر بماض مجيد، وقد تناولت العشاء في فندق يقوم في بناء فاخر من خمسة طوابق شاهقة ويطل على النهر وكل طابق مقهى أعد على نظام يفاير الذي يليه في التنسيق، وفي نوع الطعام والشراب، وفي الألوان والأضواء فتخيرت أعلاها لأن منظر المدينة من دونه بأضوائها الخاطفة ساحر لا أنسى روعته.

**أمانوها شدا تي :** (أعنى الجسر السماوى) إحدى آيات الطبيعة الثلاث في اليابان وهى مياجيا جزيرة للمعبد وماتسوشيا أو جزائر الصنوبر وعددها ٩٠٨ تكسوها الأشجار اليابانية وهاشيداتي وهدة تنغل في جوانبها أجوان البحر الشمالى وتنتثر جزائره الصغيرة، وصلت في ست ساعات خلال طرقت متلوية وفيرة التبت والفندران والشلالات شأن كل أرجاء اليابان، وهنا يظهر جلياً أن الطبيعة جادت على اليابان بجمال وتنسيق بخلت به على سائر بلاد الدنيا. فكان اليابان آية ما أبدعته يد الطبيعة فأينما سرت تباغتك الطبيعة بسحرها الخلاب، وقد سميت بالجسر السماوى لأن هناك جسراً نحيلاً طوله ميلان وعرضه يتراوح بين ٤٠ و ٧٠ متراً يشق الماء وتكسوه أشجار الصنوبر، تسقت في أحد طرفيه ربوة بواسطة ترام كهربائى هوائى على قمتها معبد ومن حافة الربوة وقفت كسائر الحجاج وظهري للماء والجسر وانحنيت حتى أوشكت رأسى أن تدخل بين فخذي وهنا دهشت لأنى



(شكل ٨٣) الجسر السابو ، وترى الآلة قد أطلت من بين غنيتها لثرى  
الجسر وكأنه القنطرة النحيلة قد بدت فوق لجتها .

رأيت بركة الماء من دونى وقد انعكس عليها صفاء السماء فبدت هى سماء لألاءة ،  
والجسر كأنه القنطرة النحيلة قد بدت فوق لجتها .

الى نارا : وهى إحدى العواصم القديمة التى ظلت زهاء ثلاثة أرباع القرن  
حاضرة اليابان قبيل كيوتو ، بدت على كبرها كأنها متنزه واحد وسط غابة  
ممدودة تتخللها المساكن ، والمعابد ، والقدي ، يؤمها الحجاج فى زرافات ، وتراهم  
منكبين على تناول المرطبات ، وبخاصة (التاج البشور) فى غير طعام ولا شراب ،  
ويظهر أنه أحب المرطبات ليسهم ، لأنى كنت ألاحظه أينما حللت ، ويليهِ :  
أيسوكوريمو (جبلانى) الذى ياتهمه الجميع بشرة زائد ، ولعل شهرة نارا اليوم  
فى معابدها وأجلها : تمثال بودا النحاسى ، وهو أكبر تماثيل اليابان طراً ، وإن  
أعوزه الجبال والقرن عن تشل (كاماكورا) يعلو فى الجو ٥٣ قدماً ، ويزن  
خمسائة طن ، وفى معبد آخر ناقوس ضخم زنته أرعون طناً ، وهو أكبر نواقيس  
اليابان ، يدقه للمتعبد ساعة أن ياتى تقوده أو قرابينه للآلهة ليوقظها فترعاه وتكلامه  
(٩ - آسيا)

ولصوته للزعزع الرهيب دوى تردده الربى طويلاً ، وأبنية المابد كلها من خشب ضخم تكسوها السقوف المتحدرة ، تنفوس أطرافها إلى السماء دفعاً لغوائل الجن ، وترى آثار بودا الذى يوصى بالرفق بالحيوان جليلة فى كثرة الحمام الأليف ، يتنازع له القوم الحب المقدس ، فيتهاقت الطير علينا فى زرافات تحتطف ما بأيدينا منه وما بأفواهنا وجيوبنا فى ألفة عجيبه ، وكذلك أسراب الغنم المقدسة التى تفرح فى أرجاء الغابة كلها ، نبتاع من أجلاها أقراصاً من خبز (البازلاء) المقدد ، فتلطف حولنا ، وتلتهم الخبز من أيدينا فى هدوء واطمئنان ، وعند الأصيل يضرب الرجل بناعورته فتند إليه من أقاصى الغابة ليطمعها ، ثم يقودها إلى حيث تنام ، ويجمعها اليوم سبعة ، وفى شهر أكتوبر من كل عام تقص قرونها كيلا يؤذى بعضها البعض . وفى أفاصيهم أن أحد الآلهة أتى هذا المكان متطعياً ظلياً ليتعبد فى معبد نار الكبر ، ودعا إليه إلهين جاءاه على متون الغزلان ، فأصبحت الغزلان لذلك مقدسة إلى اليوم .

الى يامادا ايسى : وصلتها فى أربع ساعات وهى مقر دينى ومنتزه بديع ، وفى طريقى إليها عرجت على قرية (توبا) وبها صخرة فوتامى أورا المقدسة وهى من حجرين وسط الماء تشرق الشمس من بينهما فى مشهد جميل ، ويحج الناس إليها لزعهم أن إحدى الآلهة جلست فوقها وكانت تستقبل شمس الصباح ، لذلك تعلوها بوابة صغيرة مقدسة ، وفى يامادازنا معبدين رائعين يعتقد القوم أن أرواح البراطرة تحل فيها ، لذلك ترى العناية بهما فائقة فى النظافة والتنسيق ، ولا بد من هدمهما وإعادة تجديدهما كل عشرين عاماً ، وفى الداخلى كلها يقف ضباط البوليس فى خشوع كأنهم يصدعون بأمر أرواح البراطرة ، والامبراطور نفسه والأمرء يزورون المكان لإبلاغ وحى أجدادهم كل أمر جل أو صغر ، فعندما ولدت للامبراطور بنته الأخيرة ذهب فأبلغ الأمر لروح أجداده ، كذلك لما عاد أخ الامبراطور تا كاماتسو وزوجته من رحلتها حول العالم ذهباً توأ إلى المعبد



( شكل ٨٤ ) أكبر نواقيس اليابان يدته للمبد  
إيقاطاً للآلهة

وأعلننا الأجداد بحضورها ،  
والمعابد هناك كلها شنتوية ،  
لذلك خلت من التمثيل فليس  
بها سوى البريات الفخمة في  
غير تقوس ( كما هي حال  
البودية ) ، والمقاصير المديدة  
التي تكاد تخلو من الآثات ،  
وفي الهيكل يتدلى ستار  
أبيض من خلفه امرأة تمثل  
روح الله ، ويسجد القوم  
أمامها في خشوع ، ولا  
تكشف المرأة إلا ثلاث  
مرات في العام في مناسبات  
دينية كبيرة ، ويكثر أن

يعاق القوم حول المعابد قصاصات من ورق ، وقيل إن السبب اتفاق كلمة ورق  
باليابانية مع اسم للآلهة ، وطالما كنت أرى دمية من قش دقتها إلى شجرة المبد  
زوجة هجرها زوجها وهي تمتدق أنها كما أ كثرت من دق للسامير فيها أفضت  
الآلهة من عمر زوجها الخائن ، وهي تمد المبد أن تقتاع كل ذلك بعد موت  
زوجها ، لأن في بقائها جرحاً للشجرة المقدسة ، ومضايقة للآلهة ، وأمثال تلك  
الخرافات تعزى إلى قسوة عوامل الطبيعة ، تلك التي توحى بالأوهام ، وخشية  
القوى الخفية ، والجن ، ولذلك كثر السحرة والعرافون بينهم ، على أن الطبيعة  
وغم ذلك هدأت طباعهم بجمالها القتان ، فمقائد اليابانيين كانت تبدو في نظري  
ساذجة بسيطة مبناها الخرافات التي يتمسك بها القوم جميعاً في عصبية لا تنفق

وتقدمهم المصري المدهش ، وكنت كلما ناقشتهم لم يستطيعوا الإقناع بل أحوالوا الأمر إلى تقاليدهم التي يجب عليهم تقديسها . وكان البوذيون وهم عامة الشعب يقولون بأن بودا هو الله كان إنساناً في الأرض ثم صفت نفسه وصعد إلى السماء وهم يؤمنون بالبعث والجنة والجحيم ، على عكس الشنتويين الذين يتلون الطبقة الممتازة ، فهم يرون أن الموت النهاية الطبيعية للحياة لا بعث بعدها ، ويتمتدون أن الله روح عليا في سماء اليابان فحسب ، وأفراد الديانتين يقدسون الأجداد ، ويرون أن أجداد الامبراطور من سلالة الآلهة ، ولست أعرف في العالم المتحضر اليوم ديانة تسود أذهان ذويها في العقيدة والتمومية معاً وتوحد بين الروح الديني والزمني مثل الدين اليهودي ، لذلك شهر أهله بالتعصب فشتوا وبغضهم الجميع ، ولعل اليابانيين اليوم كذلك ؛ فالدين الشنتوي ليسهم هورباط الوطنية ، غالب الزمن والمبشرين جميعاً وظل كما هو ، فهو ليس عقيدة فحسب ، بل رباط قومي قوى يؤثر على الياباني في جميع نواحيه ، وهو في لبابه عبادة الطبيعة ، ورغم أنك لا ترى مظهرًا للتعصب فإن العقيدة راسخة دعت قوميتهم إذ كانت أساس الطاعة والوطنية وملتقي فضائهم من الشجاعة والتأدب وشرف النفس ، فروع الشنتوية : البقوى ، والطاعة النبوية ، وتضحية النفس في سبيل المبدأ في غير تردد ولا مناقشة ، فقد أضحي الدين حافراً خلقياً متوارثاً ، وهو من أكبر العوامل في التوحيد بين الناس والتأليف بين قلوبهم ، فليس فيه ما يدعو للجدل والنزاع كما نرى بين مذاهب الليانات الأخرى ، والشنتوية لا تعتمد على عقيدة معينة ، ولا كتاب مقدس ، ولا معبود خاص ، ولا شعار محددة ، حتى ولا رجاء في الآخرة ، لذلك لم تقع بينهم حروب دينية قط ؛ وأخص ما ترمى إليه الشنتوية عبادة الطبيعة ، واحترام الموتى والآباء ، وهنا سر إخلاصهم لبلادهم ، فالطبيعة هناك جديرة بالعبادة في اختلاف مناخها ومناظرها الساحرة وثمارها الوفيرة ، لذلك أقيمت البوابات المقدسة حينما تفيض الطبيعة بروعتها ، ولو أن



( شكل ٨٥ ) النزال المقدسة تأكل أفراس البازلاء  
من أيدينا

في البلاد كثيرًا من  
البوذيين إلا أنهم لم  
ينزعوا من قلوبهم  
الشتوية إذ عرف  
الجميع معناها في الوطنية  
والإخلاص لبلادهم ،  
لذلك لا يقوم خصام  
بين الشتوية والبودية  
فترى المبدئين  
متجاورين ، وقد  
يكون القسيس مشتركاً  
بين المبدئين ، وكل  
القواعد التي شذ فيها  
الدين البودى عن

الشتوى مهمة غير مرعية من الجميع ، فالبودية تعاون على نشر روح التساؤم ،  
ورغم ذلك فانك ترى التفاؤل والانتعاش النفسى هو السائد بين الشعوب اليابانية  
على عكس أهل الصين . ويحض بودا على السلام والوئام والهدوء ، لكنك ترى  
اليابانى من أشد الحاربين مراساً ، فالبودية عندم سطحية ، رغم ما يبدو من  
إسراف في تشييد معابدها ، وكثيراً ما كنت أرى الرجل الواحد يؤدى الصلاة  
بالركوع في معبدتين متجاورين أحدهما شتوى والآخر بودى .

وإذا مات أحدهم أقبل أصحاب الفقيد يقدمون بعض الهدايا من كهمك  
وقود وطلعام وزهور ، وفي اليوم التالى يحضر القسيس ويضع الجثة في حوض  
تحفه الزهور العتبة ثم تلف في قماش أبيض ثم يحمله قوم في أردية بيضاء يتقدمهم

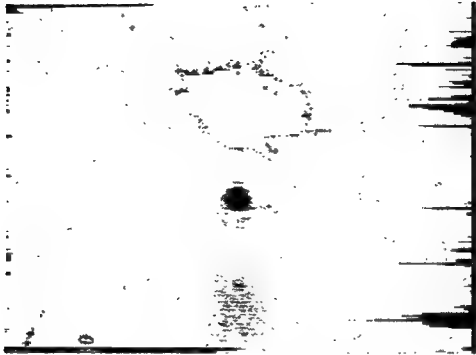
بعض المرتلين ومن ورائهم الشيعون ، وإذا ما وصلوا العبد وضعت الجثة على الحراب وقرأ القوم بعض الآيات وأخذ يير الشيعون أمامها فرادى وهم يركعون ، ويلقون بيمض البخور في كور متقد ، ثم توضع الجثة في التنور حتى تصير رماداً تحت مراقبة التسميعين ، وهم خلال ذلك يأكلون ويشربون ويتحدثون عن فضائل القيد ، وكلما تم الاحتراق عاجلاً كان ذلك مدعاة للتهنئة ، منظر رائع لا محالة ، لكنا إذا علمنا أن عقيدة الياباني في الموت أنه الهابة الطيمية للحياة ، لا يقيمها ثواب ولا عقاب زال العجب ، وكثير منهم يحمل ما تخلف من رماد في زجاجة تدفن في مدافن الأسرة ويقام عليها شاخص باسمه ، وقد تدفن الجثة بغير حرق ، وإذا كانت التوفاة آتية قص شعرها وحفظ في البيت تذكاراً لتوحيها .

**الى أوزاكا :** قبا بقطار الكهرباء ذاك الذى يكذب يشق جميع بلاد اليابان مما يدل على أنهم استغلوا منحدرات مياههم الكبيرة استغلالاً جماهم في مقدمة بلاد الدنيا استفادة بالكهرباء ، وترى غالب الخطوط الحديدية مزدحمة بين أمهات المدن ، سكة البخار إلى جوار سكة الكهرباء ، أما بلاد الريف فيغلب أن تتصل بالسكة الكهربائية .

وبافت نظر السائح هناك أوف كثير من القاطرات خصوصاً الريفية ذات مقاعد جانبية يحلس عليها القوم القرفصاء يواجه بعضهم بعضاً لأنهم يكرهون الجلوس وأرجلهم مدلاة إلى الأرض مثلاً ، ويقال أن السبب قصر فاماتهم التى تجعل أرجلهم معلقة مما يؤلمهم كثيراً .

دخلنا أوزاكا في أقل من ساعة فبدت غاصة بالحركة مكتظة بالسكان لأنها أغنى المناطق الصناعية ، وبخاصة النسيج حتى أطلقوا عليها إسم منشستر اليابان ، وهى أكثف للندن سكاناً ، لذلك لا تروق السائح كثيراً ، وأجمل مسالكها شارع (دوتومرى) التجارى قليل الاتساع ، عظيم الامتداد ، أضواؤه فى الليل تبهر النظر بأشكالها اليابانية المكونة عديدة الألوان ، تتخللها الاعلانات والأسماء





( شكل ٨٦ ) صغرتا قوتاي أورا اللدستان لفرق الشمس من بينهما

باللغة اليابانية في حجم كبير ، وسيل الجاهير يثير الدهشة فهو لا يكاد يسمح بالمرور إلا والأكتاف متلاصقة ، وأجل ما بدا منظر ذاك السيل الآدمي من قنطرة نهر أوزاكا التي تشرف على الشارع من وسطه ، وترى زوارق الرياضة في النهر وقد حلت بها مصاييح النور الملون إلى مد البصر ، ويتقاطع مع ذلك الشارع آخر للملاهي والمراقص في أضوائه الخاطفة وزخرفته وأتائه الياباني العجيب ، آيت ليأتي إلى نزل ياباني صميم ، وما أن حلت بهو النزل حتى رأيت حواجز الخشب والورق تزلق من حولي ، وفي لحظة حُصرت في غرفة ضيقة وأحاطني القوم بأداسهم الجم وكرمهم المعروف ، وبعد أن قدموا إلى شاي الاستقبال والتمطيلة ( الفوطة ) المعمة عرضوا على الحمام فرفضته — ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين — ثم أقبل رب النزل بسأني : أتريد جيشتات ؟ وتلك طبقة من السميرات المحترقات لها مدارس خاصة في سائر بلاد اليابان فيها يتعلم التيات وسال السمر وأيناس الأضيف بما في ذلك الغناء والعزف على الشامسين والكوتو ولا يخلو منهم مجلس قط ، ويحتقر

اليابانيون جميع الأوربيين الذين يصادقون التيات ويفازلونهن على قارة الطريق  
وحقاً لم ألاحظ شيئاً من هذا في الطريق قط رغم اختلاط الجنسين عكس ما كنت  
ألاحظه في جميع بلاد أوربا إذ ليس للشبان هناك من عمل يقتلون به فراغهم سوى  
المنازلة للفتيات على قارة الطريق . أما اليابانيون ففي ظنهم أن الرجال أكبر مقاماً  
من النساء ، لذلك لا يصح التريض معهن على قدم المساواة ، وهم لا يرون رأى  
الأوربيين في أن الجنس اللطيف حياة المجالس وروحها لذلك كثيراً ما كنت أرى  
جماعات النساء يقصطن إلى الرياضة في غير محبة الرجال ، أما الرجال فيطلب في  
رحلاتهم أن يستحضروا الجيئات السيرات ، وكثيراً ما ترى حلقة من الرجال  
يجلسون القرفصاء إلى جانب غدير أو شجرة مزهرة يشربون الساكي ، وفي  
وسطهم السميرة ترقص لهم وتغنى ، وترى بعض اللارة ينضم إليهم ، ويندر أن  
يخاضرها في الرقص رجل لأنهم يستنكرون رقص النساء مع الرجال على النظام  
الأوربي ، وفي الحفلات والولائم لا بد من وجود الجيئات وأجورهن غالبية بين  
جنه وثلاثة جنهيات في اليوم ، وكلما أقيم معرض أو انعقد مجلس في إحدى المدن  
الكبرى كثر الطاب عليهن جداً ، ومن ينهن الممتازات بأسمائهن مثل  
( كوهاروسان ورين جوسان ) وكلما علا صيتهن دل ذلك على زيادة في إكرام  
الضيف ، ويقدم الأشراف لأمثل هؤلاء هدايا قيمة من ذلك ماسة قيمتها ٨٥٠  
جنه قدمها نبيل للجيشا ( ساكا كوسان ) فامتدحت الجرائد كلها تلك السميرة  
وأطرت المدرسة التي أنجبت مثل هذه الجيشا التي أصبحت من الشخصيات الممتازة  
في طوكيو ، وفي الولائم الرسمية يجلس الجيئات أمام الجمع ركماً ويتلأن أكواب  
الساكي كلما فرغت ، وبين آونة وأخرى يلعبن دوراً موسيقياً ، وبعد نهاية الطعام  
يقمن بألعاب بسيطة مع الرجال ، أما في الحفلات الخاصة المائاة فيرفع التكيف  
ويعتزج الجميع امتزاجاً تاماً . ويجب على الضيف أن يتلأ كانه بيده بين حين وآخر  
ويقدها للجيشا ، وتظل شاخصة أمامه حتى ينمل ذلك ، وكثيراً ما ينفل الضيفان



( شكل ٨٧ ) اليابانيون شديدو التمسك بدينهم  
لكنهم يبدون عن التعصب ، والكل يركع  
أمام المبدع حتى الأطفال

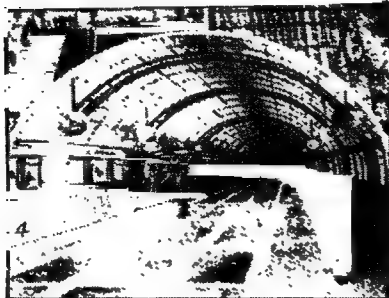
ذلك فيظل الفتيات مكانهن  
في مضايقة شديدة ويرى  
الضيف عندئذ بقلة الذوق ،  
وعلى الضيف أن يأتي على  
زجاجة الساكي بأكلها كي  
تملأ ثانية وألا عد ذلك  
شؤماً على المكان ، وليس  
لأحد أن يطيل النظر للسيرة  
التي تجانب زملاءه إذ يجب  
أن يلاطف السيرة الخاصة  
به ، ويغلب أن تكون أشهر  
الجميع لأن أدبهم يقضى بأن  
يخص الضيف بأكبر المزايا  
على أنه لا يشترط أن  
تكون أشهر السيرات  
أجملهن وجماً بل أذكاهن

وأقدرهن على التسلية ، ولا يكاد يخلو مطعم أو مقهى من الجليشات وأكثر  
ما يبنون به من التزين الملابس ( الكيمونو ) وتنظيم الشعر وطلاء الوجه بالحسنات  
البيضاء ، أما الحلى من أقراط وعقود وسوار وخواتم فلا تجد من ذوقهن قبولاً ،  
ورشاقة الفتيات بالغة رغم ما يميزهن من جمال ، إذ لا تزيد نسبة الجيلات على  
خمس فتيات اليابان جميعاً في سن النضارة ، وهى ما بين الثالثة عشرة والتاسعة  
عشرة ، وبعدها يبدو الهرم عليهن عاجلاً كالنصريرات والايطاليات ، وسائر  
فتيات البلاد التي يقصر فيها أمد الشفق ، إذ لوحظ أن جمال السيدات يظل

طويلاً كلما طال زمن الشفق .

وأمر النساء في اليابان يثير الدهشة والنقد من عدة وجوه : فأنهم يبيعون للفتيات — ما دمن غير متزوجات — كامل الحرية في التريض والمصادقة ، وقد ناقشت بعضهم فكان منطقهم أن العزوبة أمر غير طبيعي ، فإن لم يكن للفتاة زوج فخليل ، وهم لا يعتدون بالبكة والعرض اعتداداً به في الفتيات ، على أنها إذا تزوجت أصبحت مثال الوفاء لزوجها ، والعجيب أنها لا يصح لها أن تظهر الفيرة على زوجها من غيرها ، وكثيراً ما تحاطب زوجها عند أوبته من رحلته قائلة : أرجو أن تكون قد استمتعت ليلتك الفائتة ، فيقص عليها نبأ ما كان يحوطه من فتيات وجيشات وصويحات سرين عنه كثيراً .

وأعجب من ذلك وأنكى أنهم يحترمون العاهرة احترامهم للزوجة ، فالأب هو الذى يتخير لها الزوج كما أنه هو الذى يدفع بنته إلى الدعارة إن أعوزه المال ، لأن في عوزها هذا هدماً للعائلة ويجب تلافيه وإلا انهيار ركن قومى يؤثر على كيان الدولة والوطن ، وهم يطبقون على العاهرة اسم (أوجوروسان) أى العاهرة العظيمة ، حدث مرة أن اقترض نجار خمسين جنيهاً من دار جيشات مقابل ارتهان بنته الجميلة في سن الحادية عشرة لمدة خمس سنين بعدها يدفع الدين ويتسلم الفتاة ، فأصبحت تلك الفتاة من كبريات الجيشات فأكبرها الجميع . وإذا احتاج الرجل المال وكانت بنته كبيرة فوق السابعة عشرة دفع بها إلى بيت الدعارة فإن هربت ساعده البوليس على إرجاعها إلى بيت الدعارة حتى يتم سداد دينه لأنها ملزمة بذلك قانوناً إذ قبلت الدين عن والدها ! تعرف نراه همجياً وحشياً لكنهم يبررونه بأن واجب الأبناء طاعة الآباء ، والعمل على إقناذهم من الشدائد لأن في ذلك معنى الإخلاص للأسرة والدولة التى يضخى في سبيلها كل شئ ، وينهاق الشبان على الزواج من أمثال أولئك الكبار لمن وتفاخراً بهن ! مناطق لا تسيفه عقولنا البتة .



( شكل ٨٨ ) سكة حديد الكهرماء التي تجم  
تحت الأرض في أوزكا

أضف إلى ذلك أن  
من أخص وسائل إكراه  
الضيف أن يقدم للضيف  
السميرات لضيفه ، وهل  
هذا في زعمهم إلا واجب  
طبيعى ! وقد كانت العادة  
فيما مضى أن يبالغ المضيف  
في إكرام ضيفه فيقدم له  
زوجته ، ولا خطر هناك  
من اختلاط النسل فكلمهم

أبناء الامبراطور ابن السماء ، ولم يقلعوا عن تلك العادة القبيحة إلا تفاديا لمرارة  
النقد الأجنبي وأنهم لا يطبقون أن ينقد بلادهم أحد قط .

تناولت المشاء ورغبت في النوم وسرعان ما تقدم التيتيات إلى وسط الغرفة  
يفرشن لى حشية ( مرتبة ) قصيرة تتناسب مع قاماتهم القصيرة ، وإلى ناحية  
الرأس وسادة من خشب عليها غشاء رقيق من قش يحشوه القش ، وشدت  
( ناموسية ) خضراء فى حجم الغرفة كلها إلى الأركان ، ووضع إلى جانب الفراش  
الشئ الذى يحسن شربه قبل النوم ليظهر الفم ويساعد المضغ ثم قدمت للبخرة  
وأشعلت بها فتائل خضراء حلزونية تظل متقدة طوال الليل طردا للبعوض ،  
على أنى لم أطق رائحته المنفرة ، فددت جسمى وكانت قدمى تتدليان خاف  
( الفراش ) إلى نصف الساقين ، ورأسى لا تكاد تستقر على وسادة الخشب  
القاسية التى لا يلذ لهم النوم إلا عليها ، فترى الرقبة مشحوضة عليها ، والرأس  
يتدلى من طرفها الخارجى غالباً ، ويظهر أن الباعث عليها شدة محافظة السيدات  
على تسيق شعر الرأس مخافة أن تعبت به الوسائد الأخرى . ويقولون إن نساء

اليابان امتزن بجبال الرقاب المشوقة غير الجمدة ، وتلك نتيجة النوم على هذه الوسائد ، وينقلب أن يوضع بجوار الفراش مصباح من ورق ملون ، على أنى لم أنهم إلا غداً ، وكنت أدهش لم إذ ينامون نوما عميقاً رغم قعقة أخشاب الغرفة ومصاييحها وطنين البعوض والقراش ، ويكاد يخيّل للمرء أن الدار ستتهار أمام شدة الرياح فهي ترتجف أبداً وكأنها الخيام المؤقتة ، إلى ذلك أنى كنت أسمع كل همس يقع في الحجرة - الأخرى .

وفي صبيحة اليوم التالى قصدت القصر الامبراطورى القديم وكأنه القلاع العاتية بصخوره التى أذكرتنى بجلايد الكرنك في ضجاعتها ، على أن مقاصيره كلها تتوج بالخشب في الخراط اليابانى في شئ من الضخامة في غير علو ، ومن حوله خندق كأنه النهر العظيم تحترقه قناطر عدة ، ومن أشهر ما يزار في أوزاكا ملهى الدمى (تياترو العرايس) وهو الوحيد من نوعه في العالم ويسمى (بونراكو) ، وقد كان القس في الزمن القديم يستخدمون الدمى واسطة بينهم وبين الآلهة ، ويبلغون الناس رسائل الآلهة على لسانها كي تشعرهم بأنها ليست آدمية مثلهم ، ثم انتقلت فيما بعد إلى الملاحى ، هناك ترى جماعاً من الدمى الكبيرة في ثاث المجمع الآدمى ، تظهر على المسرح يحركها أماس بمهارة تشعر بأنها أقزام بنى آدم ، فمثل الدمى رواية كاملة ، وتنظم حركاتها على أنغام الموسيقى ، والمازفون يتكلمون ويفنون بدل الدمى التى تؤدى الحركات فحسب ، والعجيب أن عيون الدمى وشفاها وأصابعها تتحرك في دقة مدعشة ، وكل دمية يحركها ثلاثة رجل من خلفها يلبسون أردية سوداء ، وتكسى وجوههم بنقاب خفيف ، وهو من أحب الملاحى الشعبية لديهم . وقد قمت بجولة في الحى الصناعى من المدينة فراعنى ما رأيت من دوى المصانع وعظيم امتدادها ، فهى التى لعبت الدور الهام في تطور البلاد الصناعى ، ذاك الذى أعده خير مثل نحتديه إن أخاصنا في نهضتنا الاقتصادية الخاضرة .

## النهوض الصناعي :

خالت اليابان في نهوضها  
الصناعي سائر بلاد الدنيا  
من قبل ، ففي إنجلترا  
مثلا كانت التجارة  
والصناعة خاضعة لقوانين  
حكومية إلى القرن الثامن  
عشر حين نهضت الصناعة  
على أساس الجهد الفردي  
والمناقسة الحرة ، وتلك  
تغلبت على ملاك الأراضى  
ونزعت منهم نفوذهم  
الحكوى وأصبح تدخل  
الحكومة في الصناعة أمراً

( شكل ٨٩ ) إحدى السمات وهى ترقص  
على الطريقة اليابانية

غير مرغوب فيه ، وعلى ذلك لم تتم الصناعة في إنجلترا دلى التعاون العالم ولا على  
الإشراف الحكوى ، بل على مجهود الفرد ومزاحمته لغيره ، أما في اليابان فقد  
قامت الصناعة على كواهل الدولة وذلك لعدم وجود طبقة من أغنياء التجار الذين  
أمدوا الصناعة الإنجليزية بالمال ، إلى ذلك احتقار طبقة التجار في اليابان عندئذ  
وقلة خبرتهم بسبب عدم احتكاكهم بالأجانب كثيراً . فبينما نجد النهوض  
الصناعى في الغرب هو الذى أثر في النظم السياسية ، إذا بالأمر على التقيض  
من ذلك في اليابان ، حيث كان الانقلاب الصناعى نتيجة مباشرة لتغيير نظام  
الحكم ؛ فالدولة هى التى فتحت المصانع ولا تزال تديرها ، وهى التى أوفدت  
الطلبة ليتعلموا الصناعة والتجارة في الخارج ، واستقدمت الخبراء من الأجانب

وأُنشأت المدارس الحكومية ، وفتحت الغرف التجارية ، ولا تزال تمنحها الإعانات المالية ، كذلك أقامت المتاحف الصناعية في كل البلدان ، وهي التي تزود التجار بالمعلومات عن الأسواق الخارجية ، وحتى المصانع التي انتقلت إلى أيدي الأفراد لا تخلو من الرقابة الحكومية ، والحكومة تمنح المصانع كلها بالقروض والإعانات المالية ، وتراها تشرف على الهيئات التعاونية التي تفوق الألف والتي تتعاون على تنظيم الإنتاج والتصدير وظروف البيع ، ولمذه حق قانوني في فحص صادرات البلاد محافظة على سمعتها الصناعية في الخارج ، ومما ساعد الصناعة في اليابان أنها نجت من مقاومة فئة الممولين الأقديين الذين تعرضوا في سائر الدول للخسائر الفادحة فثاروا الصناعة زمناً ، أما في اليابان فلم توجد تلك الفئة ذلك لضعف مالية الأفراد هناك ، إلى ذلك أن النهوض الصناعي في اليابان جاء في عصر ظهر فيه فضل الإنتاج الكبير الذي لا يقوى عليه الفرد بل الجماعات والتعاونات وشعر الكثير بضرورة معاونة الحكومات وتدخّلها في تحديد للراحة ، ولا يزال للنظام القديم أنصار يقاومون تدخّل الحكومات حتى في إنجلترا نفسها ، أما في اليابان فالإشراف الحكومي منطبق على نظمها الاجتماعية التي تقف على الأفراد بالطاعة للأسرة والولاء للدولة فهم جميعاً يؤيدون التعاون بفطرتهم ولا يتقون بالجهد الفردي — رغم ما لهذا من أثر سيء في القعود بقوة الابتكار — فإذا كانت إنجلترا قد ضربت المثل الأعلى للصناعة إبان القرن التاسع عشر فإن اليابان هي المثل الأعلى في هذه الأيام .

ولتطور الصناعة في اليابان ثلاثة عصور الأول من بدء عصر ميحي (١٨٦٨) إلى انتصار اليابان على الصين في حرب ١٨٩٤ ، وهذا العصر امتاز بنشاط الدولة العظمى في بناء ما تتطلبه دعائم الصناعة . لذلك مدّ أول خط حديدي سنة ١٨٧٠ ، وفي ١٨٩٤ بانّت السكة الحديدية ٢١١٧ ميلاً ، وفي سنة ١٨٧٢ تأسس أول مصرف (بنك) على النظم الحديثة ، وأعقب ذلك نشر التعليم على أحدث النظم





وبدأت السفن التجارية تبقى  
تحت إشراف الحكومة  
ومعاونتها ، وأقيم كثير من  
المصانع سنة ١٨٧٠ للحري  
والقطن ، والصوف ، والورق  
والزجاج والآلات ، ثم أعقب  
ذلك بناء مرسى السفن  
ومناجم الفحم والنحاس ،  
على أن هذا العصر لم يغير  
شيئاً قط من ميول الشعب  
الزراعية ، وتبدو الحالة  
الاقتصادية جلية في تجارة  
البلاد الخارجية إذ ذاك

حين كانت جل وارداتهم من (شكل ٩٠) مثل من الجيشتات سميرات اليابان

المصنوعات خصوصاً المعدنية والمنسوجات — وهذا شبيه بنا الآن — وجل  
الصادرات كانت من الخامات وبخاصة الحرير ذاك الذي كان إنتاجه ضعيفاً عهد  
الاقطاع لما أن كان الحرير قاصراً على ملابس الطبقة الحرية والاستقرائية  
وحرّم على غيرهم ، لذلك كانت زراعة القطن أكثر انتشاراً ، وكان ينسجه  
الكل في بيوتهم ، لكن عقب انقضاء عهد الاقطاع وردت المنسوجات القطنية  
من الخارج رخيصة ، ثم أسست مصانع القطن في البلاد فزاد الطلب على الخام  
من القطن الأمريكي والهندي والصيني ، ذاك الذي كانت تزرعه تلك البلاد  
بنفقت أقل من زراعته في اليابان ، وسرعان ما زاد الطلب الأجنبي على الحرير  
الياباني فأحال الفلاح الياباني أرضه القطنية إلى أرض للتوت لتتخذ دود القز

وساعدت رقى انتاج الحرير ملائمة الأرض له ومهارة اليابازين فى القيام بشئونه المتعبة ، واليوم نرى الحرير الخام أكبر صادرات البلاد ، كما أن القطن الخام من أكبر الواردات ، ويلى الحرير فى الصادرات الشئى والنحاس ومنتجات المصانع الصغيرة .

وعلى أثر حرب الصين زادت خبرة البلاد الصناعية واستطاعت محو القيود الأجنبية على الواردات ، وتلك القيود كانت ترغب اليابان ألا تزيد الضرائب على الواردات على ٥ ٪ ( وتلك الخطوة شبيهة بما اتخذناه فى مصر فى العام الفات ) ، وقد ساعد هذا النهوض الصناعى هبوط سعر الفضة التى كانت أساس التعامل هناك إلى سنة ١٨٩٧ مما رخص أثمان المنتجات اليابانية فزاد الطلب عليها وتشجعت صناعاتها ، ( هبوط الجنيه فى مصر اليوم شبيه بذلك ) .

وعقب حرب الروس سنة ١٩٠٥ ضمت اليابان لها كوريا وجزءاً من منشوريا هذا إلى فرموزا ولوشو التى أخذتها من الصين من قبل . وتلك البلاد تطلبت القيام بمشروعات اقتصادية كبرى كالسكك الحديدية والمصارف والتاجر مما شجع الصناعة اليابانية التى أمدت تلك المنشآت ، إلى ذلك تنشيط استغلال الكافور وقصب السكر فى فرموزا ، والبنجر فى كوريا ومنشوريا ، وذلك يصح اعتباره الطور الثانى للصناعة وفيه بدأت تسلم الحكومة للمصانع التى ثبتت أقدامها للشركات تعمل تحت إشرافها ، وظلت الصناعة الرئيسية إلى آخر القرن الماضى : السفن والنسيج ، أما المادن فظلت متأخرة ، لذلك وجهت الحكومة همها إليها هذا القرن لكنها لا تزال متأخرة لنقص حاجتها فى البلاد ، فالحديد نادر ويستورد من الخارج وبخاصة من الصين ، والقمح ردى النوع بعيد عن مناطق التعدين . فطور اليابان الصناعى لم يظهر فعلاً إلا فى الفترة بين حرب الصين والحرب الكبرى أى فى عشرين عاماً ، ولم تبدأ النظم الغربية فى البريد والسكك الحديدية والسفن والمصارف والقضاء والإدارة إلا سنة ١٨٩٤ ، وانتشر التعليم الذى وظهرت



( شكل ٩١ ) التوم فى اليابان على الحيات ( الفلت ) والوسائد الخشبية  
مجاورها مصباح الورق وللبحرة

الآلات خصوصاً فى صنع القطن ، فقد زاد عدد مغازله من ٤١٥ ألفاً سنة ١٨٩٣ إلى ٢,٤١٤,٠٠٠ سنة ١٩١٣ ثم ظهر رأس المال الأجنبى فى استغلال المنحدرات المائية فى الكهرباء ، فبينما لم تكن اليابان شيئاً مذكوراً فى العالم الاقتصادى إلى سنة ١٨٩٤ إذا بها تصبح عملاق الشرق الاقتصادى منذ سنة ١٩١٩ .

أما العصر الثالث لهذا التهوض فمنذ الحرب الكبرى ، ففى خلالها تضخمت صناعاتها بفضل غياب المراحة خصوصاً صناعات الأصواف والكيماويات والحرار والحرف ، كذلك قد أفاد الطلب على الآلات الحربية والذخائر مصانع الحديد ، وتقوى أسطولها التجارى إذ شغلت الحرب سفائن الدول الأخرى فضوحت السفن اليابانية خلال الحرب ، وزاحت الأقطان اليابانية المنسوجات الإنجليزية التى تراخت إبان الحرب ، وصنعت اليابان الأقطان الراقية التى كانت احتكاراً لباكستان ، وبين سنتى ١٩١٣ و ١٩٢٤ ضوحت المغازل تماماً ، وقد زاد الإنتاج الكبير الطلب على الفحم والكهرباء فزاد إنتاج هذين كثيراً .

على أن الكساد العالمى الذى بدأ سنة ١٩٢٠ كان صدمة خطيرة على لمصانع التى لم تدعم ، وبخاصة الحديد والسفن والصوف التى لا تزال تشكو من الشكوى ، وكان لزلزال سنة ١٩٢٣ أثر سيء على نهوض الصناعة إذ أتلّف كثيراً من الأرواح والأموال فاستلزم ديوناً أجنبية باهظة .

فى خلال الثلاثين عاماً الحالية حصل انقلاب تام يبدو فى أن غالب الواردات اليوم أضحت من الخامات خصوصاً القطن والمواد الغذائية ، أما الصادرات التى كانت من قبل من الخامات فقد أصبحت من المصنوعات — إذا استثنينا الحرير الخام — كذلك التغير الذى طرأ على أسواق اليابان ، فى المقدمة اليوم شرق آسيا وأمريكا الشمالية ، فأمريكا سوق الحرير الخام والخزف والشاي ، ومورد القطن الخام والآلات والمعادن ، وتصدر اليابان إلى شرق آسيا القطن والمصنوعات الصغيرة مقابل القطن الخام من الهند ، والأرز والخشب والحديد الخام من سائر بلاد شرق آسيا .

وخلاصة القول فى ٦٠ عاماً انتقلت اليابان من بلاد تعيش فى القربى الوسطى إلى قوة اقتصادية خطيرة ، وكان تطورها منظماً للغاية فى كل نواحيه ، فى السنين الخمس والعشرين الأولى أقيمت الدعامات المادية للتقدم الاقتصادى تحت سيطرة الحكومة ، وفى السنوات العشرين التالية ظهر النمو الصناعى وعاونته النصر فى الحروب وسعة للمستعمرات ، وهنا بدأت تستقل الصناعة عن الدولة إلا فى نوع من الحماية والعون المالى ، وظهرت تطلب الآلات على العمل اليدوى ، وأخيراً جاءت الحرب الكبرى التى أتمت هذا التقدم الذى أدهش العالم .

**كيان اليابان الاقتصادى اليوم :** ولا تعد اليابان مصنع آسيا بأكملها كما كانت انجلترا مصنع أوروبا فى القرن التاسع عشر ، ذلك لأن الزراعة لا تزال أساس النشاط اليابانى إذ يشغل بها نصف رجالها رغم عدم ملائمة الأرض كثيراً للزراعة ، وتشتان بين المروج الخضراء التى يهبها الانجليز فى بلادهم



( شكل ١٢ ) بحس الملاح قسا من أرسه برراة التوت في شجيرات قصيرة  
يقطف الفتيات ورقها لاطعام دود القز

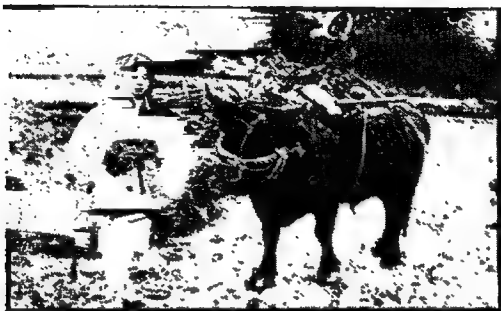
وبين تلك الأرض الجبلية التي يستغلها الياباني إلى أقصى شبر منها وتكتظ بمجاهيره الكثيفة وقراه المتعددة ، فهو يزورها بمجد وعناية فائقة وبخاصة الأرز والشعير ويشغلان ٩١٪ من الأرض المزروعة ، وفي بعض الجهات العالية يستقبت ثلاث غلات أو أربعا ، كل ذلك بطرق يدوية حثيقة ليس للآلات فيها دخل ما ، فهو في ذاك شبيه بالفلاح المصري ، وحتى في معيشتة لا يزال كما كان أجداده في الملابس والغذاء والأخصاص الخشبية والملاهي ، وحتى رأس السنة لا تزال في الأرياف بالحساب القمري ( تام الشبه بفلاح مصر ) ، والمزارع هناك صغيرة إذ يمتلك ٥ مليون عائلة نحو ١٥٠ إيكرا ، وثلاثة أرباع أولئك لا تزيد ممتلكاتهم على ٢٠ إيكرا ، فنحو ٣٠٪ من الزراع من بين صغار الملاك ، والمستأجرون يقومون بالعمل مشاطرة مع للملاك الذين يقدمون السماد والبذور مقابل نصف

---

(١) من مجموع أراضي اليابان : ٥٠٪ تكتسوها المابات ، و ١٥٪ للزراعة ، و ١٠٪ للرعي .

الحصول ، فالفلاح إذن لا الصانع هو ممثل السواد الأعظم هناك ، ويقوم بأعمال أخرى إلى جانب زراعته ، وأخص تلك الأعمال تربية دود القز الذى يلقبونه ( بالهذب التيل الصغير ) ، ففي أغسطس يكاد يشتغل أفراد العائلة جميعاً بقطف ورق التوت ووضعه على صوانى خشبية وإطعام الدود الذى تقوى شهيته للطعام إلى أقصى حد ، ويسمع المرء صوت الدود وهو يقرضها فى أزيز مختلط ، ويقال إن أية جلبة أو إزعاج من الناس حوله تضايق الدود فيفسد هذا من محصول الحرير وجودته ، والحرير يقوم بنصف دخل الفلاح تماماً ، يضاف إلى ذلك بعض الصناعات العائلية البسيطة كالأنوال اليدوية للقطن الذى يعدم بجميع الملابس الريفية ، وصناعة صناديق الخيزران والورق تطلّى باللاكيه ، كل ذلك يصنع فى البيوت ويسلم للمتعهدين من التجار ، فأين للفردى المصرى للقطن فيفسد الفلاح حاجته منها بعمله فى وقت فراغه الطويل ؟

ويشتغل من الناس ١٦ مليوناً بصيد السمك عماد غذائهم الحيوانى ، تلك هى المهن التى لا تزال تبقى على القديم وتغالب المؤثرات الأجنبية ، وأنت ترى طوال الطريق تلك الصناعات اليدوية تمارس فى نوافذ المساكن بنشاط عجيب ولم يؤثر عليها ما يجاورها من مصانع زودت بأحدث الآلات ، وقد تمجّب لبقاء تلك الصناعات رغم مزاحمة الانتاج الحديث لها ، لكنك إذا علمت أن غالبها متعلق بالغذاء والملابس والسكن ، وهذه لها نظامها الخاص المختلف عن سائر بلاد العالم زال العجب . فسلع الأجنبي لا تجد لديهم قبولا ، وحتى قماش ( الكيمونو ) يلائم النسيج اليدوى لأنه صغير العرض ، إلى ذلك أنت اليابانى لا تروقه إلا الأدوات الدقيقة الثمينة فى لونها ونظامها . ولم تنجح الآلات الضخمة إلا فى الأشياء الثمينة عن البلاد التى تصنع للتصدير لا للاستهلاك الداخلى ، ولعل فى انتشار الكهرباء هناك ورخصها خير معين على بقاء تلك الصناعات الصغيرة إلى جانب الانتاج الكبير ، ذلك لسهولة استخدامها حتى فى البيوت لانبجاز العمل



( شكل ٩٣ ) تشغل الزراعة في اليابان نصف السكان ، ويسمل النساء في الحقول إلى جانب الرجال

بنفقات زهيدة ، ومن العجيب أن الإنتاج الصغير هو السائد في اليابان ومع ذلك قد قامت مصانع على نظام الإنتاج الكبير تفوق في نظامها نظائرها في أوروبا : ( كمصانع الخزف وآلات الموسيقى والنسيج ) ، أما من جهة توطن الصناعة فيبدو جلياً في أوزاكا وكوبي بفضل ما كان لهما من حرية تنجت عن بعدها عن أثر السلطة العسكرية عهد الأقطاع مما شجع روح الابتكار فيهما ، ونلاحظ أن الصناعة مكرزة في جنوب جزيرة هندو لسهولة الاتصال بالبحار ، لكنها بعيدة عن مناجم الفحم ( فأغلب الفحم في كيوشيو وهوكايدو وهما زراعتان ) ، لذلك اعتمدت الصناعة هناك على الكهرباء ، وهذا له الفضل في أن مصانع اليابان أُنشئت أحدث مصانع الدنيا نظاماً ، فهل لمصر أن تبادر باستغلال المنحدرات في أسوان والقنطرة فتنتشل البلاد من شر الاعتماد على الزراعة وحدها ؟

ويلاحظ أن ستين في المائة من عمال المصانع الكبيرة من السيدات ، وهذا يفسر رخص المنتجات اليابانية من جهة ، وعدم نجاح الصناعات التي تتطلب مهارة

• الرجال : كصناعة الآلات ، أما النسيج الذى لا يحتاج إلى مهارة العامل بقدر احتياجه إلى حسن الإدارة وإلى جودة الآلات فقد نجح تماماً ، ويعزى افتقار اليابان فى مهرة العمال إلى حداثة عهدها فى الصناعة وقلة خبرتها بها .

ولقد دعا إلى استخدام النساء أن المصانع منذ البداية أقيمت فى القرى لرخص أثمان الأراضى بها فلم تجد من العمال كفايتها ، وتلك صعوبة تعترض الصناعة حتى فى مدنها الكبيرة ، لذلك لجأ أصحابها إلى العائلات الريفية يغرونها على إرسال فتياتها يتعلمن فى المصانع ويشغلن مقابل أجر معين يستقطع منه جانب نظير المسكن والغذاء الذى يقدمه لمن صاحب المصنع .

وغالب مصانع الانتاج الكبير فى يد هيئات اقتصادية كبرى تتصل بالحكومة حتى عدها البعض نصف حكومية ، وإلى تلك الشركات كانت الحكومة تسلم كل مشروع اقتصادى أقامته بعد نجاحه ، وبفضل ذلك تشرف الحكومة على الصناعة تماماً ، وتلك الشركات أثركبير فى سياسة البلاد ، ولعل من أجل مزايا هذا النظام زوال المزاومة الذى سببه الإشراف المركزى الشامل ، والتضامن الإنتاجى المتين ، فهل لحكومتنا أن تتولى التهوؤ الصناعى وترسمه خطى اليابان التى تلائم حالتنا ؟

فذاك النجاح العجيب للصناعة اليابانية يرجع الفضل فيه إلى الضرائب

---

صناعة النسيج فى مصر شبيهة بموقفها فى اليابان من عدة وجوه :

(١) لأنها تستورد الآلات كلها من الخارج .

(٢) بدأب ولم يكن للعمال هناك بها خبرة قط ، فاستعانوا بالخبراء الأجانب .

(٣) كان الوجود من العم فى اليابان نادراً وكانت أجور العمال ولا تزال رخيصة جداً .

(٤) لم يكن لليابان شركات ملاحية تخدم تلك الصناعة ، فبدأت نواة الأسطول التجارى مع بدء صناعة النسيج .

(٥) كانت الحكومة تقدم لها الإعانات المالية والتسهيلات بسخاء !

(٦) فرضت رسوماً كبيرة على الواردات لتحمى صناعة النسيج ، صارفة النظر عن

المخاملات التى فوت عليها مصانعها .





( شكل ٩٤ ) المكان الخامس بترية دود القز في بيوت الفلاحين جميعاً

الباهظة التي فرضوها على الواردات ، وإلى بعد المزاحمة الأوروبية ، وإلى النظام الاجتماعي الذي يؤيد بفطرته التعاون ويقاوم الفردية ، وإلى بدء الصناعات الكبرى بواسطة الحكومة التي لا تقوى مالية البلاد الضئيلة على مزاحمتها ، وذلك التعاون لا شك عامل عظيم على تخفيف وطأة الأزمات وتقلب الأسعار ، لأن الجاعة هناك تنفذ العاقل منها على عكس أوروبا ، فلمجرد طرد العمال من المصانع في أوروبا ينقصون من مشروعاتهم وهذا يزيد الأزمة سوءاً ، كذلك فإن طبقة المأجورين هم الذين ينكبون على المشتريات عند انخفاض بسيط في الأسعار فيزيد هذا في الارتباك المالي ، لذلك أنشئت هيئات التأمين ضد البطالة في أوروبا ، أما في اليابان فلا داعي لها لأن العاقل يلجأ إلى عائلته وقد يستأنف الزراعة وهي لا تزال أهم الأعمال في البلاد ، ويساعده على ذلك استخدام الدراجات مطية يذهب بها العامل يومياً إلى قريته فيعيش وسط أهله دون أن ينفق على مسكنه ومأكله شيئاً يذكر ، وهذا هو السبب في نقص أجر العمال العاطلين في اليابان عنه في جميع الدول ( لم يبلغ مائة ألف ) .

وقد ساعد على عدم تقلب الأسعار ( إبان الحرب المظلى صعوداً و بعدها هبوطاً ) في اليابان منتجاتها الخاصة التي لا تؤثر فيها المزاخمة الأجنبية ، إلى ذلك العادة التي قضى بها العرف عندهم وهي أن كل عامل يستغنى عنه يمر بين ثلاثة أشهر وستة على سبيل المكافأة وهذا قلل خطر البطالة لا بل وساعد أصحاب العمل ألا يلجأوا إلى الطرد إلا عند الضرورة القصوى ، على أن هذا النظام الذي يساعد على تجنب الأزمات يعاكس الكفاية لأن الأزمات هي التي تستأصل غير الأكفاء من حلبة الإنتاج .

أما إضراب العمال هناك فنادر لأن الرأي العام — وهو قوى جداً هناك — يقاومه كل المقاومة ، كذلك توقعه روح التضحية التي تنتشر بين العمال أنفسهم فقد حادث بعضهم عن سبب رضام بالأجر القليل والساعات الطويلة فكاث جوابهم أنهم راضون بذلك خشية أن يؤثر اعتصابهم على مركز المنتجات اليابانية في الأسواق الخارجية ، على أن التمرد بدأ اليوم يظهر بينهم ، وقد تشكل اتحاد العمال لتحديد ساعات العمل وبعض الأجور ورعاية صوالح العمال ، لكن لا تزال ساعات العمل تزيد عنها في جميع البلاد الأخرى — بين ٥٧ و ٦٠ ساعة في الأسبوع — ولا تزال هذه الهيئات تناضل كي تعترف الحكومة بحقوقها ، ولعل ضعفها ناشئ عن قلة العمال في المصانع الكبرى فهم ٢٢ مليوناً فقط والباقي موزع في المصانع الصغيرة ، إلى ذلك أن غالبهم من النساء اللاتي ينظر الجمهور إليهن نظرة هي دون نظرم إلى الرجال .

**خطر السكان .** ولقد أثبت الإحصاء الأخير أن عدد السكان ضعف تماماً في خمسين عاماً إذ بلغ مجموع سكان الإمبراطورية ٩٠ مليوناً ، وأن الزيادة تبلغ مليوناً في كل عام في الجزائر الرئيسية وحدها ، ففي القرن التاسع عشر تضمن عدد السكان بالقدر الذي تسمح به البلاد ، وزاد هذا التضخم عدم الهجرة وقلة الحروب ، على أن مستوى المعيشة ظل في حدود التقشف الشديد حسب أوامر



( شكل ٩٥ ) في أحد مصانع الحرير في أوزاكا ، ومصانع اليابان أحدث نظاماً من نظائرها في الغرب

الأسرة ، لذلك ظلت البلاد تمون نفسها رغم ازدياد السكان ، على أن سكان المدن والطبقات الفقيرة بدأت تتغير حالهم اليوم وتزيد نفقاتهم ، ومن العجيب أن أرض اليابان لا يصلح للزراع فيها سوى السدس ، وهذا هو الذي يمون نصف السكان تماماً ، ولقد ازدادت حركة نزوح أهل الريف إلى المدن جرياً وراء الصناعة وزيادة الأجور ، تلك التي رفعت كلف المعيشة في اليابان كلها ، ويظهر أن طول عزلة اليابان عن العالم ونظامها العائلي المحكم أضهم الياباني ضرورة اتكاله في الغذاء على إنتاج أرضه فظل كذلك إلى اليوم ، لذلك لجأ إلى طريقة الزراعة الاستغلالية القصوى حتى ضاعف إنتاج الأرض من الأرز — وهو عماد الغذاء — لكن رغم ذلك أخذت تتحسن معيشة الفرد ويزيد استهلاكه فأنحت مشكلة التموين اليوم حرجة ولذلك بلغ الوارد من الأرز الأجنبي عشر المستهلك في اليابان ، وأضحت أثمان الأرز — وهو عماد غذاء الفقير — عرضة للتقلب الشديد .

لهذا كله أضحت زيادة السكان هناك خطيرة ، يزيد بها خطراً أن نظامهم

الاجتماعى يحرم تحديد النسل ، فهو يساعد الزواج للبكر ، كما أن الأبوين لا يشعران بمسئولية الأولاد لأن رعايتهم فرض على الأسرة بأكملها ، إلى ذلك أن الدين الشنتوى يحض على النسل وينفر من الزواج العقيم ، كذلك المرأة اليابانية تمد نفسها خادمة أولادها ولم ترق إلى مستوى امرأة الغربية التى قل نسلها بسبب ثقافتها وشعورها بمسئولية تربية الأولاد واشتغالها مع الرجل جنباً لجنب ، والنساء هناك لا يعرفن الطرق الحديثة التى يتبعها الغربيات فى منع النسل ذاك الذى أخطت قلته خلقاً فى إنجلترا وأمريكا ، وفوق الجميع فإن الحكومة اليابانية لا تسمح بنشر أية دعاية تحض على تعطيل النسل ، وذلك دفاعاً عن الناحية العسكرية ، فكان كثرة النسل فى اليابان يكفلها الدين والمادة والحكومة والنظام الاجتماعى . ونصيب اليابان من الهجرة قليل يناهز نصف مليون فى الخارج فقط ، لأن دول أمريكا قيدت الهجرة إليها وكذلك استراليا ، أما آسيا — حيث المجال متسع للهجرة — فإن فيها من وفرة السكان ورخص الأجور ما يسد الباب على مزاحمة اليابانى .

لذلك كان لزاماً أن تبتلع للصانع فى اليابان كل زيادة فى السكان ، فيجب زيادة تنشيط الصناعة والاعتماد فى الغذاء والخلصات على الواردات . ومشكلة السكان عندنا شبيهة بها فى اليابان ، وخير السبل لابتلاع الزيادة فى السكان إنباض الصناعة .

ومن المشاكل التى تقلق اليابان — شعورها بالاعتماد على غلتين رئيسيتين ، وهما : الحرير الخام ( ٤٥ ٪ ) ، والقطن للنسوج ( ٢٠ ٪ من الصادرات ) ، فهما ثلثا مجموع الصادرات ، وقد زادها شعوراً بالخطر أن خير أسواقها لتصريف للنسوجات : الصين ، وقد بدأت تشجع الصناعة الوطنية وتقاطع اليابانية خاصة ، وكذلك الهند ، أما سوق الحرير فأمريكا وهى تعرف بسرعة التحول فى الأذواق والأزياء عن سائر الممالك ، على أن المتفائلين يرون فى قرب اليابان من بلاد

الخامات والأسواق والاستهلاك في الشرق الأقصى ، وفي زيادة الثروة في استراليا وأمريكا . وفي نمو القوة الكهربائية في اليابان ما يقلل من تشاؤم ( ملتوس ) في خطر تكاثر السكان ، وإن كان ذلك لا يتم إلا على حساب شخصيتها القذرة ، وعاداتها الجذابة التي سيقضى عليها اندفاعها وراء التقدم الصناعي ، والعمل على توحيد استهلاكها مع الاستهلاك العالمي كله .

ويتساءل الكثير عما إذا كانت للدينية الغربية مستكسح تقاليد اليابات ونظمها ، ونحن نلاحظ أن روح الإقطاع لا تزال تسود النظم السياسية ، وأن النظام الاجتماعي والاقتصادى سيظل شرقياً بتحوير بسيط ، فدعائم المدنية لا تزال هناك شرقية بحتة لأن اليابان لا تتق بفلسفة الغرب وأخلاقه واجتماعياته ودينه وسياسته ، ولا يزال الناس يحافظون على مساكنهم وملابسهم ومعابدهم وألعابهم ، ومن أحبا لليسهم : المصارعة التي ورثوها عن آباؤهم والتي يتمرن عليها الجميع حتى السيدات وتعد لها الحفلات الرسمية ، أما طرق اللواصلات ونظم المدارس والصانع والمصارف وما إليها فأضحيت غريبة بحتة ، لذلك نلمس هناك التصادم بين الدينيتين في أشياء كثيرة .

وهذا التناقض الذى يجمع به اليابانى حسن النوق وتقدير الجمال إلى جانب القدرة الإنتاجية المادية هو الذى يحار فيه الغربيون ، فكأن اليابان تريد أن تحترم حاضرها وماضيها معاً وترغب في أن يحترمها الغرب كدولة عظمى دون أن تتنازل عن شخصيتها الماضية .

---

في سنة ١٩٢٨ قدرت شراقتى الحرير بنحو ٥٥ مليون جنيه ، والحرير الخام ٨٥ مليوناً : ٧٠ في المائة منه يصدر ، و ٥٠ مليون جنيه منسوجات حريرية — غزل القطن أقل نشاطاً من نسجه ، ومع ذلك يستفد بنحو ٥٠ مليون جنيه من القطن الخام سنوياً ، وهو أرخص من الانجيابزى ، لأن مصانعه أحدث نظاماً ، ولأنه في يد أربع شركات كبيرة غنية ، تشتترى الخام كلها لأمها الثمن وساعدها انخفاض أجور العمال وأجور السفن اليابانية التي تعاونها الحكومة بالمال ، وثقله الوسطاء ، وطول ساعات العمل ، فالعامل تشتغل ١٧ ساعة في اليوم على دفتين ،

ولقد كانت اليابان حكيمة في نقل عناصر تقدمها ، فهي لم تعتمد على دولة معينة ، بل استمدت للمونة من عدة دول كل فيما امتازت به : فالجيش نقلته عن فرنسا إلى سنة ١٨٧١ ثم عن ألمانيا لما ظهر لها فضل الجيش الألماني على الفرنسي ، والأسطول عن بريطانيا ، والنظام المالي عن أمريكا أولاً ثم عن فرنسا وألمانيا آخراً ، والسكك الحديدية عن إنجلترا ، والنظم السياسية عن ألمانيا ، ولعل ألمانيا هي أولى الدول التي نقلت اليابان عنها لأنها أقرب الدول شهاً باليابان وبخاصة في النظام الاجتماعي والسياسي ، نخس من ذلك القدرة على التنظيم والتعاون فلقد كان للحكومة في الملكيتين سلطان كبير ، وكلاهما له تقاليد عسكرية خاصة ، ونساء القرعيتين بينهما شبه قريب ، ولقد نقلت الفنون عن فرنسا ، ويظهر أن الجنس السكسوني يحتاج اليابان اليوم في التعليم والتجارة ، واللغة الإنجليزية المنتشرة في أسواق الشرق وفي شرائط السينما التي يرد غالبها من أمريكا ، وفي كثرة المبشرين من الأمريكيان ، على أن الدعاية للدين المسيحي ليست ناجحة لأن الياباني يرى في الغربي شخصاً غير متدين لا يتورع أن يرتكب الخطايا جهاراً ، فهو في نظره مستهتر بدينه وهم يرون في دينهم خيراً ، فهم لا شك أكثر من المسيحيين عطفاً على الغير ، وتضحية للصالح العام ، وتسامحاً في الخلق ، وتقديراً للجمال الطبيعي الإلهي ؛ أما الأوروبي فصادق نظرياً ، مارق عملياً . ويرى البعض أن اليابان هي الدولة الوحيدة التي تجمع بين الطهارة والجمال ، هناك ترى حب الجمال إلى مستوى ذوق ممتاز ، وهناك يقوم الولاء للعشيرة إلى جانب تقدير المسؤولية الاجتماعية فهي الدولة الآسيوية الوحيدة التي صدت عدوان الغرب عنها ، وأعدت نفسها بوسائل الدفاع الحديثة بدون أن تضعي تقاليدها الاجتماعية أو السياسية ، وهي الوحيدة التي أجادت فهم الحضارتين : الشرقية والغربية ، وألفت بين الشرق والغرب ، فباحذا لو نسجت مصر على منوالها فهي أقرب إلينا من نواحي عدة ، فلنوفد إليها طائفة من طلبتنا وتجارتنا لدرس الوسائل الاقتصادية والخلقية التي كانت خير عون

لهم على ذلك التقدم العجيب . ويظهر أن تيار المدنية والرقى والاساطان متجه اليوم نحو المحيط الهادى ، وأن سيكون نهياً مقسماً بين اليابان وأمريكا إن هما تعاونتا ووثقتا عرى الصداقة بينهما .

**الخلق القومى والنظام الاجتماعى :** كنت أعجب كثيراً كلما ناقشت أجنبياً لاقيته فى اليابان أو فى طريق إليها إذ كان يكيل التهم لليابانيين ويرميهم بالنزعة الحربية والغدر وحب المادة والتجرد عن الضمير ، وبعضهم كان يرى فى نزعتها الحربية أكبر الخطر على العالم ، والغريب أن بعضهم كان يعد إخلاص اليابانى الشديد وتغانيه فى عمله بنشاط فائق — خطراً على العالم ، على أنه تبين لى أن تلك التهم عارية عن الصحة : فالأجانب يسيئون فهم نظام اليابان الاجتماعى ، ذاك الذى نفهمه نحن المصريين على حقيقته لقربه من نظامنا ، فثلاً إذا ما أردت أن توجه قدراً لأحدهم يجب — طبقاً لأدبيهم — ألا تصارحهم به فى شكل جارح لأنهم يعدون ذلك خطأ من شأنهم ، فالواجب أن يوجه النقد تليحاً وفى تمبير رقيق ، أما صراحة الغربيين فتمد هناك جفاء وغلظة ، وإذا ما أردت أن ترفض لأحدهم طلباً أو تباثه خبراً سيئاً يجب أن تصوغ ذلك فى عبارات رقيقة ملفوفة التعابير ، حتى فى الأعمال التجارية ، ومن هنا كثر سوء التفاهم بينهم وبين الأجانب ، فكلالهما يتهم أخاه بالنقص الخلقى ، إلى ذلك يضاف أن أغلب الأجانب الذين كتبوا عن اليابان لم يخبروا إلا سكان السواحل وهؤلاء قد أقسدم اقرباهم بسفلة الأجانب فهم لا يمثلون عامة اليابانيين ، يؤيد هذا أن اليابانيين كانوا يعدون طبقة التجار منحلة فهم ليسهم دون طبقة العمال والزراع لقساد خاتمهم بسبب احتكاكهم بأولئك النزلاء من الأجانب الذين كانوا ساقطى الأخلاق ، ومن أسباب سخط الأجانب عليهم سرعة تقايدهم لمنتجات الغير ولشاراتهم التجارية ، ولإدخال الغش أحياناً على بعض السلع ، على أن ذلك يكثر فى بدء التطور الصناعى لكل أمة ، وقد كانت أوروبا كلها

كذلك عقب الانقلاب الصناعى ، وقد بدأت الحكومة اليابانية منذ الحرب الكبرى تراقب السلع الصادرة لدفع تلك التهم فشككت لجائناً لتحصن الصادرات ، ولا يصح اتهام عامة اليابانيين بالخيانة والنش ، فكثيراً ما كنت أرى حانوتاً تركه صاحبه مفتوحاً تعرض به السلع وعليها بطاقات الثمن فيعجى المشتري وينتقى ما يشاء ويضع الثمن فى صندوق مغلق بدون محاسب ولا رقيب . ومن أخلاق اليابانيين أنهم يفضلون سرعة التراضى والاتفاق بين للتخاصمين ويشورون ضد من يتسكك بمطلبه للنهاية حتى ولو كان عادلاً ، وذلك أثر من آثار استنكارهم للمعاجبة القارصة والمصارحة الجافة عكس الأوروبي الذى يصصر على حقه كاملاً للنهاية وبكل جرأة ، فاليابانى شب قادراً على اخفاء مشاعره وميوله تحت وجه باسم هادى ، لأن الظهور بالوجه المقطب كائناً ما كان الباعث عنوان فساد التريبة لئيم ، وهذا هو الذى جعل قدرتهم على ضبط النفس فى حالة الغضب وعند ما تلحقهم إهانة مضرب الأمثال ، ومن هنا جاء احتقارهم للأجانب الذين يعرفون بسرعة التهيج والغضب ، وبخاصة بعد ما أثر عليهم جو آسيا المجهد الذى جعلهم عصبيين لحد كبير . أما أدب اليابانيين فلم يختلف فيه أحد ، فلا يمكن أن يلفظ أحدهم بالشتائم ولا يلجأ فى حديثه إلى الحلف والقسم بل يعلم منذ نشأته لغة التأدب الشديد ، فلا يقول مثلاً : ( أنت ) بل ( المحترم ) ، وبذل أن يقول لك ( ادخل البيت ) يقول ( تنازل وشرف منزلنا الذى هو دون مقامك ) وإذا قال ( اجلس ) آثر عليها ( تنازل لتستريح وتستمتع ) . على أن الأجانب يدعون بأن أدبهم هذا ظاهرى ليس غير وكأنه أدب القردة ، ويستدلون على ذلك بساوكهم الذى يظهر فى اللقاء وقطر سكة الحديد وفى معاملتهم للسيدات وفى تدخلهم بالاستسلام عن كل شئ للدرجة هى الفضول بعينه ، لكنهم لو أنصفوا لعلموا أن تلك عاداتهم التى لم يفهمها الغربى ، فكيف لنا أن نعيب على اليابانى مثلاً أن يرتشف الشراب من الكأس بصوت ينفر الغربى من سماعه أو أنه لا يقف للسيدة بل للطفل





( شكل ٩٦ ) أدب اليابانيين أضحى مضرب الأمثال وتلك  
الانحناءات واجبة ومتبادلة

والرجل السن — وهو أقرب إلى المقول — وقد كنت ألاحظ في الترام أن  
غالب الواقفين من النساء ، ولا يصح أن يقف الرجل للمرأة بل بالعكس رأيت  
رجلا دخل العربة فسلم على صاحب له كان يجلس بجوارى وإلى يساره سيدة.  
يغلب على ظني أنها زوجته فوقفت هي وتنحنت له عن مكانها فجلس بعد أن  
شكرها وظلت هي واقفة .

ويصعب جداً على الغريب أن يعرف الياباني حق المعرفة لأنه حذر جداً في  
معاملة الأجانب فهم يستقبلونه بأدب ورقة وعطف لكنهم لمن يتقبلوك قط  
كصديق ، ولعل ذلك أثر من آثار عزيتهم في جزائرهم النائية عن العالم كله ، وتلك  
صفة تلاحظ في أهل الجزائر عموماً وإلى حد واضح ، إلى ذلك أثر عصر الانقطاع  
فيهم ذاك الذي كانت تأتي فروسية أهله أن يظهر ما تمكنه أفئدتهم من مشاعر ،  
فالـياباني يكلم الأجنبي وهو يذكر أنه يمثل اليابان فيزيد حذره ، وساعد على ذلك  
اعتزازه الشديد بقوميته لا بل وقياته وأسرته التي يجب عليه احترامها اجتماعياً  
ودينياً ، ولقد خلف هذا أثره في ضعف الاستقلال الذاتي وقوة الابتكار ، ويزيد

فى ذلك ما يحوط الطفل منذ نعومته من الرعاية التى تجعله مدللاً حساساً لأقل المصارحات (بعض ما نعانیه نحن فى مصر) — وكذلك افتقار اليابانى فى تفهم الفكاهة والزحاح فهو يأخذ ذلك مأخذ الجد فى كل المناسبات لذلك شب رقيق الإحساس للدرجة تجعل النقد البرىء فى نظره إهانة ، فهم لا يحبون أن يقبلوا النصيح من الأجنبى مخافة أن يعد ذلك اعترافاً بالمعز من جانبهم . واليابان تعوزها تلك الروح الرياضية التى امتاز بها الانجليز والأمريكان على غيرهم ، وهؤلاء أقلر الشعوب على الجمع بين الخصومة الحادة فى القول إلى جانب الصداقة فى القلب ، أما اليابان فتعد الهزيمة حتى فى الألعاب الرياضية انكساراً مخزياً شائناً ، فكثيراً ماحدث فى المباريات الدولية للكرة أن انفجر لاعبوهم بكون بحارة لأنهم دحروا فى اللعب ، ويحاول نظار المدارس هناك ألا يشركوا أولادهم فى اللعب حتى يكفلوا فوزهم فيه (وهذا ما كنا نلغسه فى مصر إلى أمد قريب) .

ولعل أجل خلالم التضحية للصالح العام تلك التى يعرى إليها سحر تقدمهم خلال ستين عاماً ، فاليابانى أسبق الناس للتضحية بنفسه فى سبيل رفع شأن أمته وفى تاريخ اليابان مثل عليا ، لذلك نذكر منها حادث القارس الذى قتل زوجته وبنيه قبل الذهاب إلى ميدان القتال مخافة أن يتعاق بهم فى غيبته فتفتر قوة الدفاع فيه ، ثم حادث الجوالاة السبعة والأربعين الذين انتقموا لسيدهم ثم انتحروا لكيلا يمشوا بعده وفاء له ، ثم حادث الجنرال (نوجى) الذى مات وزوجته شرموة ليسجل احتجاجه على إغفال بعض بنى قومه تمسكهم بالتقديم وعلى جريهم وراء التجديد الأوروبى ، ثم حادث اليابانى الذى انتحر بقر بطنه أمام السفارة الأمريكية هناك ليرد الاهانة التى لحقت باليابان على أثر قانون تقييد الهجرة الذى أصدرته أمريكا سنة ١٩٢٤ ، وآخر ماحدث ماقرأناه فى حربهم مع الصين الآن من أن بعض جنودهم لف نفسه بالمواد المفرقة ليجرى بها إلى الأسلاك الشائكة فتنفجر وتنفسه هو والأسلاك كى ينفصح الطريق لتقدم الجيش .



أما جهم للجمال فشلى يبدو  
جلياً في مدائهم ودسا كرم ، ففى  
حفلاتهم وأعيادهم يدهش المرء  
تقدرتهم على خلق الجمال بأبسط  
الوسائل ، فصايعهم المنثورة  
وأوراقهم اللونة وأشجارهم المبعثرة  
مصدر جمال كبير . كذلك أوانهم  
الخشبية وأثاثهم وأرديتهم وماهى  
عليه من نقوش جذابة . كذلك  
زخرفة منازلهم رغم بساطة بنائهم إذ  
ترى الأرض تكسى بالحصر من

القش يزيناها في جوانبها إطار أسود ( شكل ٩٧ ) عروس فى زى الزفاف

وفى الحراب تعاق صورة متقنة الفن غالبية الفن ، وترى اليابانى يعنى بجمال المسكن  
ويهمل جانب الراحة فيه — على عكس الأوروبي — وكنت أعجب لهم كيف  
يطبقون للكث فى بيوتهم شتاء على وهنها وصغير الريح فى جوانبها ، وقمعة  
أخشابها طول الليل ، وحتى بيوت الطبقات الوسطى فإنها تكلفهم كثيراً بسبب  
المتانة بتجملها ، وهو لا يبالى أكانت مريحة أم لا ، لأنه شب متقشفاً ودرب  
على تعشق الجمال وتقديس الطبيعة التى يفهمونها حق الفهم ، ويقرأون فى الشجر  
والزهور والتلال معانى لا تفهمها نحن ، وذلك بسبب طبيعة أرضهم فهى حديثة  
العهد الجيولوجى ، ليس بها من جبال ولا سهول تمتد إلى قصارى مسارح النظر  
كلا ولا جبال مهشمة النرى بطيئة المنحدر . ففى البلاد الأخرى يقارب المرء  
الجمال والبحار تدريجاً ، لكن جلال الجبال وروعة المناظر تباغت الإنسان أينما  
سار فى اليابان ، فمن كل سهل أو وهدة هناك تبدو النجاد راتعة من كل جانب

مما جعلهم يترفون من النرى والقدران والجنادل والصخور الشئ الكثير ، وهم يندونها ملاحي\* للآلهة ، لتلك يحج الجماهير إليها في الصيف في أردية بيضاء ، وفي مساء ٣١ يولييه يروقت منظر آلاف الحجاج في ( الكيمونو ) البيضاء يقتسلون في البحيرات التي تحيط ( بنوجي ياما ) للقدس من أسفله . ثم يبدأون الصعود إذا خيم الليل ، ويد كل منهم مصباح مضئ ، فتبدو جموع المصابيح وكأنها عقود النجوم تتلألأ صمداً على جوانب الجبل ، وفي النروة يقترش كل حصيره حتى الصباح لاستقبال الشمس المشرقة . وفي البلاد كثير من أندية الحج يكتب فيها الكثير تشجيعاً لزيارة تلك الأما كن المقدسة ، وحفلات استعراض الزهور ، ومراقبة القمر من أمتع ما نراه في تلك البلاد .

ولقد ذكرت رحلتي في أوروبا العام الفائت تلك البلاد التي هجرت تقاليدها وعقائدها ، ولم يصبح للعادة بين أهلها من أثر فهم أحرار يأتون ما يروقه في غير قيد ، هناك كنت أرى الفرد مطلق الحرية يوكل أمره إلى شعوره بالمسؤولية الأدبية ، حتى أن حكومته لا تلزمه بالتجنيد إن أرهقتها الضرورة لتلك ، وتظل رهينة اختياره وتطوعه ، أما في اليابان فعلى النقيض من ذلك كنت أراها تحبل تقاليدها وتمسك بقوميتها التي تتلاشى أمامها حرية الفرد ذاك الذي يعد نفسه خادماً للجماعة خاضعاً لنداء الدولة في كل آن . فالعائلة أساس المجتمع ، وليس الفرد ، والعائلة حقوق على أفرادها واجبة الأداء ، وعلى الفرد أن يضحي صالحه الذاتي في سبيل الحرص على صالح الأسرة ، فهي التي تتصرف في زواجه وتعليمه ومستقبله ومن لم يخضع حرم حق الانتساب إلى الأسرة فينبذه جميع الناس ، ويكاد لا يوجد الولد العلق مطلقاً ، على أن زعماء الأسرة ليسوا مستبدين برأيهم بل الرأي شوري بينهم ، قراهم يقدون مجتمعاتهم لبحث ما يعرض لهم في هدوء ، والعائلة هناك تخفف كثيراً من أعباء الدولة لأنها تقوم بالفصل في شئون عائلية هي من نصيب الدولة في بلاد الغرب . ولعل أظهر ما يبدو الفرق بين العائلة اليابانية والغربية

في الزوجية وميول الإنسان الجنسية ، فالغربي يرى أن الحب أساس الرابطة الزوجية ، وعليه يتوقف صالح المجتمع كله ، لكن الياباني يرى أن هذا الحب لا ينطبق على المثل الأعلى فله خطره وأثره المثلث للدمر ، وهو يرى أن العلاقة الزوجية لا يصبح أن تبنى على رأى الفرد بل المجتمع ، فهي إذن ليست عملاً فردياً ، فالـياباني لا يرى في امتزاج القتيات بالشبان ذلك المعنى الذى يراه الأوربي وهو يحتقر ذلك فلا يرقص الذكور مع الأنثى ولا يختلطون بهن طويلاً ، وإذا اعتزم الزواج اختار له ذووه بعد أن يقصوا عليه نبأ الفتاة ، فإن قبل اتفقا على المواجهة ( Miai ) فى حضرة فريق من أقربائهما ، فإن أقرها أنجزت مراسم الزواج ، وإن لم توافقه فلماثلته حق الفصل فى الرفض أو إرغامه على القبول ، على أنه كثيراً ما يشق الصبي فتاة ، لكن ظروف العائلتين تأبى الزواج فيلجأ الاثنان إلى الانتحار ( Shinju ) . والغريب فى أمر الزواج هناك أنه بعد أن يتم فى العبد أو البيت يترك بدون تقييد رسمى لمدة سنة ، فإن ظهر عدم الوفاق خلاها صح الفراق إن رضى أهل الزوجين ، وإلا لجأوا إلى القانون — والطلاق يبيحه القانون — فإن رزقا بمولود خلال تلك السنة تبنياه إحدى العائلتين أو عائلة أخرى لم تعقب ، والتبنى شائع فى اليابان لضرورة وجود ممثل للعائلة إن أعوزتها القرية ، وأعجب ما يرى نظام التبني هناك بين الرجل وأكفأ موظفيه الذين يعاونونه فى العمل ، فهو يسارع إلى تبنيه كي يكفل نجاح العمل باطراد ، ولقد كان للعائلة حق فصل الزوجين رغم ما بينهما من إخلاص ، وذلك إذا تعارض هذا الحب مع صوالح الأسرة ، ولقد بطل ذلك اليوم ، لكنك ترى أثره فى احتقار القوم للزوج الذى يتفانى فى حب زوجته أو يرافقها فى ملهى عمومى حيث يصبح موضع تفریحهم وسخریتهم جميعاً .

وقد ينجل للغريب أن المرأة محتقرة هناك والحقيقة أنها فى دائرة اختصاصها أعنى تدبير المنزل وتربية النشء ذات سلطة مطلقة واحترام كبير ، أما فيما يختص

بالمعاونة العلمية والفكرية فليس لها نصيب لأن وظيفتها زوجة غسب عليها أن تطيع زوجها وتحترمه ، فإذا سارا في طريق لا يصح لها أن تتقدمه وليس لها أن تشاظره وإخوانه مجلسه بل تقدم إليهم ما يطلبون ثم تنسحب .

وعلى الرغم مما خلفه خضوع الأفراد لأوامر العائلة من ضعف الاستقلال وقوة الابتكار ، فإن هذا النظام العائلي يحتم أن يأخذ الكل بناصر من أصابه ضمير من أفرادها حتى ولو تطلب ذلك جميع أموال العائلة لأن عجزها عن اتخاذ أحد أفرادها خزي كبير ، لذلك لم تكن اليابان بحاجة إلى ملاجيء أو شركات تأمين ضد البطالة ، ولقد صرح للستر (سوزوكي) رئيس اتحاد عمال اليابان بأن رقابة العمال هناك قوية رغم افتقارها للرصيد المالى الذى تنفق منه النقابات فى ظروف الاضراب ذلك لأن الأعضاء يستمدون المال من عائلاتهم إذا ما أُضربوا ، وخير ما يبدو هذا التعاون عند حلول نكبات عامة كما حدث فى فاجعة زلزال سنة ١٩٢٣ حين تهافت جميع العائلات على تقديم المساعدة لئلا يهيم الذين كانوا يقطنون طوكيو ، فسهلوا بذلك وسائل الاقازد والتعمير ، فالعائلة مسند قوى لليابانى يكفل له بعض رخائه وهذا ما جعل اليابانى أقدر الناس على تنظيم التعاون على أساسه القويم وهو الشعور منذ الصغر بأنه جزء من المسؤولية الاجتماعية ، ويظهر ذلك النظام جلياً فى المدن والقرى وبين الهيآت الصغيرة وفى الأعمال التجارية والوظائف العامة ، فالموظف يشعر بأن العمل على انجاح المشروع الذى يخدمه من أقدس واجباته الاجتماعية ، وفى نجاحه فوز له وربح كبير من الناحيتين المادية والأدبية ، وقد كنت أمس ذلك بنفسى بين موظفى القنصلية المصرية فى كوبى إذ كان تقائهم فى العمل وانكبابهم على انجازه فائقاً كل حد ، وطالما كانوا يشغلون وقت فراغهم فيه رغم عدم تكليفهم بذلك ورغم مرتباتهم الضئيلة .

فاليابانى خاضع لرؤسائه الذين تجب الطاعة لهم ولأنداده لأنه فرد منهم ولأنهم دونه مقاماً مخافة الرأى العام ، فكثيراً ما يتنازل عن حقه مراعاة لذلك لأنه

يؤثر أن يحسن جيرانه الرأي فيه على أية فائدة مادية ، حدث مرة أن دعا أحد وجهاء قرية صديقاً أجنبياً ليقم عنده أياماً — وهم يكرمون الضيف ويقدرّون الوجهاء والمفضحة قدرّاً كبيراً ( يشبهوننا في ذلك ) — فكان كلما خرج في نزهة خلوية معه يتحاشى أن يستأجر من العربات أو السيارات ما يدل الناس على إسرافه في غير مبرر ، وكان يركب الترام إلى قرية أخرى لا يعرفه أهلها ، وهناك يستأجر ما يشاء من السيارات إكراماً لصاحبه وذلك مخافة سخط أهل بلده عليه ، كذلك حدث أن أثير غضب القوم على غنى أقام حفلات باهظة لعيد ميلاده فأمنت الجرائد في قده وعدوا عمله هذا جرماً اجتماعياً ، ذلك مثل مما يوقف استبداد الفنى بالفقير في اليابان رغم أن البلاد لا تزال تعوزها النظم الديمقراطية .

وينقد البعض خضوع الفرد وماله من أثر في قص الشجاعة الأدبية وقوة الابتكار حتى أن سخط الرأي العام كثيراً ما يوقف المصلحين أن يقوموا بالمشآت القيمة التي لم تلمس سذاجة الجماهير مزايها ومن هنا اختفرت اليابان إلى العطاء في الدين والفلسفة والآداب والعلوم ، ولقد زاد هذا الرباط الاجتماعي هناك الدين الشنتوى الذى يتلخص في عبادة الطبيعة وتقديس الأجداد ، فعبادة الطبيعة زادت استمساكهم بأرضهم وتقديس العائلة زاد الرباط القومى ، فهم يقدمون قرابينهم لمعابد الآلهة لتشارك أرواح الأجداد في استرضاء الآلهة ، ففي عيد اسمه ( أوبون ) في أغسطس يستقدون أن أرواح الأجداد تزور المعابد لذلك يجتمع حولها أفراد العائلة ويوقدون المصابيح والنيران ليمجّلوا مجيئهم ويشارك في العيد أفراد الديانات الأخرى لأن الأمر مرتبط بالأجداد ، وكذلك يذهب مياسرة السندات كل سنة إلى معبد هناك يزعمون أن الآلهة تدلم فيه على أسعار الأوراق الجديدة ، وفي إحدى المدارس الكبرى للبنات يصلى الفتيات لآلهة ( الأبر ) التي حطموها طوال عامين ، وقبل أن يبنى البيت الجديد يطهر التمسيس الأرض ويباركها ، كذلك تعاق اخوات السياسية الكبرى أمام معبد ( آلهة الشمس ) جدة الأسرة المالكة ،

وفي كل سنة يذهب رجال اللطاف إلى معبد (إيسى) الشهير ليتوسلوا للآلهة ألا يصيبوا البلاد بالحريق ، كذلك تراهم يحجون زراقات إلى ذرى الجبال لآلهة المياه والصخور وما إليها .

ولا تزال عادة تقديس الأبطال شائعة لديهم ، فمثلاً إذا ضحى رجل نفسه كي يساعد ذويه في كارثة نزلت بهم يعمده أهل القرية إلهاً حتى في مدة حياته إذا نجا من الموت ، فالجنرال (توجو) بطل الحرب الروسية اليابانية يعبدونه في إيسى ، وكثير من الناس يحجون لزيارة روح الجنرال (توجي) وزوجته الذين انتحرا سنة ١٩١٢ احتجاجاً على تقليد التريين بكثرة في اليابان وحتى (تا كامورى) زعيم ثورة سنة ١٨٧٦ التى قامت ضد الحكومة ، لأنها أدخلت النظم الحديثة الغربية ، يحمله القوم إجلالاً كبيراً .

والنظام الاجتماعى هناك أثر في ميلهم للآلفة والاجتماع ، ورغم أنهم حذرون في مخاطبتهم للأجانب وعند ما يرد موضوع اليابان في الحديث فانك ترى الواحد مخالطاً لجميع أفراد عائلته يقفون جميعاً على أسراره كلها ، لذلك كثيراً ما يتضايق الأجانب عند ما يفاجئهم بعض اليابانيين بالاستعلام عن أشياء شخصية أو عائلية لا تعنيهم قط ، وهم يعدون ذلك من قلة النوق ، مع أن الياباني يعده اهتماماً منه بشأن من يخاطب .

ولا يزال للطبقات عندم أثر عم التطور الذى حدث ، إلا أنك تعجب إذ ترى عطف المتأخرين على الطبقات الوضعية بالغا حده ، وكانت طبقاتهم أربعاً : رجال الحرب ويشملون الياييمو أو اللوردات والساموراي أو الفرسان ، ثم طبقة الزراع تليهم طبقة الصناع وطبقة التجار ، ولا تزال ترى في البطافات التى يملأ خاناتها نزيل الفندق فقرة لكتابة الأسرة وطبقته إلى اليوم ، وكانت هناك طبقة دوف هؤلاء جميعاً أتتبه بطبقة للنبوذين فى الهند تسمى (آيتا) ولا يزالون يحتقرون هناك إلى اليوم . ويظن أنهم فى الأصل سلائل الأينو وهم سكان اليابان الأصليون .





(شكل ٩٨) سيده من الأيو سكان اليابان  
الأوائل وهم كلفون تخفيف شفاعهم

ولا تزال منهم قية تمارس  
للهم الوصية من بينها  
الاشتغال بالجلود والدمع  
والسلخ والاعداء ، ولا يسمح  
لهم بالزواج إلا من طبقتهم .  
وكان لهم حاكم عههم يتصرف  
في شؤهم ، وسر دسهم  
هذا الدين البودى الذى يحرم  
القتل لذلك عدم يفتد اذبح  
أو الإعدام مجساً ، وهم يكترون  
في مقاطعات خاصة في الشمال  
اليوم ، وقد تصل مشاكتهم  
مع جيرانهم من الطبقات  
الأخرى حداً خطيراً ولا يزال

للمزارع عندهم في المرتبة الثانية كما كان قديماً وقد كان للمزارع يدفع صريية  
الأرض أرزاً ، وإذا وقع عليه حيف من الحاكم كان المزارع يوفدون جموعاً منهم  
للملافة حكام العواصم ( الشواجن ) على أن الوصول إلى أولئك كان متعذراً ،  
فكان بعض المزارع يتجاسر ويضحي بنفسه في سبيل رفع الحيف . حدث مرة  
أن ألقى أحدهم بظلامه في عربة ( الشجون ) مخترقاً الحشد في الطريق فأصدر  
الحاكم أمره بعقاب للتسبب في الظلم من الحكام أولاً . ثم أمر بصلب الرجل  
المتظلم هو وزوجته وأولاده عقاباً له على تجاسره هذا وردعاً لغيره ، وكان في قاتوسهم  
أن صاحب الذنب الكبير لا تنجو منه عائلته ! أما من اشتركوا معه في التذير  
فينفون من البلاد .

هذا مثل من نظامهم الاجتماعى الذى ظل فى سواده سداً منيعاً فى وجه عوامل التغيير رغم التطور المادى ، على أن الشباب اليوم مسرع فى طريق التحول وبخاصة منذ الحرب الكبرى ، ولقد شاطرت للمرأة الرجل فى الأعمال الخارجة عن دائرة المنزل ، ولعل أخطر شئ يهدد هذا النظام الاجتماعى المتين كثرة العمال فاشتغالهم فى المصانع يساعد على انحلال الروابط العائلية ، كما أن سهولة وسائل الانتقال ستزيل تعصب الفرد لبلده وتخفف من عصبيته لقرية التى ظل محافظاً على تقاليدها .

الى كوبي ثانية : عذرت أوزا كما مقر الثروة الصناعية الناهضة الفتية وعدت إلى كوبي وهناك زرت بعض متاجرها الكبرى التى يعلو شامخاً فى السماء وفوق سطحه جلسنا قليلاً بين فوارات المياه والحدائق المنسقة وهو شبه أخيه فى طوكيو ، وقت بجولة بعد الظهر فى ضاحية ( أريما ) ركبتا لها الترو زهاء الساعة وسط الرنى والمسائل ، والغابات تتخللها البنايات التى يؤمها القوم للاستشفاء ولذلك قامت بها الأنزال على اختلاف طبقاتها ، ويجرى تحتها جدول كثير الياث والجنادل ، ولا أنسى به مرأى شلالين متجانين أحدهما أظهر كبرا وهنا كان تراحم القوم شديداً لأنهما فى زعمهم يمثلان الذكر والأنثى ! وهنا قابلت أحد جماعة السوريين الذين يقيمون فى بلاد اليابان ، وكم كان دهشى شديداً لما أن علمت بأن جل التجارة اليابانية التى ترسل إلى مصر فى أيدى طائفة من هؤلاء تدر عليهم الأرباح الطائلة ، وكان أجدر بالمصريين أن يعيشوا بمدونهم للشراء والاستفادة بتلك الأعمال التجارية التى تنمو على مر السنين نمواً مضطرباً .

الى شيمونوزيكى : قمت من كوبي العاشرة والنصف صباحاً فوصلت إلى منتصف العاشرة مساءً . والطريق كله جميل تتعدد أنفاقه ويكاد يحاط بجانب شاطئه

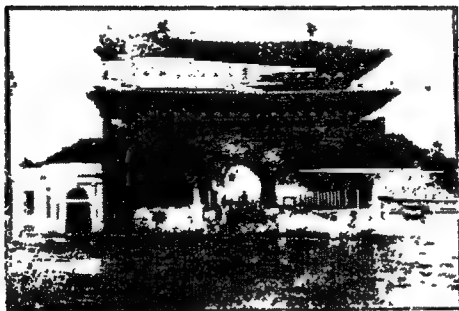


( شكل ٩٩ )

أشهر البوابات المقدسة في اليابان تتوسط مياه للد  
في مبد مياجيا

البحر في نصفه الأخير ، وكان  
مشهد الجزائر المثورة طوال  
الطريق رائعا بديعا ، وكانت  
تبدو القرى في الوهاد أقل  
نظافة ورقيا من بلاد الشمال  
وأهلها أكثر سمرة وأقل  
رقة ، وكان غالب التبت من  
الأرز والتوت القصير  
والخيزران والغابات ، وقد  
مال الجو هذين اليومين إلى  
الحرارة بعد أن كان جميلا  
متقطع السحب والمطر . وقد  
صلت أن موسم الحرارة  
المتوهجة قد أبطلأ قليلا عن  
ميعاده إذ يتوقف القوم في

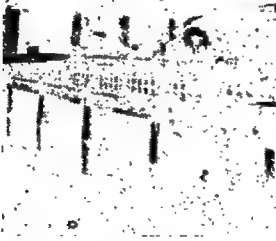
منتصف يولييه ، وقد كان ذلك التأخير من حظي ، وإن لم يكن من صالح الزراعة  
لديهم ، وبعد ثلثي الطريق مرزنا بمياجيا إحدى آيات الطبيعة الثلاث الساحرة  
على البحر الداخلي . بدت بوابتها الحمراء المقدسة وسط لحة الماء ، وهي أجمل  
برايات اليابان طرا ، رأيناها وقت اللد وكأنتها مبد ساحب والمبد نفسه فوق ذروة  
الجلبل به قبة من نحاس دونها موقد تعلوه نار لم يخذأوارها منذ ألف سنة ! وعلى  
مقربة منها الغريان المقدسة تصفق لها فتحيء فتأكل ما تقدمه لها وهي آمنة ،  
وقد بلغ من قدسية المكان أن الحكومة كانت تحرم بقاء المرضى وذوات الحمل به  
خشية أن يموت المريض أو تلد الحامل فيصيب المكان دنس أو رجس .



( شكل ١٠٠ ) بوابة ( نانداغون ) القديمة في سيول

دخلنا شمونوزيكى ليلا ومنها ركبنا البحر فى سباحة يابانية شبيهة أخواتها فى بحار دنمركة ، وظلت تمر بنا عباب بحر اليابان طوال الليل وكان هادئاً جميلاً ، لكنه فى الصباح فاجأنا بضباب كثيف أعقبه مطر وأبل واضطراب غير مألوف أفاق سير السفينة فتأخرت ساعة عن دخول مياه فوزان نفر كوريا الذى بدا ثغراً كثير الحركة ممدود الأرصفة عاصاً بالسكان يحكى ثغر بورسميد عندنا .

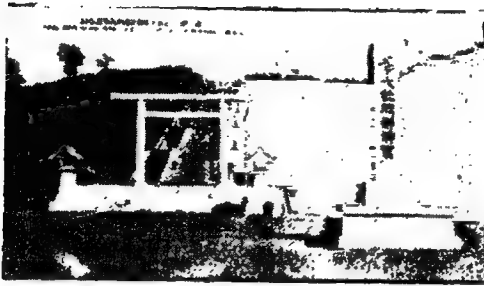
كوريا : ( وتسمى شوزن ) ومعناها أرض الصباح الهادىء : فام بنا القطار صوب سيول عاصمة كوريا تلك التى وصلناها بعد عشر ساعات كاملات وكان الطريق كله جميلاً مقبداً تفوق ذراه تلك التى فى اليابان لكنها أميل إلى الجذب إذ تكاد تكون عارية عن الشجر ، وكنا نرى مسامح ممتدة مهلة ، ويعزو اليابانيون ذلك إلى حكام البلاد الأوائل ، وتربة البلاد فقيرة على وجه العموم ، ويتخلل تلك الربنى وديان تتلوى فى المنحدرات عجيبية وتفيض بالماء ، وفى كوريا ستة أنهار عظيمة طامية تفوق تلك التى فى اليابان نفسها طولاً وعرضاً وغالبها يجف موسم الخفاف عند ما يقرب الشتاء ، وفى بطون تلك الوهاد تقوم



(سكل ١٠١)  
على سررة مقصورة الحملات في قصر سيول  
(كوريا)

القرى في أخصاص تتجمع في تراح  
كثيف ، ويبنى هيكلها من الخشب  
تكسوه طبقة من الطين ، والسقوف  
كأنها الأهرام أو النواقيس من قس  
الأرز ، وهي قفيرة قدره ، والطرق بها  
ردينة لا تخلو من الأحوال ، والبلاد  
عديمة السهول فهي في جبلتها وهاد على  
جوانب الوديات تزرع من الأرز  
والفول والتوت ، والفقراء هناك يأكلون  
القررة أما الأرز فلا أغنياء ، وأهل كوريا  
أطول فامة ووجوهاً من اليابانيين .  
وهؤلاء أخلاط لأن سكان اليابان  
الأصليين كانوا من الأقزام ، ثم جاء  
الأيينو وطاردوهم ولا تزال منهم بقية

في جزائر كوريل تناهز الألف ، وفي سخالين كذلك وفي هوكايدو تناهز خمسة  
وعالب الظن أنهم قوقازيون يعزز ذلك لوسهم الأبيض وشعرهم الغزير وهم زحفوا  
من الشمال ، أما من الجنوب فوفد على اليابان شعوب الملايو الذين يظهر أثرهم في  
نظام المساكن التي لا تزال تحافظ على هندسة الملايو ، وكذلك في ميالهم للاستحمام  
بالماء البارد ، وفي مهارتهم في السباحة ، وإلى هؤلاء يعزى صنف أسنان  
اليابانيين لأنهم كانوا ولا يزالون يأكلون هاهمة حصراء خضراء اسمها ( ييرم )  
وكانوا يخضبون الأسنان باللون الأسود تلك المادة التي كان يتبعها اليابانيون إلى  
وقت قريب — أما الأينو فمن عاداتهم إلى اليوم تخضيب انهم لا الأسنان — ومن  
الغرب جاء الفول عن طريق كوريا ( ومن هؤلاء تعلم اليابانيون الاغتسال بالماء الحار )



( شكل ١-٢ ) مبد شوزن أغر مابد سيول

ومن كل أولئك نشأ الياباني الحالي ، ويمرر الصلة بأهل اللايو عادة اختلاط الرجال بالنساء تلك التي تحرم في بلاد الصين ، كذلك أثرها في اللغة فاليابانية والكورية خليط من اللايو وغيرها ، أما لغة الصين فلم تتأثر بها قط ، وقد عثر الباحثون على كثير من مقابر شبه سويسرية في كوريا دون اليابان مما يعزز علاقة الكوريين بأوروبا ، ولقد ظلت كوريا بين نار الصين واليابان وتعرضت لغزواتهما المتتامة .

ظل القطار ينهب الأرض بين تلك الجبال المعقدة التي كان يشقها بأنفاق لا حصر لها ، وكان جو يومنا جميلا خفف من حره وابل المطر ، ذلك الذي يتأخر موسمه قليلا عنه في اليابان ، وغالب الجبال هناك حديثة العهد تمتد امتداداً طويلاً مما يؤدي خضوع البلاد للضغط الشديد الذي تسببه أغوار البحار التي لا تزال تزيد قوتها قوة الخفض عمقاً من حولها إلى اليوم . وأخيراً دخلنا :

سيول : وهي كلمة كورية معناها العاصمة ويسمى اليابانيون ( كيجو ) ومعناها العاصمة أيضاً ، والمدينة لا بأس بتنسيقها ، بها كثير من المباني الفاخرة والشوارع القيمة ، وإن كان خبر مراقبي سوقها الضيقة كثيرة الأضواء دائمة



( شكل ١٠٣ ) أزياء الرجل في كوريا وأجرب ما فيها قيعاتهم

الجلبة كأنها أسواق البلاد اليابانية ، على أنى بدأت ألاحظ أن ( الكيمونو ) أخذت في القلة إلى جانب تغير السحن والأزياء ، والأحياء الوطنية ضيقة قدرة تتصاعد منها الروائح المنتنة ، والصبية يلعبون بالأحوال ، وتعرض كثير من المأكولات في شكل تعافه الأعين من بينها شمام أصفر كأنه القشاش ، وخوخ كبير تعوزه الخلاوة ، وأمم بقايا سور المدينة القديمة بوابة ( ناندايمون ) أقيمت سنة ١٣٩٣ وكانت ترى بقايا السور وهى تهبط الوهاد وتعلو النجاد وكأنها سور الصين . ومما استرعى نظرى في ناحية من أمهات طرقاتها ناقوس عظيم ظل مهلقاً في مكانه هذا تحت غطاء من خشب في الهندسة الصينية زهاء ٥٤٠ سنة ، وكان يلق في باكورة الصباح فتفتح أبواب المدينة ، وعند المساء فتوصد وبعد الساعة التاسعة مساءً يسرع الرجال إلى إخلاء الطرقات للنساء كي يتريضن . والويل من تخاف منهم ، وإمل أجل ما هنالك :

القصر الشالى : شيد خلال القرن الخامس عشر ثم احترق خلال الحرب اليابانية سنة ١٥٦٣ لكن أعيد سنة ١٨٥٠ بأمر الأمير ( تايون كون ) الذى أقتل كاهل الناس بالعمل ودفع الضرائب لإنجازه ، ويحيط به سور من حجر وخشب فى الخطر الصينى الجليل ، وفى وسطه تنتشر المقاصير الأنيقة وأجملها ثلاث : مقصورة العرش ومقصورة الاجتماعات ومقصورة الخفلات ، وهذه تتوسط بحيرة تصلها بالبرقناطر جذابة ولذلك سميت أحياناً بمنزل الصيف ، وفى حديقة القصر سفك دم آخر ملكة لكوريا سنة ١٨٩٥ وأحرقت جثتها ، وبجوارها للتحف التاريخي ويحوى مجموعة صغيرة من آثار كورية القديمة ، من حلى وأواني وأسلحة وتماثيل ، وأهم معابد المدينة :

معبد شوزن : فوق ربوة مشرفة اعتليتها بسلم شاهق تحفه للصايح الحجرية ، والمعبد أقيم على النظام الشنتوى ، ويبدو منظر المدينة من دونه رائعاً لأن ( سيول ) كلها فى وهدة تحيطها الرى ويطوق زهاء نصفها نهر هان الصغير يطل عليه متنزه ( نانزان ) الجليل ، ومن البانى التى يفاخر بها اليابانيون دار الحاكم أقيمت من رخام كوريا المجزع بديع النقش ، وكذلك دار البريد ودار البلدية .

وأول من اتخذ المدينة حاضرة له مؤسس أسرة ( يى ) فأحاطها بسور اشتغل فيه ١٩٠ ألف عامل لمدة شهرين فى الربيع ومثل هذا العدد من النساء فى الخريف حتى بلغ امتداده خمسة عشر كيلومترا وعرضه ستة أمتار وارتفاعه كذلك ، وما فتئت المدينة تتضخم حتى ناهز ساكنوها اليوم ثلث المليون ، وهم أخلاط من الكوريين واليابانيين والصينيين ، وأظرف ما يسترعى نظر السائح أودية الرجال والنساء ، فالأحذية من قماش أبيض يتلوى طرفها المدبب إلى السماء وجواربهم يبيض يعالوها ( بنطلون ) وصدار للرجال وقد يرتدون فوق ذلك كله عباءة من قماش جامد متفتخ بما أشيع من ( النشا ) ورداء النساء كذلك ويزيد حزام ضيق





في وسط الجسم . وقبعات الرجال مضحكة منفرة فهي أشبه بقمع أسود مقصوص من أعلاه ، وله حافة قصيرة كأقريز القبعة ، وتحتة قلنسوة تلبس بحكمة في الرأس فتبدو القبعة نفسها ولا تكاد تستقر فوق الناصية لولا شريط يربطها بما تحت اللحية ، والرجال السنون يطلقون لحام وشواربهم في شعرها الخفيف الذي يطول فيتدلى إلى جوانب القم وترسل اللحية مدية الطرف مما يزيد أشكالهم سخرية ، وقد

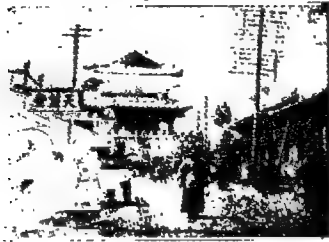
( شكل ١٠٤ ) حناء كورية في رداؤها القوي كانت هذه أردية اليابان من قبل أن تظهر الكونو بشكلها الجذاب .

الى منشوريا : منشوريا قطر شاسع تقارب مساحته مساحة القطر للمصرى بصحاريه أو نحو ثمانية وعشرين مرة قدر مجموع أراضيها المنزرعة ، وترتبتها من أخصب أراضي الدنيا وهي أكثر بلاد الشرق الأقصى ملائمة للزراعة إذ لا تقل الأراضي الصالحة للزراعة عن نصف مساحتها ، أي نحو سبعين مليون فدان ، وأخص ما ينمو هناك اليوم نوع من الفول اسمه ( صويا ) عظيم المادة الغذائية ( ٤٠ ٪ بروتين ) ولزيته قيمة كبيرة . وقد فاق الصادر منه أخيراً مليون طن في العام ، ومن الفلات الهامة الحبوب الأخرى والبطيخ والكتان والخير ، ومراعها لا تقل عن ١٥ مليوناً من الرؤوس ، وغلاتها تكسو ٢٥ مليون فدان ،

هذا إلى دقاتها المدنية الهائلة ، فالفحم يمتد في طبقات سمكية وبعضها يعلو إلى سطح الأرض ، ويعمل المعدنون فيه في الهواء الطلق ، ولقد كان لسكة حديد منشوريا أثر عظيم في بدء التقدم الاقتصادي في تلك البلاد الغنية التي أنحمت مطمح أنظار كبار المولين من اليابان وأمريكا .

وها نحن نرى ماجرته المطامع من حروب لا تزال مستمرة إلى اليوم ، ومجموع سكان البلاد ٢٥ مليوناً ، تسعون في المائة منهم من الصينيين ، والنقود الصينية هي المتداولة في أنحاء البلاد عدا المنطقة اليابانية على طول الخط الحديدي وفي مكدن العاصمة حيث تستعمل النقود اليابانية والكورية .

ولا نعلم عن ماضي منشوريا البعيد شيئاً سوى بعض الفارات التي كان يشنها القبائل تباعاً هناك ، وفي سنة ١٢٦٠ ضم جنكيز خان البلاد للصين وزاد نفوذ المغول وأسسوا دولة المانشو ، وفي سنة ١٦١٦ قام أحد أبنائها (نولوهاشي) وفتح مكدن وحارب الصين ، ثم جاء خلفه ففتح كوريا وسمى أمرته (تسنج) أي أسرة الأصفياء ، أعقب ذلك اضطراب في الصين ، لم يسعها إزائه إلا أن تطلب معاونة المانشو الذين فتحوا بكين وآل الملك إليهم سنة ١٦٤٤ وظل في أيديهم ٢٩٦ سنة ، على أن التزم الصيني ساد أهل منشوريا بحيث لا يكاد يفرق المرء اليوم بينهم وبين الصينيين في السحن والعادات والأخلاق . وفي القرن التاسع عشر امتد النفوذ الرومي إلى المحيط الهادى وأقيمت سكة حديد سيبيريا إلى فلاديفستك وعلى أثر حرب الصين مع اليابان تدخلت روسيا ومنحت امتيازاً بمد سكة حديد شمال منشوريا وقطعة من كواتونج ، وبعد ذلك بعشر سنين هزمتها اليابان فتنازلت لها عما تملك فأُنحى مالايايان اليوم هناك ١٣٠٠ ميلاً مبرعاً ، يضاف إلى ذلك منطقة السكة الحديدية إلى پورث أرثر ودايرن إلى أجل ٩٩ سنة ، وللشركات اليابانية هناك من السكك الحديدية ٦٨٦ ميلاً إلى ذلك كثير من الفنادق والمصانع والمنشآت الاقتصادية ، وهي بحجة المحافظة



(شكل ١٠٥)

البوابة الرئيسية في مكدن عاصمة منشوريا

على كل أولئك تبرر موقفها ضد الصين في النزاع الذي هزم عنه اليوم .

قت إلى مكدن عاصمة منشوريا فوصلتها في ثلاثين ساعة وخلفت ورأى سيول بأزيائها المختلفة من يابانية جذابة وكورية مضحكة وصينية منفرة ، فأخذ القطار يفتقر اتفاقاً لا حصر لها

وسط جبال معقدة تشقها الوديان تكسوها الخضرة ، وكان يظهر على أهل البلاد الجهل المطلق والفقر المبيد في قنارتهم وكثرة السابلة والمتساوين ، وكنا كلما قاربنا منشوريا انفسحت السهول وظهر نبات النرة والقول ونادر الشجر ، ولم تحدد تضييب الجبال عن الأنظار إلا قرب مكدن حين أختت المناظر شبيهة بمنظر مصرنا الغالية ، والسكان هنا أندر منهم في كوريا وفي كوريا منهم في اليابان يؤيد ذلك قلة القرى والمساكن التي كنا نجوزها ، وبمجرد أن اجتزنا الحدود عند (شنجيشو) أخرنا ساعاتنا واحدة كي تتمشى مع زمن الصين ، وهنا أقبل رقباء الجمارك وقبشوا الحقايب في رفق ثم عبرنا نهر (يالو) وهو الحد بين القطرين وبدأت بيوت منشوريا بالحجارة والطين ، أما الخشب فنادر لتدرة الشجر هناك والمروج لمرعى الخيول والماشية مترامية ، وكان بعض القوم يحرقون الأرض بمحاريث تجرها الأبقار على الطريقة المألوفة في مصر وأخيراً عبرنا نهر كونيانج من أكبر أنهار منشوريا ثم دخنا :

مكدن : ويسمى اليابانيون ( فنجين ) يفوق سكانها مائتي ألف وهي ثلاثة أقسام البلدة الحديثة أو اليابانية وعددها ٩٠٠٠ وقد أقامتها اليابان على مقربة ( ١٢ — آسيا )

من محطة سكة الحديد التي أرعمت الصين على تركها لها بعد الحرب الروسية هي وما جاورها من الأرض وتليها شرقاً المستعمرة الأجنبية وتعدادها ستون ألفاً وبها مساكن الأجانب وعالم القناصل وإلى شرقها المدينة الصينية القديمة بمحيطها سور عظيم له بواباته الصائبة التي لم تفتح أبوابها للأجانب إلا سنة ١٩٠٦ وهي مسقط رأس أسرة المانشو التي سادت الصين لمدة ٢٩٦ سنة حتى دامت اليوم على أنقاض الجمهورية الصينية وما قد أعلنت اليابان الجمهورية في منشور ما تحت حمايتها وترأسها امبراطور الصين السالف من ثم ذلك سبباً ما انفتح المجال أمامها لاستقلال تلك البلاد الترابية وبوسط المدينة قصر عظيم الامتداد في هندسة صينية ، وفي داخله متحف حوى بعض مخلفات تلك العصور ، وطرق المدينة متربة قدرة ودورها واطنة متهدمة ، وهنا أذكر أنني هممت بأخذ صورة للسور ، وإذا بالجندي يقتادني قهراً إلى دار البوليس وبعد تحقيق طويل وحركة صاخبة في التلفون تركت لم عنواني وأفرج عني بعد أن أخذوا عهداً ألا أعود لانتصو يرقط ، وكان يخالي البوليس انجائياً ، فلما علم أني مصري تسامح معي كثيراً وذلك يظهر مبلغ قمتهم على الأجانب ، أما المدينة البابانية ففاخرة في مبانيها وطرقها ، وقد أضاءوا في أكرم ميادينها نصباً تذكاريّاً لاحتلال اليابان للكانت وتكاد تكون في هندستها وتماجرها وأصواتها بابانية حرفة ، حتى أسماء المتاجر وإعلاناتها تكتب بلغة بانية وهنا بدت النزعة الاستعمارية الجائرة التي تنتهجها اليابان ، أما شبان الصين لحاقون أشد الحق عليهم وعلى سائر الأوروبيين والأجانب ولم في ذلك الحق لأن بقاءهم لاشك يخذل عرتهم القومية وأظهر الأجانب في المدينة من الروس الذين يسهل مجيئهم عن سكة حديد سيبيريا ، وما راقى خارج السور برج صيني ( باجودا ) يرجع عهده إلى ألف سنة في اتى عشر طابقاً وهو مائل ونصف متهدم وترى على جوانبه بعض النمايل الزنية لبسودا وهي بارزة ، ومن الأماكن الجديدة بالزيارة مدافن أسرة لمانشو على رمية تكسرها الأحرار وأجلها مقبرة الامبراطور تانسونج



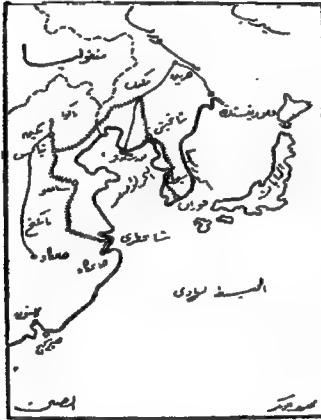
( شكل ١٠٦ ) سيدات مشهورا وأحب ما في ملاسهن رداء الرأس

ثاني حكامها يحوطها سور عظيم وفوقها نصب نقشت عليه فضائل الموتي . وتقوم على شبه سعيته من حجر نحتها المدفن . وحولها عدة مقاصير ونماثيل حيوانات مختلفة تشعر بالرهبة خصوصاً إذا دخلنا الباب الأول ثم ارتقينا . نه إلى اشاني ثم علونا إلى الثالث في مسافات متراصة .

والأحباء الوطنية قدوة تكسو طرقهم طبقات من تراب تنفوس فيه العجلات ويسور فيعلم كل شيء والنس في قدارة والأطفال حراة يعبثون بالآتربة والأحوال والماعطون في كل مكان وسيد الماقة تبدو على وجوههم جيماً والتسولون لا يحصون عدداً .

# الصين

## بلاد العجائب والأسرار الغامضة



### نبذة تاريخية :

لم يدون لنا التاريخ شيئاً عن الصين قبل سنة ٧٧٠ ق م لكما ظلم من طريق الرواية والتقاليد أن أبناء هان حلوا الموانج هو وقام عليهم زعماء أشداء علوم فلاحه الأرض ومبادئ الحضارة ، وفي سنة ٢٦٩٧ ق م أدخل امبراطورهم الكتابة واخترع الطباعة وعلمهم بعض أنغام الموسيقى ، ومد نفوذه إلى البحار الشرقية شرقاً وإلى

اليانج تسمى جنوباً وتبعه حاكين (تا-وق وستون-ق) أقاموا الأسواق وقاموا الفيضان ووسعوا نطاق الامبراطورية حتى أن كنفوشيوس قدسهما فيما بعد وعدهما مال الفضيلة والحكمة وعد هذا العصر الزاهر (عصر الصين الذهبي) .

أعقب ذلك عصر ارباب ومظالم تحت أسرة هسيا لمدة ٤٣٩ سنة تبعها أسرة شانج التي أعادت النظام بعض الشيء وحكمت ٦٤٤ سنة ، ثم جاءت أسرة شولي وسكت ٨٦٧ سنة ققام ووانج وقسم البلاد على أقبائه وقواده ومنحهم ألقاب سرف ، وازدهرت الفنون والآداب وأصبحت البلاد زراعية



( شكل ١٠٧ ) أمام مقصورة العرش  
في الدار المحرقة ( بكين )

وأتمحت آثار البدوكلية ، وهذا  
بعد عصر الأدب الذي اتخذ  
كنفوشيوس نموذجاً لئله العليا .  
كثرت عارات البرابرة فاستقامت  
الاقطاعات عن الحكومة الابراطورية  
وسادت الفوضى وعم الفساد ، فقام  
كنفوشيوس يبشر بفضائله سنة  
٥٥١ ق . م ، وكذلك لاوتسى  
ومنشيوس .

وفي ٢٥٥ ق م قامت أسرة شو  
فألغى الامبراطور النظام الاقطاعي  
وقسم البلاد إلى ٣٦ مديرية يديرها  
حكام يعينهم هو ، وهنا أقيم السور  
الأعظم ليرد البرابرة ، وقد أحرقت

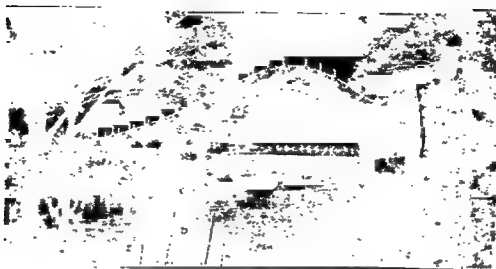
كتب الأدب وقتل مئات من أتباع كنفوشيوس لمعارضتهم لتلك السياسة ،  
فأهاج ذلك غضب الشعب ، وخاموا تلك الأسرة وأقاموا ( ليوانج ) مؤسس  
أسرة هان ، فازدهر الأدب ، وامتد سلطان البلاد . خصوصاً تحت الامبراطور  
ووئي ، وقد فتحت المواصلات مع الهند لأول مرة فدخلت انموية سنة ٦٧ .  
واستعبدت تعاليم كنفوشيوس ونقشت على الصخور وبدأ استخدم الداد والورق  
وأقيمت المكتبات ونفع كثير من العلماء ، وفي أخريات تلك الأسرة نار عليها  
ثلاثة قواد حكموا انبلاد وطوحوا بها إلى الفوضى وسعى عهدهم ( عصر الممالك  
الثلاث ) حتى جاءت أسرة تشن بين ٢٦٥ - ٤٢٠ . وفي عهد هان هان  
والروم البلاد وأوفد رسول من القسطنطينية إلى عاصمة الصين وقيل أن تسمية

البلاد ( الصين ) ترجع إلى اسم تلك الأسرة وهي أول من اتصلوا بالعرب والفرس والمهند وقال بعضهم ان الاسم محرف عن ( تسان ) أى الحرير أو أرض الحرير ، وأعقب تلك عدة أسرآت صغيرة ظلت ٢٠٠ سنة وآخرتها ( أسرة سوى ) وهي التي حفرت القنوات المدة لتصل بين الأنهار المختلفة ، وفي هذا الزمن نقل رهبان أوروبا صناعة الحرير لأول مرة إلى جنوب أوروبا ثم جاءت أسرة تانج ٦٢٠—٩٠٧ وثاني ملوكها نشر العدالة والعلوم وأصلح قانون العقوبات ورد جنوده البواسل هجمات البرابرة والأتراك ، وفي مدتهم امتدت الصين من بحر قزوين إلى المحيط الهادى ووقد السفراء من الروم والفرس واليابان وكوريا فانتعشت التجارة بينهم وقد شجعت الطباعة بالحروف نشر الأدب وبلغت الحضارة شأوها .

وتبع ذلك خمس أسرآت ضاعف جاءت بعدها أسرة سونج ( ٩٦٠ إلى ١١٢٧ ) فكافح أول حكامها ( تاي سو ) عشرين عاماً ليوحد البلاد وسمى عهده ( عهد أوغسطس الصين ) ولكن سرعان ما هاجمهم طوائف من التتار ( تشى تان ) وبعدم ( نوتشين ) ، ثم خضع الجميع لجنكيز خان الذى اجتاحت المديريات الشمالية برجاله البواسل من المغول فهد السبيل لحفيده كوبلاخان الذى أسس أسرة يوان سنة ١٢٦٠ وظل هؤلاء الأجانب حكام الصين لمدة ١٠٧ سنة فوظفوا كثيراً من الأجانب من بينهم ماركو پولو الذى أعطى أوروبا أول فكرة عن الصين وأخضعوا الصين كلها وكوريا وجزءاً من الهند الصينية وحاولوا فتح اليابان لولا عاصفة أودت بأساطيلهم . على أن الصينيين تخلصوا من هؤلاء الأجانب وأقاموا أسرة :

منج ( Ming ) ١٢٣٠ — ١٣٦٧ : التي أعادت النظام وعاضدت الفن والأدب ، ونشرت مذاهب كنفوشيوس حتى جاءت أسرة ( تشنج Ching ) من منشوريا تؤيد الأسرة السالفة لكنها سلبتها الحكم ( ١٦١٦ — ١٩١٢ ) ، واتبعوا نظم الحكم القديم حتى قامت الجمهورية سنة ١٩١٢ بقيادة الدكتور





( شكل ١٠٨ ) قنطر الصين الحديثة

( سان يات سين ) الذى أهاج الشعب ضد المانشو فقامت الثورة ولجأ المانشو إلى بكين ، وتركوا أمر الحكم للجمعية الوطنية . فانتخب الدكتور رئيس الجمهورية وأشرك الامبراطور وقائده يوان شى كاي فى الحكم . لكن بعد استعفاء الدكتور تأمر الامبراطور على استعادة مركزه ، لكنه فشل بفضل مقاومة الشعب من جهة ، والأجانب من جهة أخرى خصوصاً تدخل اليابان وتقديمها مطالبها الإحدى والعشرين سنة ١٩١٥ . وبعد موت يوان ( ١٩١٦ ) قامت الجمهورية فى بكين ، لكن الدكتور سان أقام حكومة معارضة لها فى كانتون ، وانضمت الصين للحلفاء فى الحرب الكبرى ( ١٩١٧ ) ، ونظير ذلك قاوم الحلفاء نفوذ اليابان فى الصين ، لكن حكومة الصين ظلت ضعيفة أمام القواد الحرييين الذين لا يزالون يقتتلون إلى اليوم ، على أن الحكومة الوطنية أوشكت أن تتم انتصاراتها ، ويزيد الشعور بالقوموية يوماً فيوماً ، والنفور من الأجانب بالغ أشده ، وهم يطالبون بإجلاء الأجانب كلهم عن بلادهم جميعها . ومن الحوادث التاريخية الهامة التى حدثت فى الصين حديثاً :

حرب الأفيون ( ١٨٤٠ — ١٨٤٢ ) : حين قاومت الصين دخول الأفيون

إلى بلادها ، فأنلقوا ٢٠ ألف صندوق في كنتون ، فتخرجت الحالة بينها وبين التجار ، ووقعت لذلك الحرب بين الصين وإنجلترا ، فهزمت الصين وأجبرت أن تدفع ستة ملايين من الريالات تمناً للأفيون و ١٥ مليوناً على سبيل الفرامة ، مع ترك جزيرة هنج كننج لإنجلترا ، وفي معاهدة نانكنج هذه أرغمت الصين على فتح ثغورها للتجار الأجانب ( خصوصاً كانتون وشنغاي وفوشو ) .

حرب اليابان ( ١٨٩٤ — ١٨٩٥ ) : قامت بسبب المناقصة على امتلاك كوريا ، وكان النصر حليف اليابان ، لكن الحلفاء وقفوا في سبيل مطالبها . عصيان الملاكين ( Boxer ) في سنة ١٩٠٠ قام الصينيون بطرد الأجانب الذين هددوا الوحدة الصينية ، إذ امتلك الألمان كياوشاو ، والروس پورت آرثر وداليرين ، وبريطانيا واى هاى واى و ٥٠٠ ميل في كولون تجاه هنج كننج ، وفرنسا كوانج شاووان ، تجاه جزيرة هينان ، فهاجموا الأجانب وحاصروهم لكنهم هزموا .

وفي حرب اليابان مع روسيا ( ١٩٠٤ — ١٩٠٥ ) احتلت اليابان سكة حديد منشوريا وضمت كوريا نهائياً .

الى بكين : ( ومعناها العاصمة الشمالية ) ، حلت الدرجة الثانية من القطار السريع فبدت قدرة منفرة غالب ركبها من الأجناد والرعا ، ومقاعدھا من خشب قاسٍ ممض ، وكان القطار يطيل الوقوف على جميع المحاط ، وكنا نرى صفوف الجنند شاهرى السلاح طوال الطريق وإلى جوار سائق القطار وعند مدخل كل عربة مما أشرعنى بأن البلاد تتحفز لحرب حامية الوطيس ، وهى تلك الحرب الطاحنة التى تدور رحاها اليوم فى تلك البقعة من منشوريا ، أما مناظر الطريق فظلت سهولاً طوال الطريق تكسوها منابت الذرة والقول ، وكلما أؤغلا فى البلاد زاد البؤس والشقاء ، وكنا نرى صفوفاً من اللتساوين يصيحون استجداء فى جلبة مزعجة كما وتنت القطار . وكاز يافت النظر استدارة أدمغة القوم ، تلك التى



( شكل ١٠٩ ) النش الرصع يسير في حفل كبير

بدت متحلرة الجباه مشطورة اخلف بدرجة تثير الدهشة . هذا إلى تباعد بصيلات الشعر الذى ينمو فى استقامة كأنه شوك القنفذ . ولذلك اضطر كل من يرسل شعره إلى استخدام الأدهنة اللينة حتى يبدو أملس راقا ، وتلك مميزات الجنس الأصفر المغولى .

وكم كانت تضايقتى كثرة البصق والتجشئ والتخبط فى كل مكان وبين كافة الطبقات فى شكل تشمئز منه النفوس ، كذلك الخشونة التى كانت تبدو فى طباع الناس ، وشتان بين آداب اليابانيين السامية وجفاء هؤلاء .

بكين : أو بييين ( Peipin ) كما تسمى اليوم . ومنها السهل الشمالى : بعد تمام أربع وعشرين ساعة دخلنا بكين عاصمة بلاد الصين بعد أن اخترقنا سورين من أسوارها الشائخة التى أقيمت من الآجر الأصمر الكبير ، وبدت بعض بواباتها الضخمة التى تتلاشى أمامها بوابة (زويلة والفتوح) عندنا . هنا أقفنى (ركشا) بحفائى إلى النزل لأنى لم أكّد أعثر على سيارة لندرتها فى تلك البلاد بسبب مزاحمة الإنسان فى الجرواحل لها . تفقدت خريطة بكين فإذا بها مدينتان

المدينة التارية والمدينة الصينية ، يفصل بينهما سور ضخيم ومساحتها ٢٥ ميلاً مربعاً ، يطلوقها سور من بناء أصم . سور المدينة التارية يمتد ١٣ ميلاً ، وعلوه ٣٧ قدماً ، وسنكه بين ٦٤ و ٥٢ ، أما الصينى فأصفر قليلاً ، و بين كل ١٨٠ قدماً شبه قلعة ، وتحترق الأسوار ١٦ بوابة ، يواجه كل بوابة بناء نصف دائرى تقوم عليه الأبراج السامقة بنوافذها المساحة ، وقد علمت أن كل مدنها تقام على هذا الأساس ، وهذا قسم خاص بالتار من السودين وهم للغير من سلاسل المانشو الذين كانوا يترفعون عن الاختلاط بالصينيين ، وهم الرعايا الذين كان عليهم أن يأتمروا بأمر التار ويلقبون ( بعبيد التار ) ، وعلى الصينيين أن يمتثلوا أهل المدينة التارية بالغذاء والصرائب رغم أنهم قد يبايعون المشركين ألفاً ، وقد عرف أولئك التار أخيراً بالحقول والكسل : فهم يحتقرون العمل ويرونه خاصاً بمن هم دونهم مقاماً من الصينيين ، لذلك كنا نرى بقاياهم يقتلون وقهم جلوساً أمام دورهم يدخلون غلايينهم ويد كل قفص يضم هوانه ( غيته ) المحبوبة من الخير ، حتى النساء اللاتي يسفرن في التدخين حتى في سن الماشرة ، وقد قيل إن متوسط ما تستهلكه السيدة من الطباق عشرون سيجاراً كبيراً في اليوم ، ذاك الطباق الحار القوي الذي يخلف أثره السوء في سحتهم وفي فساد رائحة أفواههم جميعاً .

ظل أهل الصين خاضعين لهؤلاء الدخلاء من سلاسل المانشو من التار خضوعاً غزياً يدل على انعدام روح المقاومة بينهم تلك التي نشطت قليلاً أوائل القرن الحالى وبدأت في شكل ثورة سنة ١٩١١ حين هاجمهم الصينيون وأبادوهم وذبحوا أبناءهم وتخلصوا من نيرهم إذ كانوا يعيشون عالة عليهم .

والمدينة التارية تقام في شكل ( حدوة الفرس ) تقديراً لخيالهم وتفاؤلاً بها لأنها مطيتهم التي أغاروا بها على البلاد لما أن وفدوا من صحارى القرغيز ونغوليا ويتوسط للمدينة عادة بيت القائد تؤدى الشوارع الرئيسية إليه ، وتنتشر حوله المساكن .



(شكل ١١٠)

على سلم معبد السماء أنخر آثار بكين

وفي بكين تتوسط المدينة  
التتارية مدينة أخرى يسمونها المدينة  
الأمبراطورية لها سورها الخاص .  
وكانت مقر الأسرة والحاشية وكبار  
رجال الدولة ، ومن داخل هذه أيضاً :  
المدينة المحرمة مركز الدنيا في رءسهم  
يتوسطها عرش التنين ذاتع الصيت  
ذاك الذي جلس عليه ملوك المغول  
والصين والمانشو على التعاقب وحولها  
سور من الخزف الأصفر البراق .

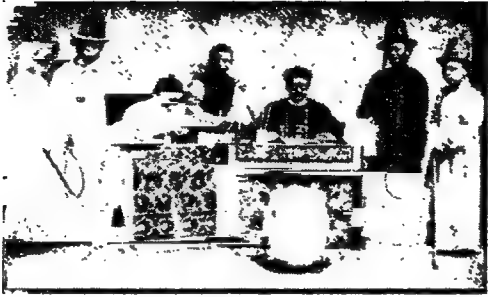
بدأت جولاني بالمدينة المحرمة  
ودرعا ٩٠٠ متراً في ٧٠٠ ، بواباتها  
الأربع التي تتفرق السور البراق  
تؤدي إلى مجموعة لا حصر لها من

مقاصير في الهندسة الصينية الجذابة ، تكسى سقوفها للنحدرة المقوسة بالخزف  
الأصفر ، ويتخلل حديقتها الفسيحة للتسعة قنوات عليها قناطر محدبة من رخام  
أبيض ساطع ، بناها الأمبراطور (Yonglo) في القرن الخامس عشر ، واتخذت  
مقراً للأمبراطور وأسرته وكانت محرمة على الجمهور حتى سنة ١٩٠٠ حين دخلها  
الأوربيون عنوة وأرغوا الصين على فتحها للجميع ، وأخر الحجرات : حجرة  
العرش وحجرة الولائم وحجرة العرض ، تتقدمها جميعاً الزدهات من الرخام ، نعلوها  
بسلم فاخر وفي قارب الغرفة الوسطى عرش (التنين) المشهور في خراط من الخشب  
المرصع والمقاصير الخلفية كلها كانت مسكن الأسرة والحاشية ، وهي اليوم معارض  
بها من النفائس الفنية القديمة ما قدر بثلاثين مليون ريال ، من بينها أشغال الخراط

المتأززة وتماثيل من أحجار كريمة وساعات مرصعة وخرط مطعم من العاج والخشب وحروف الطباعة القديمة وآلات موسيقية من بينها ( بيان ) كأنه ( القانون ) من أوتار سبعة يرجع عهده إلى ١٥٧٣ ثم مجموعة من أسلحة ودروع وسروج ، والمفروشات قيمة للدرجة تشهد للصين بالماضى المجيد وتخلد اسمها في عالم الفن ، وبخاصة أعمال الخرف رصعت بالمعادن . وازدانت بالجواهر في زخرف وإتقان لا يكاد يصدق العقل ، وهناك قسم للتصوير والنقش على الورق والحرير والخشب بعضه بالألوان والبعض بالتطعيم إلى كثير من المخطوطات الصينية القديمة ، ومما أدهشني معروضات الشبة ( البرنز ) التي ترجع إلى سنة ١٧٦٦ ق م . ورغم ذلك فهي تكاد تحكى إتقان عصرنا هذا .

وفي جانب من المكان حمام لخليلة الامبراطور Chiang Lung وكانت مسلة اسمها Hsiang Fei وهو شبيه بالحمام التركي مقبى السقوف تحوطه مقاصير متداخلة وكلها من الخرف البراق ، وبالإيجاز فللمدينة ساحرة جذابة الهندسة جديرة بسكنى الجبابرة الأولين ، وفي ركن من أركان المدينة المحرمة قسم كان يسكنه ( كوبلاخان ) نفسه ويسمى ( المدينة المستديرة ) ، وخير ما هنالك تمثال لبودا من حجر الشب ناصع البياض براق في حفر بديع وتقاطيع جذابة ويمد من الخلفات الفنية النادرة حتى قيل إنه وحده يبرر زيارة لبيكين من أقصى الأرض .

معبد كنفوشيو س : عظيم الرحاب وعديد المقاصير التي أقيمت للتعبد وطلب العلم والحكمة يتوسطها الهيكل وبه لوحة نقش عليها اسم كنفوشيو س أخص معبودات الصين وتحوطها في جوانبها ألواح أخرى عليها أسماء البراطرة الذين تعبّدوا طرّع تعاليمه وقد ألقت نظرى في للدخل تسعة طبول ضخمة من صخر البازلتية صنية منذ أسرة شو ( ١١٢٢ ق م ) ، وفي فناءه الشاسع بهو الحكمة



( شكل ١١١ ) عكمة صينية ويغف الجلادون إلى جانب المتهم تهديداً ولزهاياً

Hall of Classics بأعمدته الممتدة ، وهناك ترى بقايا كتب كنفوشيومس نقشت على ألواح الحجر .

وكنفوشوس فيلسوف عاش في الصين بين ٥٥٠ و ٤٧٨ ق م كثرت في عهده الجرائم وانحطت أخلاق الناس فقام يبشر بالتفضيلة على أنه لم يدع أنه مكاف بتبشير رسالة آلهية فجمع تقاليد أجداده وصاغها في قالب أدبي فلسفي ، وكان يعنى بصفة خاصة بالروابط الاجتماعية ويحتم تقديسها ، وكان يقول بأن المجتمع نظام آلهى يقوم على خمس : علاقة الحاكم بالرعية والزوج بزوجه والوالد بانه والأخ الأكبر بأخيه الأصغر والصديق بصديقه ، وكان يفرض في تعاليمه وجوب الطاعة في غير مناقشة وبخاصة في العلاقات الأربع الأولى كما يحتم على الحاكم العدل والرحمة والاخلاص ولم يشرف في تعاليمه إلى آله خاص ، وكان ينصح تابعيه أن يترفعوا عن التفكير في عالم الأرواح وألا يتوقعوا شيئاً في الدار الآخرة ولقد كان لتعاليمه كثير من الفضل على الصين من ناحية الأخلاق لكنه قتل فيهم الطموح والنظر إلى المستقبل وهو أس النهوض تخلف فيهم مدنية راكدة ظلت

أجبالاً ولم تخط إلى الأمام قط ، ولا زال أساس التعليم هناك يقوم على وصايا وكتبه الأدبية الفلسفية ، وكان ولا يزال يستظهره الجميع حتى الأطفال البتدئون ، على أن عهد الجمهورية الحديث بدأ يدخل شيئاً من التغيير على هذا النظام العتيق .

قصدت أحد المعابد البوذية واسمه معبد ( اللاما ) وهو أحد المذاهب البوذية التي يستمد الوحي من العبد الرئيسي في هضبة التبت ، وكانت قد حلت البلاد منذ أسرة ( يوان ) ، وكان القسس يابسون الأردية الحمراء لكن حولها براطرة ( المنج ) إلى الأردية الصفراء ، ومن هنا سميت أحياناً بالديانة الصفراء ، أما كلمة لاما فممنها ( سام ) في لغة التبت ، وأول ما ظهرت الديانة البوذية في القرن الأول الميلادي محاولة أن تتم النقص الذي أمهله كنفوشيوس وبخاصة جانب القيام بالشعائر وجانب الرجاء في ثواب الآخرة ، ولقد اعتنقها كثير من عامة الشعب وترى مبادئها في طول البلاد وعرضها لكنها عميلة والقسس فيها جملة يحتقرم الأغلبية وبخاصة الطبقات الممتازة ، وما هي في نظرم إلا الشعوزة بعينها .

دخلت المعبد — ويخالونه مقرروح بودا — فبدت مداخله رائعة ممتدة ، وتتوسط فناءه تماثيل لحيوانات بشعة غريبة ، وفي الوسط تماثيل لبودا نحت في جذع شجرة واحدة ، وعلوه ستون قدماً ، ورأينا كثيراً من اللباخر من الحجر والبرنز . ومجلة التبت النحاسية التي تدور بانتظام وتعطى أصواتاً في فترات متساوية يمكن المتعبدين أن يقرأوا أو رادهم وراءها ، وصادف أن كنا هناك الساعة السادسة مساء ، وهي ساعة الصلاة ، فرأينا جموعاً غفيرة من الأطفال والشبان والكهول يخرجون من سرايهم وعاليهم البساتين الصفراء ، وفوق رؤوسهم قبعات كأنها عرف الديك أو منقار الببغاء ، ثم أقبل رئيسهم وهم جلوس تحت أقدام بودا وأخذ يطوف بهم وبالتماثيل ويصيح صيحات مزججة وهم يرددونها وراءه في مشهد رهيب ، وأذكر بعد وأنا خارج أن أقبل قسيس يعرض على قطعة من حرير منقوشة ادعى أنها





( شكل ١١٢ ) أحد علة الصين مركب ( المركبا )

البت في شرائها خشية أن يراه أحد وهو زعيم دبري ! فقلت : يا لله ! إلى متى يعيش الإنسان في تلك الظلمات ! طائفة من الدجائين يحتمون تحت ستار الدين فيعيشون عالة على بسطاء العقول ، وهم السواد الأعظم من أهل البلاد ، وأخص ما يسترعى نظر علماء الاجتماع في غالب عقائد الصين أنها تقسم الطاعة العمياء لرجال الأدب وللمتقدمين في السن وبخاصة الآباء ، حتى عدت أرواحهم مقدسة بعد مماتهم ، فكان من سيئات ذلك أن هم كل فرد بالزواج المبكر كي يلد أكبر عدد ممكن من الأبناء الذين يحبون ذكره ويوفرون لروحه السعادة بما يقدمونه من قربانين ، ومن لم يستطع القيام بذلك لفقره وجب على الحسنيين أن يعينوه بما لهم حتى يستطيع أداء واجبه . ومن لم يعقب اضطر أن يتبنى من ذرية الغير ، لذلك كثرت ذراريهم إلى درجة جعت تنازع العيش بينهم ممضاً . ذاك التنازع الذي أدى إلى سياسة الابتزاز الموقوتة التي عرف بها أهل الصين جميعاً ، فكل فرد يحاول ابتزاز المال ممن هو دونه . وكان محال الرشوة لديهم في كل الأعمال فرضاً لازماً حتى ضاعت في سبيلها قوميتهم وقدرت حماسهم الوطنية . هذا إلى اعتقادهم في العفارية التي أثرت حتى في أبنيتهم فلا يصح أن يولد البيت جاره .

ولا أن تنام القناطر إلا ملتوية محدة ، وأن تلتوى السقوف في أطرافها إلى السماء ، كل ذلك دفعا للجن ، ولعل لذلك الخوف أثره في إهال التعدين ، خشية إزعاج الجن في بطن الأرض ، ويرمى الأجانب أهل الصين بأنهم أسرى مواتهم : فالولد يجب عليه أن يعرض التابوت الذي سيدفن فيه والده بعد موته في آخر ردهة من البيت ، ولا يفتأ يزيد فيه نقشا وترصيعا ، وكثيرا ما يستدين الولد كي يفي بهذا الواجب المقدس فإذا مات الأب اشترى له ماء الفسل من الخارج وارتنى المشيعون القماش الأبيض واستشير العرافون في تغيير ميعاد يلائم الدفن ، ولذلك فكثيرا ما تبقى الجثة في البيت طويلا ، وإن حل بالعائلة سوء عزوه إلى سوء اختيار مكان الدفن وميعاده وعندئذ يحمل التابوت عشرات من الناس يتقدمهم حشد يحمل كل لوحة نقش عليها ألقاب للتوفي ومزايده ويجب أن يكون مظهر الجنازة فاخرا مهما كلفهم ذلك وإلا كان عارا لا يمحى ، ومن أعجب ما لاحظته بين المشيعين طائفة تحمل طبولا تقرر بشدة وآخرون يحملون تماثيل بشعة لنساء ورجال تقرب من النعش لدفع الجن عنه ، أما النعش ففي لون أحمر براق تزينه أهداب القصب وترصيع الذهب الثقيل مما أذكرني بمادة أجدادنا الفراعنة .

على أن الصين أبعد الدول عن التدين والصيني معروف بعدم العصبيية الدينية وهو ضعيف الايمان والثقة بالآلهة ، لذلك يغيرها كل يوم لأنه يراها غير عادلة تنزل العقاب جزافا ولا تستجيب دعاءه وبلغ من احتقاره إياها أنه إذا تخاف المطر أوقف البخور لها وقد يضربها بالسياط أو ياقبها في النهر ، وكلما حات نكبة ببلدة ما اتهم آلهتها بالعجز فغيرت ، وإن انتصروا في الحرب مجدوا إله الحرب ، وأقدس آلهتهم إله الأدب ، وقد يخدع الصيني الآلهة فيقدم لها الورق للفضض والمذهب بدل النقود ! وكثيرا ما كنت أراه منغولما في حبال تعلق داخل المعابد ، حدوت مرة أنهم حملوا الآلهة وطافوا الطرق في وقت انتشار فيه الوباء ، فلما لم يند



(شكل ١١٣)  
سيعة صينية تفاخر بجمال أقدانها  
ولا تكاد تترن فوقها

ذلك أغرقوها ، واقترضوا أن بدء عامهم  
كان شؤماً فيجب تغييره ، فأقاموا حفلة  
بدء السنة من جديد . ويسود أذهانهم  
التفاؤل والتشاؤم ، حتى أنهم يحتاطون في  
الحديث خشية أن تبدو كلمة منفرة تتخذ  
نذيراً للشؤم ، على أن لديهم الذى يقدر  
فلسفة الأجداد فضلاً عليهم إذ ساعد على  
حفظ كيان الصين رغم ما أحاطها طوال  
العصور من عوامل الهدم والانحلال .

معبد السماء : وهو أغر ما رأيته  
في بلاد الصين جميعاً : عظيم الرحاب ،  
شاهق البنيان ، دقيق الهندسة ، تحوطه  
أسوار ثلاثة من خرف أزرق طول أكبرها  
ثلاثة أميال ونصف ، بنى سنة ١٤٢٠ على  
قسمين : معبد السماء ، ويقوم على مساطب

مدرجة دائرية الشكل ، ومن الرخام الوضاء يحوط كل درجة سياج بأسنان  
باسقة وفي وسط أعلاها يقوم المعبد من الخشب في شكل برج صيني ( باجودا )  
بديع الخط والنقش تكسوه قبة من خرف أزرق تقوم على أعمدة شائعة كأنها  
أعمدة الكرنك لكنها من خشب مطعم ( باللاك ) في إيقان عجيب جيء بها  
من أشجار ( أوريجون ) الأمريكية كي تحتمل عبء البناء السامق فوقها ، وفي  
وسطها موضع العرش تحوطه شواخص حجرية لذكرى تسعة من البراطرة والقسم  
الثانى يسمى مذبح السماء وهو كذلك فى ثلاث مساطب مستديرة من رخام

أيض قطر أسفلها ٢١٠ قدماً ، والمسطبة العليا مكشوفة للسماء وكانت تمثل قبة السماء ، وهنا كان يركع الامبراطور ويعترف بأخطائه شمبه ، ويرجو آلهة السماء لهم الغفران وفي وسطها كانت تقدم الذبائح وهذا المبد رائع الجمال ، فاخر البنيان ، للدرجة تجعل أثره في ذا كرتى خالداً وهو وحده خير مبرر لزيارتي للصين وتحوطه غابة كثيفة من أشجار الأرز يبلغ عمر بعضها ألف سنة .

**معبد الزراعة :** على مقربة من معبد السماء أقيم تذكراً للملك الخيالى ( شن نتج ) الذى حكم الصين منذ ٣٠٠٠ سنة ، ويخالونه أول مخترع للمحراث وحوله حقول شاسعة ، كان يجيئ الامبراطور بنفسه ، ويبدأ الحرتى في أوائل الربيع من كل عام وكلما أكل محراثه ثلاثة خطوط تبعه ولاية الأقاليم وألقوا فيها البذور على أن يد الزمان نالت منه كثيراً فلم تبق منه اليوم إلا أطلالا بالية .

ويين معبد السماء ومعبد الزراعة ردهة مترامية كانت ولا تزال تستخدم لتنفيذ حكم الإعدام فى بكين ، ويعرف الصينيون بالقسوة الشديدة فى تنفيذ أحكامهم ، فالإعدام عادة يكون بقطع الرأس بالسيف وكان اللص إلى أمد قريب يدفن حياً أو يحكم عليه أن يموت بالخنق الخشبى ، وهو آلة بها موضع للرقبة يوضع فى رقبة المجرم ، ومن تحته ألواح سمكة من خشب أو حجر يرفع منها واحد كل يوم فيعلق الجسد من الرقبة ويشحذها فتستطيل بقدر سلك اللوح الذى رفع وهكذا حتى يموت ، وكثيراً ما كانت تؤخذ العائلة كلها بجريرة فرد منها إلى سنة ١٩١١ ، وكان يحكم على بعض المجرمين بثلاثة آلاف جلدة ، ومن العجيب أن كل تلك القسوة لم تنتج أثراً فى تخفيف الجرائم . ومن أقسى العقوبات بعد الإعدام : الننى ، ذلك الننى يخشاه الجميع خوف الموت خارج بلادهم .

وما كان يروقنى كثيراً : مشهد الأحياء الوطنية من المدينة الصينية فى أزقة ضيقة . وطرق متربة غير مرصوفة ، يجوبها خلق كثير : صفر الوجوه ، شاحبو



( شكل ١١٤ ) ميلغ نشوه أقلام السيدات في الصين

الألوان ، منتفخو العيون ، مشطورو الرؤوس ، وتطل على تلك الطرق حوانيتهم وعليها إعلاناتها في شرائح من خشب أو ورق أو قاش تتدلى مستطيلة حتى تكاد تسد الطريق ، ولم أضواؤهم الخاطفة في الليل ، ويزينون واجهات الحوانيت بشبه أقواس كبيرة مذهبة في الخطر الصيني الجذاب ، والخط الذي يبدو وكأنه يقع ضخمة ذوات أهداب براقه ، وأنت ترى أقواس الطريق تقوم مشرفة من خشب صقيل في جميع طرقهم حتى الرئيسية . أما وسائل النقل فغالبا عربات ذوات عجلة واحدة في الوسط وقد تكون ذوات عجلتين ، يجرها في جهد كبير نفر من الناس متكاتفين والعرق يتصبب من جسومهم العارية بشكل يؤلم القواد ، ويسمونهم ( كولى ) ومعناها القوة النعسة ، ولكيلا يعطلوا المرور وسط الطريق — خصوصا الركشا التي يجرها الإنسان أيضاً — جعات لهم منطقة على إطار الطريق غنيرة الأثرية يسرون فيها وعجلاتهم تفوص بميداً ، هذا إلى الجالين الذين ترام يعلقون حاملين على طرفي عصي من الخيزران العريض فوق أكتافهم وكنت أعجب لمواهبهم كيف تطبق تلك الأثقال التي تحز في جلودهم حتى تدمى .

مناظر لا يخلو منها مكان في الصين كلها ، وكأن مزاحمة الإنسان لوسائل النقل الآلية التي كنا نراها في الممالك الأخرى قد كادت أن تحفيها ، ومظاهر الفاقة الشديدة بادية في كل شيء فلا يخلو طريق قط من جماهير للتسولين ، وعجبت لما أن علمت أن التسول هناك مهنة يمارسونها تحت نظام مرتبط كأنه النقابات وعلى رأس كل جماعة رجل شرس قوى الشكيمة يؤول إليه كل ما يجمعه أولئك البائسون ، والناس هناك يتصدقون على التسولين مرغين خشية أن يلحق بهم رئيسهم ضرراً في المال أو البنين ، أو يسلط عليهم رجاله لمضايقتهم بالتجمهر أمام بيوتهم فكثيراً ما يدبرون الخطة لسرقه متاع الغير أو لإشعال النار فيه ، وطالما فقا الآباء عيون أبنائهم فتأخذ المارة الرأفة بهم ويتصدقون عليهم .

ولقد أحدث انتشار الفقر والعوز في طول البلاد وعرضها أسوأ الأثر في أخلاق الناس فأفسدها وأنت تلمس انحلالها في كل مقام ، فلا أذكر أني ركبت (ركشا) مرة دون أنف يباغتنى سائقها قائلاً : أتريد بعض الغانيات من فتيات المانشو ذائعات الصيت جمالاً ! إلى ذلك جماهير السيدات اللاتي كن يسكن بتلابينا طوال الطريق إلى درجة المضايقة الشديدة ومنهن من لم يباغن الحلم وكأن الأجانب هناك بأخلاقهم الفاسدة قد جرأهم على ذلك الابتذال ، وطالما كنت أعجب للصغار من الفتيات يسرعن إلى طلباً للمعونة المالية وهن في هندام نظيف لا يشعر بالفقر أبداً ، كذلك كنت ألاحظ أنهم يميلون إلى الفس في كل شيء حتى في صرف النقود إذ كانوا يدسون لى بينها ما هو زائف بكثرة عجيبة ، وقد تمدى هذا إلى حكامهم وضباطهم وجنودهم فرفروا بالارتشاء إلى حد باعوا ماله ذمهم وذم وطنهم وهذا ميدان شجبه الأجانب بهم لم يثبتوا أقدامهم في تلك البلاد .

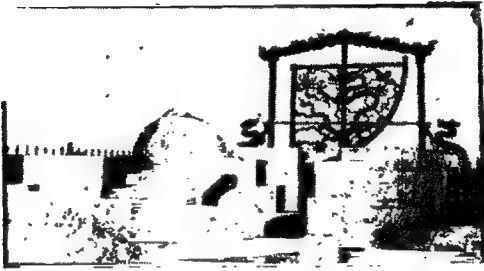
ومن للمناظر التي كنت أنألم لها طوال الطريق السيدات اللواتي كن يسرن في ثقال ويُد ، والواحدة تكاد تترنح ولا يتزن جسمها فوق قدميها اللتين لا تزيدان عن سبابة اليد طولاً وقد انحبس نحوها ونحو عظامها فكان يخيّل إلى



( شكل ١١٥ ) على حافة بطن متزحات بكين وتبدو الفترة الهدية على بعد

أنهن يسرن فوق عصي خشبية دقيقة جامدة وكأن ذلك قد أثر على الساق نفسها  
فدقت من أسفلها ونحفت إلى حد مخيف ، ويأويلها إن حاولت الجرى فانها تتعثر  
بشكل بشع والألم يبدو على وجهها ، ويكاد يكون نصف نساء البلاد من هذا  
النوع ، والأقدام الصغيرة كانت آية الجلال لسيهم ، وكان يحتم الزوج أن يرى  
قبل الزواج حذاء خطيبته فان ظهر بعد الزواج أن قدم العروس كانت أكبر من  
الحذاء الذي أخذه رهينة جاز له الطلاق ، لذلك كان الأمهات يبالغن في تشويه  
أقدام بناتهن وهن صفار ، فكانت تغسل الأقدام بالماء الساخن ثم تلف حولها  
أشرطة من الكتان لقائف متعددة محكمة ، وفي كل ليلة تعيد الأم هذه العملية  
لمدة ثمانية عشر شهراً ، والبنت تنأوه في ألم شديد والأم تسترضيها بالهدايا وتمنيها  
بزواج قريب ، ولقد حرمت حكومة الجمهورية ذلك اليوم وفرضت عليه عقوبات  
قاسية على أن ضعف سلطان الحكومة اليوم وعدم استقرارها شجع كثيراً من  
الأمهات أن يثابرن على تلك العادة القبيحة ولا يزال الشبان يؤثرون في السيدات  
الأقدام الصغيرة كما ثبت لى من محادثة كثير منهم .

زرت في ناحية من بكين قصر الشتاء : بمحاذته الفيحاء وبجمراته الممتدة  
الثلوية تكاد تنقص بنبات الماء وبخاصة البشنيين في زهره الكبير هادى الحرة



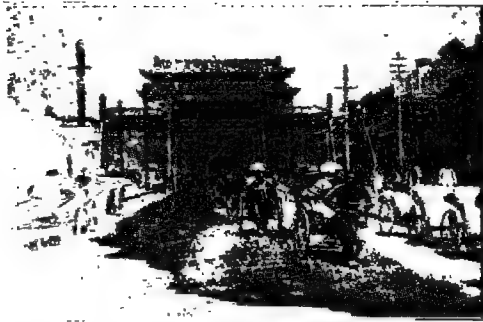
( شكل ١١٦ )

بعض الأجهزة الفلكية في مرصد كوبلاخان أقدم مرصد الدنيا ( يمكن )

أو ناصع البياض وعليها من القناطر المحدة البيضاء شيء كثير بناء ملوك المنج والمانشو في هندسة صينية فاخرة ، ولعل أعجب ما به برجه السامق في شكل فريد في نوعه يطلق عليه القوم ( برج داجوبا الأبيض ) به خمسة طوابق تمثل العناصر الخمسة في زعمهم ، وإلى جوار القصر ربوة تسمى تل الفحم تعلو ٢١٠ قدماً في شكل مخروطي يحفه الشجر ، وفوق الربوة مقصورة في شبه ( باجودا ) صينية تتخذ اليوم مقهى جلست فيه قليلاً فبدت بكين كلها وكأنها غابة كثيفة مغلقة لا يكاد يستبين للرء خلالها أسواراً ولا أبنية اللهم إلا سقوف المدينة الحرمية في لونها الأصفر البراق ، وكلما نزلت مررت بمقاصير أخرى ، وتروى أقاصيصهم ان التل أقيم من الفحم الخالص إبان حكم أسرة ( يوان ) اتقاء خطر الحصار ويقن البعض أنه من الترى التى أخرج من بحيرات قصور كوبلاخان القريبة منه .

قصدت بعد ذلك مرصد كوبلاخان أقدم مرصد الدنيا أقامه كوبلاخان سنة ١٢٧٩ ويحتوى على مجموعة من الأجهزة الفلكية القديمة في أشكال عجبية وعتبوم هائلة صيغت من شبه ونحاس في دقة هندسية بالغة ، ومن أجملها المزولة





( شكل ١١٧ ) « شين من » أغر بوابات سور بكين وأملها أسراب الركفا

الشمسية والقمرية وآلة السدس والكرة الساوية ، وتبدو النجوم بها في بقع بارزة من المعدن الأصفر وتحمل تلك السماء على مجموعة من (التنين) شعار الصين الرئيسي ، وقد احتذاه فردريك الأكبر فساد أول مرصد في أوروبا على نمطه وضع له أجهزته بعض رهبان الجزويت قفلا عن مرصد الصين ، وكانت طائفة من أجهزة هذا المرصد قد وقعت غنيمة في أيدي الألمان إبان حرب المصارعين لكنهم أعادوها اليوم ، وللرصد يقوم على ركن من سور المدينة المائل الذي احتلته بين بوابتي — (شن من) مدخل المدينة الرئيسي (وها من) والسور من أعلاه كأنه الجسر العظيم المهد ترين جوانبه النواذف الجيلة ، وكان ارتفاعه يعادل الطابق الثالث من البيوت الإفريقية ، بجواره واتساعه من أعلاه يعادل شارعاً فسيحاً وتنمو فوقه الأشجار فيسير المرء وكأنه وسط الحدائق المعلقة — ليثت آتجول فوقه ساعتين والمناظر من حولى رائعة ، والذكريات التاريخية لتلك البلاد العتيبة تمر بالخطر فيكبر تلك العظمة ، ثم لا يلبث أن يأسف لزوالها وبخاصة إذا رأى كثيراً من أركان السور قد احتله أجناد الأمريكان والانجليز واليابانيين

والفرنسيين ، ويطل هذا القسم من السور على الحى الأوروبي الذى تقوم فيه دور السفارات .

وخير متنزعات بكين المتزه الأوسط تؤمه الطبقات المتازة تشرف على جداوله وقائمه مقاصير المقاهى المنسقة ، وتصل ما بينها ممشى ضيقة منسقة سقوفها بديعة الهندسة وهو المتزه الوحيد الجدير بالذكر فى بكين التى تعوزها المتنزعات ، وإلى جواره معبد الجرس به أكبر أجراس الدنيا محيطه ٣٤ قدماً ، وله قصة عجيبة إن الامبراطور يونج لولما رغب فى صنعه لم يعجبه رنينه فاستشار العرافين فأشاروا عليه بضرورة صهره ثانية وإحراق غادة عنراء تحته فهدد الإمبراطور صانعه بالقتل إن هو لم ينتج هذا وكانت له بنت خمت نفسها لإقناذ والدها ولا يزال أهل بكين يسمعون خلال صليله أنات الضراء كلما دق هذا الجرس !

وفى ناحية أخرى من المدينة زرت برج الطلبة الذى شيد سنة ١٢٧٢ ، وهو تام الحفظ فى رونق جميل وبنان شامخ يبدو كأنه ( الباجودا ) الهائلة ، وفى قمته ثلاثة طبول كانت تدق كل يوم الساعة التاسعة مساء ١٠٨ دقات إيداناً بساعة الراحة ، وهى على ارتفاع ١٠٣ قدماً ومنظر للمدينة من أعلاها وقت الأصيل رائع ساحر .

**قصر الصيف :** أقلتنا إليه سيارة وهو يقع على بحيرة فسيحة فى سفح التل الغربى ، وكانت تتخذة أرملة الإمبراطور مصطافاً لها هروباً من حركين اللافح ، وقد غالى القوم فى الإسراف فى تنسيقه بين حدائق وقناطر ومقاصير بعضها فوق الربى والبعض فى الوهاد على حجور النقايع التى تكاد تنفس بنبات الماء والبشنيين يتجلى بزهره الخلاب هذا إلى الماشى التى تمتد أميالاً تحت سقوف من الخرف الصينى البديع . أما القناطر فضالها من رخام ناصع فى شكلها الأحذب العجيب ، وفى ناحية من القصر زروق من رخام ذو طابقين يقوم على عمد فى الماء فيخيل إليك وأنت به أنك فى ساحة تمخر عباب اليم وسط الزهور البديعة والحديقة



( شكل ١١٨ )

مكننا تمتد طرقهم الخشبية في أرجاء حدائقهم

على تنسيقها الرائع تمتد أميالا  
ويتطلب تفقدها أياما ، وخلف  
القصر ترى فوق الجبل مجموعة من  
معابد أغرها معبد الحسة آلاف  
بوذا في أشباحها الرهيبة ، وقد أخذنا  
نتجول بالسيارة خلال آثار تلك  
التلال ومن بينها : نبع اليشب الذي  
كان يسقى المدينة التاريخية وقصورها  
وحدايقها ، وحوله ثلاثة أبراج  
( باجودا ) واحدة من ( اليشب )  
والثانية من الخزف والثالثة من  
الصخر ، وكلها تتوج ذرى جبلية ،  
وكانت الغابات حولها تغطي بالوحوش  
وبخاصة الأنمار لذلك كان يتخذها

البراطرة مصادراً لهم ومستراحاً ، وفي جانب من التلال : معبد بودا النائم يرجع عهده  
إلى أسرة ( شانج ) وطوله خمسون قدماً في أرديته الرهيبة وأقدامه العارية . وهنا  
كنت أرى الحجاج يقدمون القرابين وبخاصة الأحذية الكبيرة التي يزيد طولها  
على نصف متر ، والتي تصف تحت أقدام الآلهة بعضها من حرير والبعض من جلد  
أو خوص ، وفي زاوية من المعبد تمثال ( الماركو بولو ) الرحالة الأوربي ، وعلى مسيرة  
ساعة من هذا معبد السماء الزرقاء يعلو في عدد لا يحصى من الدرجات فيتوج ذروة  
الجبل في رخامه الرضاء وأجل ما به ردهة الألف بودا .

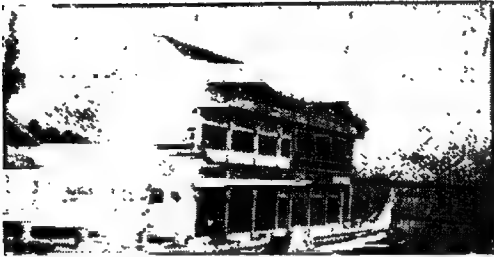
وبعد ثماني ساعات عدنا إلى بكين وسط حقول زراعية كأنها حقول مصر  
والقرى منشورة في كل مكان تموزها النظافة أما الطرق فردثة ومتربة والسير فيها



( شكل ١١٩ ) أمام مقصورة الملكة في قصر الصيف ( بكين )

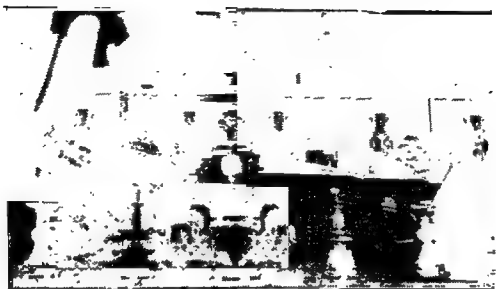
متمتع للغاية خصوصاً وقد أمطرتنا السماء وابلا كساها أوحالا يتعذر معها السير ، أم الجوفار مجهد إلى حد كبير بحيث لا يستطيع الإنسان الانتقال إلا راكباً ، وقد كنت أكتب مذكراتي هذه الساعة السابعة مساء وأنا لا أكاد أطيق قيماً رقيقاً يلامس الجسد والأمطار هنا متقطعة وأقل منها في كوريا وفي اليابان .

**السور الأعظم ( سد يأجوج ومأجوج ) :** لقد تحقق حلم كنت أتمناه طوال السنين وهو أن تتاح لي الفرصة لزيارة سور الصين أحد عجائب الدنيا وكاد يغلب اليأس الرجاء منه لما أن رفضت جميع شركات السياحة هناك القيام بأية رحلة إليه لأن طريقه أضيق غير مأمون وكانوا ينصحونني ألا أذهب خشية اللصوص الذين اختطفوا سيارة بمن فيها من الأمر بكان ولم يمض على الحادث أسبوعان . لبثت حائراً ثم اعتزمت الذهاب مهما كلفني ذلك ، وقد وقتت إلى زميل ألماني في النزل هو مدرس بـ مدرسة خريين حدثته عن السور فرغب في زيارته — ركبنا قطار الضواحي الصغير زهاء ثلاث ساعات ، وبعد أن اجتزنا محطة نانكاو الهامة أخذ القطار يملو في جبال معقدة تكسوها الخضرة ، واخترق بعض الأنفاق حتى ناغتنا السور وكأنه أفرز يطوق الجبال ويتبعها علواً وانخفاضاً



( شكل ١٢٠ ) سفينة من الرخام في بحيرة قصر الصيف ( ييكين )

إلى الآفاق . حللنا محطة السور الأعظم ، وهناك أفلتنا الجير وسارت بنا في وادي كأنه وادي الملوك صخوره نارية وحره قانظ أدى بنا إلى السور فاعتليناه فبدت روعته في تفضنه وامتداده إلى الآفاق وهو يتلوى كالأفصى ، وقد لبثت أسير فوقه ساعتين والذكريات التاريخية المجيدة تمر بالخاطر فتكبر القوم تارة وتخط من قدرهم أخرى إذ كان يتجلى جبروت الإنسان وبطشه بأخيه الإنسان وتسخيره فيما لا ينفع ، وقد قرر الخبيريون أن السور أضخم عمل أنجزته يد الإنسان يفوق الهرم وحدائق بابل المعلقة وهو يطوق الصين من الشمال مبتدئاً من البحر ( عند شاي هاى كواى على خليج لياوتونج ) إلى مراكياو في التبت وطوله في استقامة ١٢٥٥ ميلاً وبتعرجاته وشعابه ١٥٠٠ وعلوه يتراوح بين ١٥ و ٣٠ قدماً وعرضه في أعلاه ١٥ وفي أسفله ٢٥ به ٢٥ ألف برج حربي و ١٥ ألف برج للحراسة ، وكان الصين قد اقتصت في بناء الأسوار حتى قال بعضهم إننا لو جمعنا أسوارهم كلها لطقنا الكرة الأرضية ، أمر باقامته الإمبراطور ( شى هوانج تى ) الذى اعتلى الملك سنة ٢٢١ ق . م وعما نظام الأقطاع وقسم البلاد إلى مديريات ، وكان كلفاً بالمباني الضخمة من بينها قصره الذى وسعت ردهته عشرة آلاف نفس ، رأى هذا العاهل متأملاً أنذرته أن الخطر مقبل من الشمال وقد أيد التاريخ ذلك فان



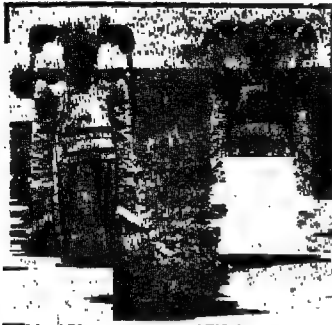
( شكل ١٢١ ) تمثال بودا النائم في ضواحي ييكين

كل ما قاسته الصين من المغيرين جاء من تلك الناحية فأرغم من الناس ثلث الرجال القادرين في الصين كلها ، وكثيراً ما عاقب العلماء وألزمهم بالعمل في السور لأنهم ناوأوه ، وقيل إنه أحرق كتب العلم وفلسفة كنفوشيوس لما أن رأى الناس يجولونها ويكبرون العلماء أكثر من إكبارهم للبراطرة ، ويطلق القوم على السور أحياناً اسم ( أطول مقابر الدنيا ) لكثرة من ماتوا في بنائه ، ولم يتم بناء السور إلا في عهد ليويانج من أسرة هان . وفي عهد أسرة منج دعم السور وزيد في طوابقه ، ولعظيم هذا العمل أحاطه الناس في جميع العصور بخرافات لا تزال عالقة بالأذهان منها أن الإمبراطور كان ساحراً ماهراً ، وكان يتمتع جواداً سبائياً اختط طريقه ، وكان له سوط سحري استطاع به أن يزيل الجبال وينظم صرف مياه الهوانج هو ، وكان يستخدم مرده الجن في جلب الأحجار ، ويخال البعض أن كنوز البراطرة دفنت بين طياته والكثير يعتقد أن السور أقيم سداً في وجه الجن لا الآدميين ويؤيدون ذلك بكثرة المعبودات البشعة التي توضع على منافذ السور كلها ، وما أثار دهشتي أن السور يمتخط أوعر المسالك إذ يسلك الجبال والري العاتية وهذا يتطلب مجهود الجبابة ، وتال البعض أن الأبراج كانت تقام أولاً ثم يوصل ما بينها ، وعند مر



( شكل ١٢٢ ) يتلوى سور الصين الأعظم بين ربي متغوليا الجديدة في كامل روعته نانكاو الذى وقفنا قبائله كان يعلو السور فوق مستوى البحر بنحو أربعة آلاف قدم ، وفى البقاع التى كانت تهددها الرمال أقاموا سلسلة من أسوار خارج بعضها ، هو فى امتداده هذا غالب ثلاث صعوبات : الجبال الشاهقة والصحارى الرملية الجديدة ، وطبقات الأرض المشته ( اللويس ) والعجيب أنى لما زرت مقبرة هذا الامبراطور فى مدافن أسرة منج رأيت الناس يقذفونها بالحجارة فختهم يذكرونه بالتصاره على الصخور التى أقام بها سوره العظيم ، على أنى علمت أنهم يأتون ذلك خطأ من شأنه واحتقار له ، لأنه امتن تقاليد أجداده وأهان العلم وأهله حتى أنهم لم يلقبوه بىانى ( السد ) بل بمبيد الكتب العلمية ، ويذهل المرء كيف استطاع الامبراطور أن يزود السور بالجنود لحراسته على طول امتداده ومن العجيب أنه لم يقن عنهم فى الدفاع قليلا إذ اخترقه جنكيز خان سنة ١٩١٢ وكذلك لم يرد غارات المانشو بعد ذلك ، ولا يعزو القوم ذلك إلى ضعف فى السور نفسه بل إلى خمود الروح العسكرية بين أفراد شعوب الصين الزراعية ، على أنى لما أقيمت على السور نظرة الوداع مر بخاطرى مظهر الهرم الأكبر قبدا السور بجانبه ضئيلا لم يشعرنى بالرهبة والنهول التى يوحىها هرما .

قت من يكن مودعا تلك البلدة التاريخية الجميلة التى يروقتى أن أقيم بها



سنوات فهي أصدق ما تعطي الزائر  
فكرة عن الصين وأهلها ، وقد  
سلكت سبيلي إلى تين تسن  
فشنغهاي ، وكنت من قبل أعترم  
الذهاب إلى هنكاو ومنها في رحلة  
نهرية في اليانج تسي إلى شنغهاي  
لكن هذا النهر الجبار غدر بالمدينة  
فأغرقها وأغار على سكة الحديد  
فتمطلت وسار القطار خلال أراضي

( شكل ١٢٣ ) يبدو صحارى منغوليا مترامية وراء  
السد وتلك أزياء النساء هناك

( اللويس ) الصفراء ذاتمة الخصب  
تلك التي كانت تبدو في بعض

الجهات وكأنها رمال الصحراء تماماً ، ولقد تخافت في تين تسن يوماً كاملاً فلم  
ترقى كثيراً لأنها مدينة غالبها أفرنجي عظيم الامتداد آهل بالجواهر النفيرة من  
صنوف شتى وهي ثمر تجارى غاص بالحركة دائب الجلبة والضوضاء .

وقد وقف القطار طويلاً على تسنان قو فوق نهر الهوانج هو ( الأصفر )  
زاخر المياه عكر اللون في تدفق خفيف ذاك الذى صرفه القوم مبعث أشجان الصين  
منذ القدم لكثرة ما أصابهم وأتاف من أبنائهم ومتاعهم بسبب فيضانه الفامر  
اللباغ على أن فيضه هذا العام كان أقل خطراً من اليانج تسي .

وهنا باغتار ريح صرصر كأنه اعصار ( التيفون ) هز أرجاء القطار ، وصرعان  
ما أظلم الجو وتفتحت أبواب السماء عن وابل غامر وقصف للرعده خفيف ولم تنكشف  
إلا بعد ساعتين ، وكنت أرى المزارعين في الحقول يسرون وسطها وعلى رؤوسهم  
مخاريط من خوص وعلى جسومهم رداء من قش منفوش يبدو كأنه الفرو الثقيل  
فيظير الواحد وكأنه من مرده التصادف المنفرة المضحكة . ضمتنى مائدة العشاء إلى





( شكل ١٢٤ ) فوق سور الصين الأعظم  
( سد يأجوج ومأجوج )

جمع من الشباب الصيني للتقف وكان يقدم لهم الطعام على النظام الصيني وعجبت لما علمت منهم أن من أحب الأغذية لديهم : زعائف السمك وأحشاءه ولحم الكلاب والفيران والضفادع والثعابين وأوكار طير الخطف لأنها من مجموعة أعشاب مائة تروقه كثيرا ، وأجل اللحوم لحم الخنزير فإذا سمعته يتحدث عن اللحم انصرف إليه ويمجبه دهنه الثقيل ، وقد يشرب الرجل منه ثلاث ( سلاطين ) وعند الطعام تقطع هذه اللحوم كلها مختلطة إلى شظايا صغيرة جداً وتخرج بالحساء وترى الواحد منهم يتصيدا من الإناء

بعضيه وقد يمزج الحساء ببعض الأعشاب والخضر الجافة في غير طهي جيد والعناية بالضيف تبدو في الاكثار له من الدهن الطافي فوق الغذاء والحساء ، ويجب أن يناوله المضيف كل ما يطلب بيديه الاثنتين وإلا عد ذلك من قلة الذوق كذلك يناوله بين حين وآخر ما يتصيد من اناثه هو من شظايا اللحم ، وطعام الفنى يغاب أن يكون من الأرز والخضر والخنزير والسمك . أما الفقير فالأرز القفار وإن لم يتيسر له فالقمح أو الشعير أو الندة أو بعض الخضر ، ويندر وجود اللحم لذلك يأكلون لحوم الحيوان للقاءهما كان الحيوان ، وأساس غذاء العمال ( والكولى ) نوع من الفول مخذ كاللحم ويختتم الطعام بالحساء ( عكسه عندنا ) .

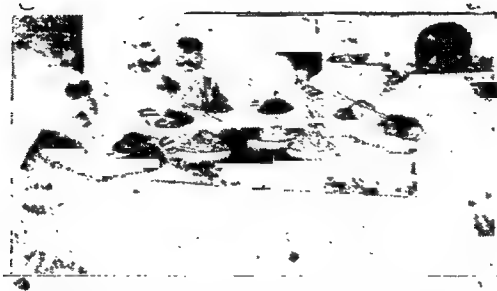
أما أحب أنواع الحلوى فالسكر يزطفو في عصير القصب ، والتسلى بنوى



( شكل ١٢٥ ) تعرض تلك البوابات غالب الطرق في تين تس

المشمس ( واللب ) شائع بين الجميع . أما الأواني فكلاهما من ( السلاطين ) وليس للسياط ولا ( الفوط ) وجود قط ، وفي نهاية الطعام تقدم فوطة مباللة يسمح الجميع بها أفواههم ، وعجيب أن يشتهر طهارة الصين بلذة ما يطبخون على أنه لم يرقنى من طعامهم شئ سوى ذاك الخليط من اللحوم المختلفة . ولعل تلك الشهرة راجعة إلى أنهم يكثر من استخدام التوابل والمواد الحريفة بالنسبة لطهارة اليابان .

تحدثت إلى هؤلاء الشبان فكانت حماسهم القومية بالغة يصبون جام غضبهم على الأجانب ، وبخاصة اليابانيين فهم الذين يفرقون بين أبناء الأمة الصينية ، ويشيرون فريقا على فريق ، ويمعنون في اتلاف أخلاق الصينيين بالمال والنساء ويساعدون على ذلك احتلالهم لمنطقة سكة حديد منشوريا تلك التي يهربون منها الدخائر والأسلحة للثائرين من أهل الصين على أن الحكومة الصينية الوطنية تتبخر على الحالة . يتوفق قريباً إلى القضاء على تلك العصابات الثائرة التي تجري



( شكل ١٢٦ ) أطفال الصين يتناولون الأرز ويشرب اللحم بالصبي في مهارة ممتعة

وراء المنفعة الفانية ، وهم مختلفون في طريقة توحيد الصين ، فالبعض يرى إقامة مجموعة من حكومات مؤتلفة تكون ولايات لها ما للولايات المتحدة الأمريكية من السلطان ، والبعض يرى توحيد الصين كلها في جمهورية واحدة لأن في هذه الطريقة الآن خطر ميل رؤساء المقاطعات إلى الاستقلال والدس لانهر ، ومن عقيات قيام حكومة واحدة اختلاف اللغات بين مقاطعة وأخرى ، تلك التي كان يساعدها رؤساء المقاطعات كي يتم لهم استقلالهم . ولو تم النصر للحكومة القومية أقتذت البلاد من شفا الافلاس لأن مراقبتها اليوم ممطرة ، وكانت قد بدأت حركة صناعية بمعاونة الأجانب ، وبخاصة الأمريكيين لكنها عطلت اليوم لأن م الحكومة منصرف إلى التجنيد وتموين الجيوش التي تؤلف من بين الطبقات الفقيرة وهذه تتخذ الجندي مرتزقا والحكومة لم تؤت بعد السلطان الكافي فنجعل التجنيد إجباريا لذلك لا يتطوع أحد من السراة بل من الفقراء المعوزين .

اللغة الصينية : ويرى مثقفو الصين أن لغتهم غنية بآدابها فيدان الشعر زاخر والإيجاز في التعبير إلى التعمق في المعنى من خصائص لغتهم ، وكنت أرى ( ١٢ — آسيا )

بعضهم يقرأ في كتب الأدب ، وهو مأخوذ من شدة تأثره بالمعاني التي يتلوها .  
ويبالغ بعضهم فيقول إن لم كتباً تقرأ في الصيف ، وأخرى في الشتاء ، فتحدث  
معانيها في نفوسهم ما تتطلبه مناسبات الزمن ، والتأدب في الكتابة أمر يراعى  
بكل دقة فثلاً تبدأ الكتابة هناك من اليمين في أسطر رأسية ( أما اليابانية فمن  
اليسار ، وقد تكتب أفقياً أو رأسياً ) وإذا كان الخطاب للأيوين وجب كتابة  
الاسم في أعلى الصفحة إلى اليمين ثم يترك هذا السطر كله احتراماً ، وكما ذكر اسم  
الأب أو خطابه في أي مكان من سطر آخر ترك باقيه إجلالاً . وهذا يجب اتباعه  
في الكتابة لمن هم أكبر سنًا ومقاماً أما بين الأصدقاء فيكفي ترك مسافة كلمة  
ورد الاسم ، والمواش تكتب في أعلى الصفحات والتأدب في الخطاب يراعى  
بكل دقة خصوصاً مع من هو أكبر سنًا ومقاماً ، فثلاً يعدونه منتهى النوق أن  
يجرى الحديث بين اثنين كما يلي : كم سنك للشرفة ؟ عشرون عاماً ممضة لاخير  
فيها — ما اسم عائلتك الموقرة ؟ عائلي الفقيرة تسمى — ما مهنتك النبيلة ؟ مهنتي  
الوضيعة — كم طفلاً ماجداً عبقرياً عندك ؟ عندي كذا من صغار الحشرات .  
كم قطعة فضية عندك ( يقصد البنات ) ؟ ثلاث بأنسات . ولقمتهم الكتابية  
رسوم رمزية بسيطة كأن يرسم تخطيط يحكي الإنسان ليدل على كلمة رجل ويرسم  
طائر ليدل على ( عصفور ) وهكذا ، ثم أخذوا في تبسيطها لكي تلائم الكتابة  
( بالفرشة ) التي تيجد رسم الخطوط أكثر من الأقواس والنقوش ، لذلك أصبحت  
اليوم سهلة بالنسبة لما كانت عليه من قبل ، وللكتابة هناك شكلان عادي  
دارج متصل كلماته بليات متعاقبة ، وزخرفي يكتب بتكاف وفي رونق جميل .  
ولغة الكتابة يفهما جميع أهل الصين . لكن منطقها يختلف باختلاف الأماكن  
بحيث إذا خاطب صيني من كاتون أخاه من شنغهاي أو من بكين لم يفهم الواحد  
الآخر إلا أن يجأون إلى الكتابة ، وفي مجلسي هذا كان أحدهم من كاتون  
البارزة في الإنجليزية وآخر من شنغهاي ويتكلم الفرنسية وتعجب إذ تعلم أنني

أنا المصري الأجنبي عنهما كنت أقوم بوظيفة المترجم بينهما ، حتى أن العجب يزول إذا علمنا أن الصين بلاد مترامية ، فكل مقاطعة تفوق مملكة أوروبا في مساحتها وسكانها إلى ذلك صعوبة وسائل الاتصال في تلك البلاد .

والحكومة الحالية تحاول توحيد لغة الكلام ، وقد أخذت تنشر لغة ( الماندرين ) في المدارس والصالح فهي اللغة الرسمية اليوم ( وكلية ماندرين معناها الوالى أو الحاكم ) وهى أسهل اللغات الصينية مأخذاً فالشخص يكتب ما يسمع بالضبط .

أما في سائر لغات الصين فإنك تجد لغة الكلام  
مخطوطة لذلك وجب أن نأجأ في الكتابة إلى التلخيص  
والإيجاز لأقصى حد ممكن ، وتلك مهمة لا يطيقها إلا التعلم  
الكفء وقد وضعت الدولة لتلك اللغة حروفاً أبجدية  
عددتها ٤٢ يمكن تركيب الكلمات منها ، وأعجب ما في تلك  
اللغة أن حروفها وضعت لتوحد النطق أعني أنها جمعت  
كل مقاطع النطق الصيني ووحشتها في شمة واحدة لا تحمل  
معنى عند الكثير منهم لأن الرموز الكتابية يفهمها الجميع

والصعوبة في اختلاف النطق ، لذلك كثيراً ما ترى سطرًا من الحروف الجديدة يكتب وإلى جانبه آخر من الرموز الصينية ، ومعنى هذا أن القارئ ينطق بما تدله الحروف الجديدة ( الماندرين ) ويفهم المعنى من السطر الآخر ، ويخالون أنه بعد مضي وقت ممين سيعتاد الناس نطقاً واحداً فتوحد لغة الكلام . وفي الحق أن سائر لغات الصين الأخرى معقدة لمجهودة للتعلم الذي يجب عليه أن يحفظ من رموزها نحو أربعة آلاف كي يستطيع القراءة والكتابة ويزيدها

快 速 决 策 系 列 讲 义

學

留

中國建築師公會  
民促山  
為道中  
總計  
大馬路  
風雪  
要務  
蔡榮  
自員士

(127, 52)

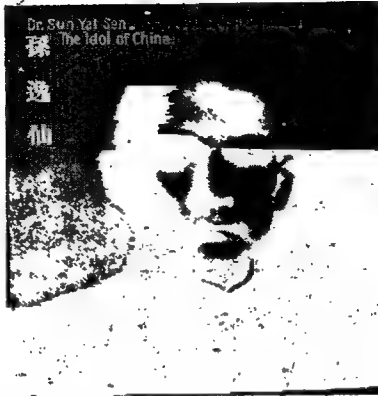
مثل من الكتابة  
التيانية المقدسة وهذه  
بطاقة تقرأ من أعلى  
لأسفل

والصعوبة في اختلاف النطق ، لذلك كثيراً ما ترى سطرًا من الحروف الجديدة يكتب وإلى جانبه آخر من الرموز الصينية ، ومعنى هذا أن القارئ ينطق بما تدلّه الحروف الجديدة ( الماندرين ) ويفهم المعنى من السطر الآخر ، ويخالون أنه بعد مضي وقت ممين سيعتاد الناس نطقاً واحداً فتوحد لغة الكلام . وفي الحق أن سائر لغات الصين الأخرى معقدة للتعلم الذي يجب عليه أن يحفظ من رموزها نحو أربعة آلاف كي يستطيع القراءة والكتابة ويزيدها

صعوبة أن الكلمة الواحدة قد تكتب على عدة أشكال لتؤدى معانى مختلفة ،  
فمثلا ( تشى Chi ) تكتب على ١٣٥ شكلا لكل واحد معنى مختلف ( من معانيها  
الفرخ ، وادفع ، وتذكر ، وعديم البصر ) وهى لغة المقاطع حقاً ، لأن كل كلمة  
مقطع واحد ، حدث أنى طلبت إلى أحدهم أن يكتب لى اسمى بالصينية فدرىث  
طويلا وقطع اسمى إلى ( سا بى ) فى مقطعين ثم كتب الرمزىن .

وحساب الشهور ليسهم قرى ولو أن الحكومة الحديثة أدخلت الحساب  
الشمسى ، لكن الفلاحين لا يعرفون إلا السنة القمرية ، وليس للشهور عندهم  
أسماء بل يحصونها بالقر ( الشهر الأول والثانى الخ ) وفى الأساليب الكتائية  
الراقية يضعون اسم زهرة لتدل على الشهر ( تقويم زهرى ) وتلك الزهور يكاد  
يحفظها الجميع بحيث لو كتبت احداها حرف الواحد منهم الشهر الذى ترى إليه  
أما تاريخ السنة فيقاس بالنسبة للحكام كأن يقال مثلا اليوم السادس من الشهر  
الخامس من السنة العاشرة للإمبراطور فلان ، ويعرف هذا العام بالسنة العشرين  
للجمهورية وتحسب أعمارهم بالطريقة عينها .

كنا نتوقع أن نصل ( بوكاو ) على الضفة الشمالية ليانج تسى منتصف التاسعة  
لكننا وصلناها بعد الساعة الواحدة لكثرة موافق الطريق بسبب نقل الذخائر  
والجنود وبذلك نكون قد قطعنا المسافة بين تين تسن وشنغهاى فى خمسين ساعة  
أما الأقليم فتنى جداً بمزارعه وسهوله وأنهاره وكنت ألاحظ تغيراً مستمراً فى لون  
التربة التى أصبحت هنا سمراء تشوبها حمرة بعد أن كانت فى حوض الموانج هو  
صفراء كأنها رمال الصحراء المجدبة على ما بها من خصب شديد ، وكان المنظر  
كله مصرياً ، أما غالب القرى فأكواخ من اللبن أهلها قدرون تبدو عابهم علام  
الفاقة ، وغالب الأراضى ملك لطائفة من الأغنياء يحملون المدن الكبرى ، وكان  
انقوم فى قذارتهم يعرضون المأكولات من فاكهة وبخاصة الخوخ الكبير  
الحجم - استمتعوا بالبرقوق والكثيرى والبطينخ كذلك الدجاج المشوى فى لون أحمر



( شكل ١٢٨ ) الدكتور سن يات سن زعيم النهضة الوطنية

وحجم كبير ، وبعض أنواع من عيين أبيض يتهافت القوم على التهامه وعجبت  
لرخص المبيعات إذ كانت الدجاجة تباع بقرش واحد ، وكانت غالب السهول  
حول القطار غارقة في لجة تحصر المياه بيوتها وقراها التي كانت تبدو وكأنها الجزائر  
الصغيرة ، غدر بتلك المسامح الشاسعة نهر اليانج تسي هذا العام فأغرقها فأضحى  
الملايين بدون مأوى وكنا نمر عليهم يتزاحمون بقلوب متاعهم إلى الجسور وجوانب  
الحاط في شكل يؤلم الفؤاد ، وقد فتحت الحكومة لهم اعتماداً بثلاثين مليون  
جنيه للاتفاق على أعمال الإقاذ ، وقد أضحي اليانج تسي إلى ٦٠٠ ميل من مصبه  
بحراً خضماً لا شاطئ له وقد أصاب أياغ الضرر منطقة هانكاو حيث علا الماء  
٥٢ قدماً ويقال إن فيضه هذا العام لم يقع مثله منذ خمسين سنة .

وصلنا بوكاو فبدت مدينة أشبه بمدن المراكبة عندنا ثم أقلتنا السابحة عبر  
اليانج تسي الخضم المائج بمائه الدافق العكر واتساعه الذي يفوق النيل بكثير ورسونا

على ضفته الجنوبية في نانكنج القديمة ، وما كدنا نبرح السابحة حتى بدت صفوف الركشا وهي غارقة وسط الماء إلى نصف ارتفاعها ، وأنى لى أن أصف لك موقفى وأنا أركب الركشا يجرها رجل يخوض فى الماء إلى وسطه ، وهي تتمايل بمنة ويسرة فى اضطراب خفيف ورشاش الماء لا بل وموجه يضرب فى أقدامى وحقاتي حتى أتلف لى منها الكثير ، ولبثنا نجوب شوارع المدينة على هذا النحو ، والمياه تكسو الطابق الأول من الدور والحوانيت إلى نصف قمة الرجل بل ويزيد ، وللدعش أنها كانت مفتحة ، وحركة البيع والشراء قائمة فى نشاطها العادى والناس يروحون ويغدون خوضاً وهم مستسلمون لقسوة اليانج تسى ، وبعد أن اجتزت سور للمدينة القديمة قصدت نانكنج الحديثة ( ومعناها العاصمة الجنوبية ) وهي عاصمة فاخترة تكاد تشبه شنغهاى وقسم كبير منها أوربى ، ولعل أجل ما بها مدفن الدكتور سن بطل الجمهورية ومعبود الوطنيين ، فهو يقوم فى بناء من رخام تأخذ روعته بالألباب ، على أن القوم كانوا يحرمون التصوير هناك بثباتا ولم أدر الحكمة فى ذلك ، ومن آثارها القديمة القيمة برج من خرف أبيض ( باجودا ) جميل ثم دار الامتحان التى كانت تتسع لعشرين ألف طالب ، وحائط المدينة الذى يتصل بالحائط القديم .

الى شنغهاى ( ومعناها على البحر ) : قمت إليها فوصلها القطار فى ثمان ساعات ، وتلك هى المرة الثانية التى أزورها لأننى حللتها أولاً بطريق البحر فى طريقى إلى اليابان ، وقد رست السفينة بها ثلاثة أيام وأذكر أن السفينة ظلت خارج الميناء طويلا تنتظر ارتفاع المد فبدأ على بعد إلى يميننا مصب يانج تسى الذى يحاطه المرء ببحراً لا تستبين شواطئه ، وتبدو أمامه جزيرة مستطيلة وسط مائه العكر التى كان يحكى ماء النيل إبان الفيض بعد ذلك دخلت السفينة فرعاً يتصل به من الجنوب اسمه هوانج بو ، وهو وحده يفوق النيل اتساعاً ، وقد أقيمت أرصفة للميناء على ضفتيه مسافة قطعها السفينة فى ساعتين . وهو يلاقى اليانج تسى وراء شنغهاى



بنحو ١٣ ميلا . أما الميناء  
فصاحبة تكاد تنقص بمجاهير  
السفن على اختلاف حجوها  
وجنسياتها ، وقد أذكرتني في  
منظرها العام بشار روتردام  
تماماً ومشهدا ونحن مقبلون  
عليها يحكي بلاد مصرف  
انبساط السطح التي لا تكاد  
نرى للرب فيه من أثر إلى  
ذلك الخضرة النظرة التي  
تمتد إلى الآفاق .



بدأت جولاني في الأحياء  
الأفريقية ودوائر النفوذ

الأجنبي ، وهي قيمان ( شكل ١٢٩ ) سيدة من المائتو في الزى الصيني  
رئيسيان القسم الفرنسي (French Concession) والبوند أو شارع البحر الذي  
يشمل غالب الجاليات الأجنبية ، وأكبر الجاليات الأجنبية هناك اليابانيون ثم  
الروس ثم الانجليز والفرنسيون ، وتلك الأحياء عظيمة رائحة البناء بالفسحة النظافة  
والتنسيق تحكي أكبر المدن الأوروبية بل تزيد حسناً ، ولعل أكبر الشوارع  
( نانكين رود ) . وشارع ( جوفر ) ، والبوند ، وهي مراكز الحركة التجارية  
والمالية ، وكنت أرى البوليس هنا من أجناس عدة . الهنود في الأحياء الانجليزية  
ثم الفرنسيون في الفرنسية ، وهكذا على أن البوليس الصيني كان يجانبهم دائماً ،  
والحركة في الطرق تسير على أحدث النظم التي في باريس ولندن ، ووسائل النقل  
متعددة وجلها في أيدي الأجانب من ترام وأتوبيس ذى طابقين هذا إلى الركشا

التي تملأ الآفاق أما (التاكسي) ففي حظائر خاصة وطيك أن تسير إليها طلباً للسيارة إن أردتها ، وترى في أرصفة الميناء في قبالة تلك الطرق الرئيسية البوارج الحربية لكافة الدول الأجنبية ، وهذا لا شك مما يجرح كرامة الصين وتآلم له كثيراً والحكومة الجمهورية القومية جادة في التخلص منها ، ومن دوائر النفوذ الأجنبي وامتيازاتها ، وإن كان الأجانب يرمون الصين بعدم الكفاءة في مباشرة ذلك بنفسها .

قصدت الأحياء الوطنية من شنتهاى ، وهى بقايا المدينة القديمة للمسورة ، ولن أستطيع أن أصور مبانى سرورى واغتباطى ، وأنا أسير بين أزقتها التي تحكى خان الخليلي عندنا ، وتكاد تختنق بلوحات الاعلان المتلاصقة التي تزينا بقع ملونة من الخط الصينى الواحدة تحت الأخرى ، وهناك تعرض مصورات البلاد القنية من تصوير وخرط وترصيع وخيزران ونحاس زخرفى ، ومصاسح من ورق صينى ملون ، وفى كل تلك الطرق ترى الجماهير الدافقة متلاصقة متكاثفة فى مظهرهم الصينى البحت ، عيون متفتحة وخدود ناتئة وأنوف نصف فطساء وأفكاك بارزة وقامات قصيرة وشعر أسود حالك هادل . أما الهندام فالأغنياء والمتوسعين متشابه ، وكذلك للرجال والنساء وإن كان هندام الرجال أكثر جاذبية والرداء قطعتان سروال يربط فوق العرقوين ، وهو للنساء أقصر قليلا لى يظهر جمال الأقدام الصغيرة المشوهة ! وتعلوه شبه جمازة ( جاكته ) قصيرة ، وفوق هذين جلباب فضفاض طويل الأكمام مفتوح من جانبيه إلى ماتحت الساعد ويشتبك طرفاه بالأزرار وله ياقة عالية تأخذ بمختمهم رجالا ونساء ، ويغلب أن يكون من حرير ثمين للأغنياء ، وتطوى أطراف الأكمام لتقوم مقام الجيوب ، وإلا حمل أشياء فى منديل قد يتعده خادمه . أما الأحذية فمن قماش لا يبقى القدمين شر الرطوبة ، ولهاها اخيرت كذلك لكبلا تشجع على المشى الذين يعدونه عيباً بلعهم إليه العوز ، وغشاء الرأس قلنسوة من حرير . أما الفقراء فردائهم كأنه



( شكل ١٣٠ ) في ناحية من مصف الشاي في شنغهاي وإلى اليمين منظره اللتوية

البيجاما الفضفاضة من قاش أسود لامع كالجلد ، وقبعاتهم كأشياء أطباق الخوص  
المخروطية المسننة .

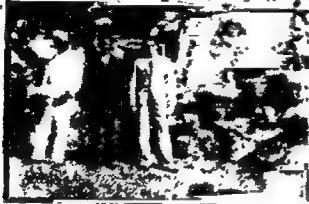
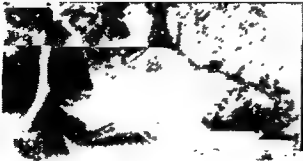
دخلنا مقصف الشاي المشهور عند الأفرنج يرجع إلى خمسة قرون مضت ،  
وهو مجموعة من مقاصير الخشب تكسوها السقوف الصينية بأركانها المديبة تنقوس  
إلى السماء ، وهو يقع وسط بحيرة شاسعة نصل إليه بقناطر تسير في خطوط متكسرة  
إلى اليمين واليسار لكي تدفع عنهم غوائل الجن الذين كانوا ولا يزالون يخشونه  
كثيراً ، والقصف غاص بالحركة مأنج بالناس ، وهم منكبون على تناول الشاي الصيني  
الأخضر ولا أثر للسكر فيه ، جالسنا وشربنا ذلك الشاي الذي استمتعنا به وبتلك  
الجلسة رغم أن المكان تعوزه النظافة ، وهنا شعرنا بالحياة الصينية التي تغاير جاتنا  
في مصر كل المغايرة .

وإلى قرية منه زرنا معبدتين أحدهما لبودا والآخر لكنفوتسيوس وهي مظلمة  
الداخل تضاء بها مئات القناديل ويطلق البخور حول تماثيل بودا ، تحفها تماثيل  
حفظته من المردة والتنين شعار البلاد وقد أحرق القيسر لأحلتنا سلسلة من أوراق

مالية زائفة فداء للآلهة ثم أطلق حزمة من بخور وناولنا إحداها تبركا لأنها تطيل العمر وتسعد الطالع ، ورأينا هناك امرأة تصلى للتمثال وهي راكعة ، وراحها متلاصقتان تسير بهما إلى الآلهة وتعود فتضمها إلى صدرها وتسجد مراراً وهي تتسم وهناك مقصورة يؤمها النساء اليائسات من الحمل كي ينفك عقمن .

ثم انتقلنا إلى حديقة للاندرين أحد الحكام الأقدمين ، يتوسطها قصره في الخرط الصيني العجيب ، وبه مقصورة للاستقبال وأخرى للمائدة . بجانبها مقعد لتدخين الأفيون الذي كان أساساً في كل بيت وثالثة للنوم وكثير غيرها كلها تقوم وسط القناعات تنصع بالسلك الملون والصخور المنثورة وكأنها الجنادل والمنحدرات إلى شجر مزهر جميل ، مما يدل على حياة البذخ التي عاشها أولئك الجبارة ، وفي خارج المدينة تقوم ( باجودا ) هائلة في طبقات سبع لا تزال من آيات الصين القديمة .

وشنهای أثناء الليل تبهز النظر وتثير الدهش من عدة وجوه ، فالأضواء والثریات ذوات الألوان الخاطفة تظل مشرفة وضاءة طوال الليل وهي في إشراق كبير ، فواجهات الأبنية الضخمة تنقشها تلك الثريات في أشكال هندسية متباينة حتى في طرقها المختنقة ، وعجيب أن تظل الحوانيت مفتحة ، وحركة البيع والشراء قائمة إلى ساعة متأخرة من الليل ، قد تكون الثانية عشرة ، أما الجماهير الدافقة من كل صوب في كثافة تعيق السير في كل الطرقات ، فذاك أمر لم أره في بلد قط حتى ولا في باريس نفسها ، وكان يخيل إلي أن رواد الشوارع ليلاً أكثف منهم نهاراً رغم شدة التزامح في المدينة صباح مساء ، وكلهم سائرون وكأنهم البحر المائج وقد لبثت أجوب تلك الأنحاء إلى الثانية صباحاً ، ولما تحف كثافة الجماهير ، أما ابتذال النساء فحدث عنه . فهو يبدو في شكل مروع بين أجنبيات — وبخاصة الروسيات — ووطنيات . كل تلك المظاهر جعلتني أفهم أن اللقوم الحق أن يطلقوا على شنهای ( بايس الشرق ) فهي تفوق في ذلك ( باريس الغرب ) ،



(شكل ١٣١) أمام حجرة تدخين الأفيون  
في القصر القديم لحاكم شنتهاي

ويلفت النظر بوجه خاص مياههم  
جميعاً للاختلاف إلى المراقص  
التي لا تحصى بين أجني وصيني .  
وقد دخلت مرقصاً صينياً ،  
وهنا تجلى التناقض التام  
والتصادم بين القديم والحديث  
فالوسيقى تدق أنثاماً أوربية ،  
والصيفيون يخاضرون الصينيات  
ويعاقرون الخمر وهم يلبسون  
جلابيبهم الفضفاضة التي تحكى  
( القفطان ) ، فصور لنفسك  
منظر شيخ معمم يخاصر غادة

ويراقصها ! وهؤلاء هم بالطبع النشء النائر على الرجسية القديمة ، ولو أنى أرى في  
ذلك كثيراً من التطرف للمقوت ، ويظهر أن عدوى الأجانب وبخاصة أباحيي  
روسيا من جهة والحروب الأهلية التي بدأت منذ زمان بعيد من جهة أخرى ،  
هذا إلى تذوق شعب رجى عتيق لحرية العصر الجمهورى ، كل ذلك كان  
سبب ذاك الاندفاع الشائن في تيار المجون .

ومن الأندية الكبيرة التي تجمع بين الألعاب الرياضية والمراهنات — تلك  
التي يتكالب عليها أهل الصين بمختلف أنواعها — مكان اسمه ( أوديتوريوم )  
لشباب أرمنى الأصل مصرى الجنسية ، يدر عليه رجماً طائلاً وهو يوظف فيه  
جمهوراً كبيراً من هواة الرياضة ، وقد حذا حذوه كثير من المصريين أصحابه ،  
وما كنت أتوقع أن أسمع عن مصرى يغامر بنفسه وماله في مثل تلك المنشآت

في أقاصى الأرض ، وهذا الشاب ( هايج أسديان ) مهذب منقذ كان من أساطين الرياضة في مصر وظل زماناً بطل الملاكمة عندنا وهو من كبار مشجعى الحركة الرياضية اسمه يرن في أرجاء شنتهاى ويعرفه الجميع مما جعلنى غوراً أن من المصريين من بدأ يطلب العمل (ولو في الصين) .

أما قيمة شنتهاى التجارية فمظيمة فهي العاصمة التجارية للصين والمصرف الطبقى لنفلات اليانج تسى أغنى أحواض الصين ، وأكثفها سكاناً ، ويزيد عدد فاطنيها على مليون ونصف ، وهي بلدة حديثة العهد إذ كانت قبل سنة ١٨٤٢ مرسى صغيراً لخفاف الزوارق ، على أن مرفأها عرضة لأن تطمره الرواسب من النهرين لذلك تطلبت التطهير على الدوام ، وقد كابدت باخرتنا طويلاً من قلة العمق حتى أمنت الوقوف على الشاطئ ، وقد أقام القوم سداً عند تلاقى النهرين كي يحول جزءاً من تيار يانج تسى ورواسبه الكثيفة إلى البحر مباشرة بدل أن يسيل إلى هوانج بو فيسد الميناء .

وقد كنت أس الكساد التجارى من أثر الأزمة الحالية إذ كانت المبيعات تعرض بكافة الطرق وبأمان بخسة : خذ مثلاً الحرير الذى كان يباع للتر من أنواعه الجيدة الجذابة بما بين خمسة قروش وعشرة ، ومما زاد الأزمة سوءاً هنالك إهمال الزراعة في السنوات الأخيرة وهي مورد تسمين في المائة من الناس لأن المتبجين أصبحوا غير آمنين على إنتاجهم فأثروا إهمال الأراضى ، إلى ذلك كثرة طفيان مياه الأنهار وتوالى القحط وزول سعر الفضة . وهي أساس عملة الصين وبخاصة سد أن فكرت الهند في العدول عنها إلى الذهب فباعت مقادير كبيرة منها للصين فكان ذلك من أسباب انحطاط سعرها هناك ، يضاف إلى ذلك الأثر السىء للحرب الأهلية التى أقلت كاهل البلاد بالنفقات ، ودعت إلى إهمال الإنتاج ، وزاد الحالة سوءاً عدم احاطة المرأة على أموالهم لذلك تقلعوها إلى بلاد الشواطىء فتكدست هناك ، كذلك أوقف الممولون الأجانب إرسال قوائدهم وألهم إلى ملادهم اكيلا بنحسروا فرق التبادل



(شكل ١٣٢)

مثل من الأبراج الصينية الفاخرة في شنغهاي  
 كنفهر الجو وباغتنا بالوابل وماج المحيط  
 الهادى فأوجس الجميع خيفة عواصف بحار الصين ذاتمة الصيت تلك التى ترفع  
 من مياه البحر عمداً تتصل أطرافها بسحب السماء الدكناء فتمتد بالبحر وما يشقه  
 من سفائن ، وقد أبرقنا اللاسلكى فى الغداة نبأ السفينة التى أدركتها (بعد أن أفلتت  
 نحن منها) إلى الشرق منا على مقربة من جزائر الغالين فأغرقها ، وأمثال تلك  
 العواصف التى يسميها القوم (تيفون) يزيد هبوبها فى ذاك الفصل . تجلت هنج  
 كنج فى صغرة سامقة كثيرة التعاريج يوغل البحر فيها بالنسن لا حصر لها تحوطها  
 الربى الخلالة بكثرة نبتها نسقت على جوانبها الأبنية الفاخرة فى مدرجات بدبعه  
 وتعلو كثيراً من جوانبها الحصون لينة . وتقوم العسكرات العاتية ، ويقابل الجزيرة

بسبب نزول قيمة النقد الصينى ،  
 كل ذلك زاد فى تكديس الأموال  
 فانحطت الفائدة وضوعف نزول  
 قيمة النقود الفضية حتى كان الريال  
 يساوى أربعة قروش ونصف .

الى هنج كنج (ومعناها  
 التهر المطر) : قنا مودعين شنغهاي  
 تلك البلدة التى يسميها بعض  
 الأجانب بحق (مدينة الشيطان)  
 أو (مدينة الهوى) لما حوت من  
 مختلف لللاهى وشأن للفاسد إلى  
 الجلبة والضوضاء التى لا تحبو ليلا  
 ولا نهاراً . أقبلت السفينة على هنج

كنج فى أقل من ثلاثة أيام ، وفى

صباح اليوم العشرين من أغسطس  
 كنفهر الجو وباغتنا بالوابل وماج المحيط  
 الهادى فأوجس الجميع خيفة عواصف بحار الصين ذاتمة الصيت تلك التى ترفع  
 من مياه البحر عمداً تتصل أطرافها بسحب السماء الدكناء فتمتد بالبحر وما يشقه  
 من سفائن ، وقد أبرقنا اللاسلكى فى الغداة نبأ السفينة التى أدركتها (بعد أن أفلتت  
 نحن منها) إلى الشرق منا على مقربة من جزائر الغالين فأغرقها ، وأمثال تلك  
 العواصف التى يسميها القوم (تيفون) يزيد هبوبها فى ذاك الفصل . تجلت هنج  
 كنج فى صغرة سامقة كثيرة التعاريج يوغل البحر فيها بالنسن لا حصر لها تحوطها  
 الربى الخلالة بكثرة نبتها نسقت على جوانبها الأبنية الفاخرة فى مدرجات بدبعه  
 وتعلو كثيراً من جوانبها الحصون لينة . وتقوم العسكرات العاتية ، ويقابل الجزيرة



( شكل ١٢٣ )

الأضواء الخاطفة ليلا في شوارع شنتهاى (باريس المرق)

وغالب الجانب الاسيوى للوطنيين تقابله المباني المتنازة على مدرجات الربى التى تتألف منها جزيرة هنج كنج الكبيرة وتوابعا ، طفتنا بأرجاء المدينة وكأنها من كبريات بلدان أوروبا بالغة النظام والتنسيق غالب طرقها يعلو فى منحدرات قد نصلها فى درجات عديدة اعتائنا أهمها إلى ترام هواى (فونكاير) إلى ١٢٠٠ قدم ثم أخذنا نسير صعوداً فى طرق ثمانية سريعة المنحدر تنقلنا من ريو إلى ريو ، وفى النروة محطة لاسلكية هامة تحوطها الحديقة التى حوت مجاميع قيمة من النبات وأعلى ذروة فى الجزيرة تسمى (جبل فكتوريا) وفى أسفلها يشرف على البحر من تيمبل عظماء الانجليز ، وفى مقدمتها الملكة فكتوريا ،

من الجانب الاسيوى حتى كالون ، التى أرغمت الصين على تركه للانجليز ، ثم يليه من الداخل إقليم كاتون الصينى ، والبوغازيين الجزيرة والقارة هو الرفأ المدود عظيم الأرضة نظمت على حوانها المراسى ، وقد زودت بالروافع والقضبان تنساب فوقها صرعات النقل تسهلا للتجارة ، وحركتها صاخبة لا تحبوقط ، وهى تعد من أجمل مين العالم وأمنها موقعا وأوفرها تجارة إذ تناهز متاجرها أربعة عشر

مليوناً من الأطنان كل عام ،





( شكل ١٣٤ )

نقف السفينة بنا في مياه هنج كنج ومن وراثنا  
صخرتها الصهيرة

وسكان المدينة من الصينيين  
وأجناد البوليس من مسلمي  
الهنود ، وفي المدينة عدد كبير  
من الهنود يقوم بالأعمال  
الوضيعة ، كالخدم وحراس  
المنازل وما إليها ، وغالب  
الصينيين من طبقة الحمالين  
(الكولي) أما غالب التجار  
وأصحاب الثروة فمن  
الأوراسيين وبخاصة الانجليز ،  
أذكر أنني قصدت مطعماً فآخرأ  
ومعى زميلان من مهذبي  
الهنود صحافى قدير وطالب  
يقصد إتمام تعليمه في أمريكا  
وما أن أبصر صبية المنزل

بالهنود حتى صاحوا يرفضون دخولنا إذ لا يباح دخول الهنود احتقاراً لشأنهم  
فخرجنا نجبر أذياننا ولم أستحسن تركهما لأتناول الطعام وحيداً ، فقصدنا نزلاً آخر  
هو أدنى أبهة من الأول ، وكدنا نصادف المعارضة بعينها لولا أن ألحفنا فانتحوا بنا  
ركناً قصياً عن الآكلين كيلا يرانا أحد . واعتذروا لنا بأن لديهم من الأوامر  
ما يمنع دخول الهنود . فقال زميلي الصحفي وهو يتحصر : رأيت كيف يعاملنا  
الأجانب في بلادنا ؛ وعيناه تدرقان الدموع .

وجو هنج كنج متوسط الحرارة بخير الأمطار التي لم تكد تنقطع زهاء  
الثلاثة الأيام التي أقمتها بها ، وإن أنس لا أنسى منظر الربى الرائع إبان الليل

حكائه برج سماوى بزياته الوضاعة تنتشر على جوانبه فى غير حصر ، وكنا نعجب للكثير من السكان الذين يقطنون زوارقهم حتى قيل إن نحو خمسين ألفاً يعيشون فوق الماء فى كانتون وهنج كنج ، وفى مؤخر الزورق قبو من خشب أو قش ينامون فيه ويعدون طعامهم وترى الأطفال الذين لا يكادون يستقيمون على سوقهم كل يمسك بسنارته أو بسلة من شباك الخيط يدلى بها إلى اليم وسرعان ما يقيمها وبها قنصه من السمك وهو غذاؤهم الرئيسى ، وتلك المدينة كسائر بلاد الصين مكتظة بالسكان إذ لا تزيد مساحتها على ٣٥٦ ميلاً مربعاً ، لكنها تؤوى من السكان ٦٦٢ ألفاً . احتل الإنجليز الجزيرة سنة ١٨٤١ ثم ضمت لها منطقة ( كولون ) سنة ١٨٦٠ وزيدت مساحتها حتى اتصلت بكانتون .

وعجيب أن تمون أرضها الفقيرة جرائتية التربة هذه الجوع الغفيرة ، وعاصمة المستعمرة مدينة فكتوريا التى يطلق عليها اليوم هنج كنج ، وسكانها وحدها ٣٤٠ ألفاً تتوجها قبة فكتوريا وعلوها ١٨٢٠ قدماً ويدير حكومتها حاكم عام ويعاونه مجلس تنفيذى من تسعة ومجلس تشريعى من أربعة عشر ، والمستعمرة قودها الخاصة وإن كانت تتبع نظام النقود الفضية ، ولذلك كان سعر عملتها قد هبط هبوطاً مروعاً كسائر بلاد الصين ، وذلك من حظ الزائر الأجنبي لأنه يجد الحياة هناك رخيصة جداً ، وهنج كنج كلمة معناها الماء العذب أو النهر المعطر لكثرة مسابيلها الدافقة فى خوانق متلوية ، وكان يسميها البرتغاليون قديماً ( لادرون ) أى جزائر الصوص لما كان لأهلها من سمعة سيئة فى القرصنة إذ ذاك .

وهذا هو المكان الوحيد الذى استطاع الفرنسيون أن يدخلوا منه بلاد الامبراطورية السيوية ، كما كانت تسمى الصين من قبل ، تلك التى ظلت محوطة بالأوهام والأسرار والأفاميص التى زادت البلاد ابهاماً ، وكانتوت التى تواجه هنج كنج أكثر سكاناً تنهبها مليون ونصف . وهنا بدأت ثورة الصين ضد



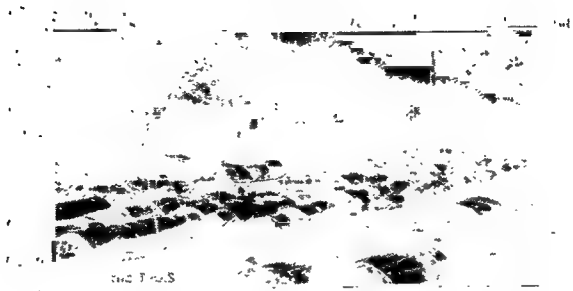
( شكل ١٣٥ ) في ميدان فكتوريا بهنج كنج

نظمها القديمة "فطرده حكام  
للمناشو وبدأت الجمهورية  
الحديثة هنا لأن أهلها أقل  
رجية من سكان الشمال .

قت من هنج كنج مودعاً  
بلاد الصين تلك التي عرفت  
بشدة تمسكها بالقديم إذ يوقنون  
أن أجدادهم بلغوا الكمال كما  
أيد حكنفوشيوس لم ذلك ،  
فالأسلاف هم المثل العليا عند  
الصيني لذلك قعد عن التحديد  
وخد عقله وعجز عن استثمار أرضه

الخصبة تلك التي تركت تحت رحمة الفيضانات تارة والجفاف أخرى وأسرف  
في قطع الغابات حتى عراها عما كان يقبها شر التقلبات المناخية هناك ، ونظام العائلة  
هناك يبنى على الرهبة ، فالرباط العائلي توثقه التقاليد والدين والقانون لحد جعل  
الاخلاص للعائلة دون غيرها واجباً وقد قضى هذا على التعاون بين العائلات فلم  
يحدث في تاريخ الصين أن أبناءها تعاونوا مرة على إصلاح بلادهم في أية ناحية ،  
ولذلك ثبتوا عند تأخرهم القديم ، ولعل أسوأ أثر لتلك العزلة وذلك التفور بين  
العائلات قتل الشعور الوطني إذ لا يضحى الصيني صوالح عائلته الخاصة في سبيل  
الصالح القومي العام ، ولهذا لا تعطف مقاطعة هناك على غيرها من جاراتها قط  
هما أصابها من نكبات ، ولم يؤلفوا جبهة متضامنة ضد المغيرين والمعتدين سواء  
من الداخل أو من الخارج ( وهنا الفرق الرئيسي بينهم وبين اليابانيين ) فالعائلة  
أساسها الأب ، وهو شبيه بالآله ساطته لا تعارض حتى لقد كانت من حقه بيع  
( ١٥ — آسيا )

أولادهم قتلهم ، أما الأم فكمية مهلة ليس لها على أولادها سلطان وبخاصة الذكور حتى إذا شب الولد لا يستمع إلا لأوامر أبيه . أما البنت فضطهدة بأئسة ، لذلك لا يسأل الوالد أذكراً رزقت أم أنثى بل : أدرة أم طينة ؟ والزواج هناك مبكر جداً ، والعزوبة تكاد تكون معدومة لأن البقاء هكذا جريمة اجتماعية في ظنهم ، والقاعدة الزواج من واحدة لكن للزوج الحق في اتخاذ ما شاء من الخليلات على قدر ثروته فكلما كان غنياً فاخر بكثرة محظياته وبيوته التي ينفق عليها ، وكثيراً ما نرى من السراة من يحوز عشر نسوة ومن بينهم رئيس الجمهورية الحالي ، والزوجة الرسمية يدفع لها مهر بنسبة ثروتها ومتوسط المهر مائتان من الجنيهات ، وإذا ما دخلت بيت زوجها دفعت مبلغاً مساوياً له ويتسلم الزوج المبلتين لاستثمارها ، والعادة أن المائلات الكبيرة ترفض أن تعطى فتياتها كخليلات مهما كان مركز الزوج ، وأقل ما يدفع مهرًا للخليلة مائة جنيه ، وكنت أعجب من شبانهم حتى المثقفين وهم يتكلمون عن الخليلات وكأنه أمر طبيعي ، وبعضهم يؤثرهن على الزوجة لأن فيهن شيئاً من الحرية والتجديد وضمان النسل الكبير ! والعادة أن الزوج إذا مات لا تزوج أرملته بل تظل طول حياتها . أما الزوجة فان ماتت فلزوج أن يتزوج من غيرها ، والميراث يقسم بالتساوي بين الذكور من الأبناء سواء في ذلك أبناء الزوجة الشرعية والخليلات ، أما النساء فلا يرثن إلا إذا أوصى الأب بغير ذلك ، والزوجة خادمة لزوجها ولأمره ، ولا يتحسن مركزها إلا إذا وضعت ذكراً فان خلفت أنثى فياويلها ، والمرأة المقيم يجوز طلاقها وإلا تبني الرجل أحد أقربائه ، ولا يتنزل الزوج فيجلس مع زوجته وأولاده إلى مائدة الطعام رغم ما لهذا من الأثر في تربية النشء ، كذلك لا يجوز أن يأكل الإخوة مع الأخوات إذا بلغوا السابعة ، وإذا أحصى رب العائلة أفراد أسرته أهمل عدد الأناث ، ونساء الطبقة الراقية محجبات لا يخرجن إلا محمولات على ( الكراسي المعلقة ) ويحفل البعض أن ذلك راجع إلى عادة تصغير الأقدام التي تعيقهم عن



( شكل ١٣٦ ) تقص أمهاتهم وقنواتهم يزوارقهم الى يخفونها مساكن لهم .

السير ، وعند ما يرزق أحدهم بمولود يطلق البخور أمام الدار ، وتعلق علامة خاصة ثم يدثر الطفل بثياب آباءه لمدة شهر لكي تتسرب إليه فضائلهم ، وبعد الشهر يحلق شعره ويلبس ملابس الحراء ، ويؤخذ رأى المشعوذين في اختيار طالع سميد وعندئذ تقام وليمة يقدم فيها النييذ والبيض الخضب باللون الأحمر إذا كان المولود ذكراً ، وترسل لكل مدعو بيضة حمراء وعلى المدعوين تقديم الهدايا والنقود ، والعجب أن الطبقات الفقيرة التي لا تكفيهم مواردهم أن تكون عائلة كبيرة يتخلصون من بناتهم ، وهناك خارج القرية يقوم شبه برج على ربة يضع الرجل فوقه طفله ويتركها فيجىء الآخر ويلقى بها إلى داخل البرج لتتوت ، ويضع هو طفله مكانها وبذلك لا يقتل الرجل بنته بل طفلة غيره وهكذا ، وقد اعتاد الخيرون من أصحاب الملاهي أن يملأوا تلك الأبراج وينقلوا ما يجدون من الأطفال إلى الأديرة لتربيتهم .

والصيني قد خلف فيه فقره وتوالى النكبات عليه الأناثية والفساد والقسوة ، وهو يرى في كثرة الموتى بسبب الأوبئة أو النكبات مخففاً لويلاته ، وقد علمت أن نسبة الوفيات في الأطفال هناك ٥٠ ٪ ، وعدد من هلكوا بسبب الحروب

الأهلية الحالية عشرون مليوناً ، لذلك شذ عن الياباني في أنه فقد روح التعاون اللهم إلا في التجارة تلك التي يحتكرها عدد من الشركات التي يناهز عددها مليوناً ونصفاً ، وهي تنفق على تحديد الثمن الأدنى . أما الحد الأقصى للثمن فيترك لمهارة البائع .

وكثيراً ما يتساءل الناس حكيف لا تفي مساحة الصين الشاسعة التي تعادل مساحة أوربا بحاجة أهلها ، وهي ذات التربة الخصبة والأنهار العظيمة والأيدي العاملة المتعددة التي تقدر بربع سكان المعمورة والكنوز المعدنية الوفيرة التي قيل إن الفحم وحده بها يفوق غم انجلترا عشرين مرة ، كل ذلك ولا تستطيع تلك البلاد تموين أهلها مع أن أوربا وهي أكثر سكاناً وأصغر مساحة تمون شعوبها الفنية المعروفة ، ويظهر أن السبب يرجع إلى دخول الصيني رغم ما عرف عنه من صبر عظيم فهو ظل متمسكاً بوسائل الإنتاج القديمة في الزراعة وأصنعت بلاده حقلاً للارز نجسب مع أنهم أحصوا بالبلاد نحو ١٢ ألف فصيلة نباتية ، ولم يمن بالصناعة التي يحتقرها الجميع لأنها عمل يدوي دليل الامتحان ليسهم وهي دعامة النهوض والفنى في أوربا وأمريكا واقتنع الملايين منهم بمزاولة مهنة (الكولى) للحمل وجرا الأثقال تلك الأيدي التي لو تضافرت على عمل منتج لأنت بالمعجزات إلى ذلك عنايته بالماضى ، فهو يبذل كثيراً على مقابر أجداده ونعش والديه فخياته تكثير مستمر في الموت ، وساعد على هذا التأخر نظام الطبقات ، فالممتازة المحترمة ليسهم اثنتان فقط : الحكام والأدباء ، ولا يزال الجاهل يحتقر نفسه ويقدر المتعلمين ، وهؤلاء هم الأقلية ، لذلك فقد رأى العام هناك لأن السواد الأعظم هم العامة والجهلة وانعدمت الطبقات الوسطى رغم أنها خير كاسخ في البلاد الأخرى لطفيان الطبقة الارستقراطية ، لذلك كان لهاتين الطبقتين امتيازات يعترف بها الجميع ، وهم يحتقرون العامة ويرفضون عن محادثتهم ، وكثيراً ما ركب معي أمثال هؤلاء في القطار يحوطهم

جمع من الأتباع الذين يخضعون لهم خضوعاً شائعاً ، وكانوا يصعدون لهم الأوامر في  
صيفة الاستعباد الشائن ويصعرون لهم الخد ولا يسمحون بإبتسامة لأولئك البائسين ،  
ودهننا مرة لما رأينا أحدهم يمسح لسيده وجهه بقطيلة ( فوطاة ) مبللة ونحن في  
القطار وهو لا يكاد يتحرك نهباً وعجباً ! فعلى تلك الطبقات الممتازة تقع مسئولية  
تدهور البلاد ، لأنهم بترفعهم طوال السنين عاونوا ذاك التأخر الذي أضاع مضرب  
الأمثال .

﴿ تمت بحمد الله ﴾

# فهرس الكتاب

صفحة	صفحة
٧٦ ... .. سلطنة جوهور	٣ ... .. مقدمة الطبعة الأولى
٨١ ... .. اليابان (نبذة تاريخية)	٤ ... .. » » الثانية
٨٤ ... .. كوبي	٥ ... .. الهند (نبذة تاريخية)
٩٧ ... .. إلى بوكوهاما	٨ ... .. إلى عدن وأرض سرنديب
٩٨ ... .. كاماكورا	١٠ ... .. عدن
١٠٠ ... .. طوكيو	١٢ ... .. جزيرة سرنديب
١١٢ ... .. إلى نككو	١٤ ... .. إلى كاندى
١١٨ ... .. إلى هاكونى	١٧ ... .. إلى الهند
١٢٤ ... .. إلى كيوتو	١٩ ... .. مدراس
١٢٨ ... .. أمانواشداتى	٢٤ ... .. إلى كالكوتا
١٢٩ ... .. إلى نارا	٣٢ ... .. إلى دارجيلنج
١٣٠ ... .. إلى يمادى آيسى	٣٤ ... .. بنارس كبة الهندوس
١٣٤ ... .. إلى أوزاكا	٤٠ ... .. إلى دلهى
١٤١ ... .. النهوض الصناعى	٤٧ ... .. إلى أجرا
١٥٢ ... .. خطر السكان	٥٢ ... .. إلى بمباى
١٥٧ ... .. اخلق القوى والنظام الاجتماعى	٥٥ ... .. البقر المقدس
١٦٨ ... .. إلى شيمونوزكى	٥٨ ... .. عبر الدكن
١٧٠ ... .. كوريا	٥٩ ... .. الطبقات والنبوذون
١٧٢ ... .. سيول	٦٤ ... .. عود إلى مدراس
١٧٥ ... .. إلى منشوريا	٦٨ ... .. خاتمة
١٧٧ ... .. مكدن	٧٣ ... .. الملايو (ستافوره)



٢٠٠ ... .. قصر الصيف	١٨٠ ... .. الصين ( نبذة تاريخية )
٢٠٢ ... .. السور الأعظم	١٨٤ ... .. إلى بكين
٢٠٩ ... .. اللغة الصينية	١٨٨ ... .. معبد كنفوشيوس
٢١٤ ... .. إلى شنغهاي	١٩٣ ... .. معبد السماء
٢٢١ ... .. إلى هنج كنج	١٩٤ ... .. معبد الزراعة

## فهرس الخرائط والصور

صفحة

- ٤٢ ... حريق الجثث في كلكتا ...  
 ٤٣ ... ذرى الحملايا ...  
 ٤٤ ... شعوب الجبال ...  
 ٤٥ ... مدرجات الكنج في بنارس ...  
 ٤٦ ... الاستحمام في نهر الكنج ...  
 ٤٧ ... محرق الجثث في بنارس ...  
 ٤٨ ... القردة المقدسة ...  
 ٤٩ ... الديوان الخاص بملهى ...  
 ٥٠ ... مسجد اللؤلؤة » ...  
 ٥١ ... المسجد الجامع » ...  
 ٥٢ ... منار قطب » ...  
 ٥٣ ... تاج محل باجرا ...  
 ٥٤ ... تاج محل ليلا ...  
 ٥٥ ... مقبرة اعتماد الدوله باجرا ...  
 ٥٦ ... برج الياسمين » ...  
 ٥٧ ... مسجد القلعة » ...  
 ٥٨ ... محطة فكتوريا في بمباى ...  
 ٥٩ ... برج السكون » ...  
 ٦٠ ... عبدة النار ...  
 ٦١ ... البقر المقدس ...  
 ٦٢ ... المتبوفون ...

صفحة

- خريطة الهند ... ٥ ...  
 مستودع الماء في عدن ... ٧ ...  
 عربات الماء في عدن ... ٩ ...  
 مدخل عدن ... ١١ ...  
 شارع رئيسى في عدن ... ١٣ ...  
 ميناء كولبو ... ١٥ ...  
 بين كولبو وكاندى ... ١٧ ...  
 القيلة ترح في الطريق ... ١٩ ...  
 شجرة التزجيل ... ٢١ ...  
 زراعة التزجيل ... ٢٣ ...  
 شجر الوز ... ٢٥ ...  
 قمة آدم ... ٢٧ ...  
 بحيرة كاندى ... ٢٩ ...  
 معبد السن المقدسة ... ٣١ ...  
 عروس سنهالية ... ٣٣ ...  
 زعيم برهمى ... ٣٥ ...  
 مقسولو البرهمن ... ٣٧ ...  
 الزوج وزوجته ... ٣٨ ...  
 المحراب الهندوسى ... ٣٩ ...  
 البناء التذكارى في كلكتا ... ٤٠ ...  
 موضع الحجر الأسود ... ٤١ ...

صفحة

الموسيقىات المتجولات ...	١٠٣
شارع جزيرا ...	١٠٥
قصر الامبراطور ...	١٠٧
إلى معبد اساكوسا ...	١٠٩
التمثيل الياباني ...	١١١
معبد مييجي ...	١١٣
محل متسوكوشي في طوكيو ...	١١٥
معبد أياسو ...	١١٦
معبد نكو ...	١١٧
طرق نكو ...	١١٨
مصاييح الورق في النهر ...	١١٩
شجرة رأس السنة ...	١٢٠
عيد الفتيات ...	١٢١
عيد العبية ...	١٢٢
فوجي ياما ...	١٢٣
مراسيم الشاي المنزلى ...	١٢٥
حقول الشاي ...	١٢٦
منتزه ماروياما في كيوتو ...	١٢٧
الجسر السابوى ...	١٢٩
أكبر نواقيس اليابان ...	١٣١
الغزلان المقدسة ...	١٣٣
صخرة فوتامى أودا ...	١٣٥
الأطفال يصلون ...	١٣٧
قطار تحت الأرض في أوزاكا ...	١٣٩

صفحة

أمير هندى ...	٦٣
القردة في القطار ...	٦٥
قبائل الفدا في سيلان ...	٦٧
الفقراء الهنود ...	٦٩
» » ...	٧١
الهندوس يتناولون الطعام ...	٧٢
مسجد سنغافورة ...	٧٥
جمع المطاط ...	٧٧
صخرة بناج ...	٧٨
بيوت الملايو ...	٧٩
معبد الأقاعى ...	٨٠
خريطة اليابان ...	٨٤
البحر الداخلى ...	٨٥
حسناء يابانية ...	٨٦
زينة الشعر الياباني ...	٨٧
الغرام بالزهور ...	٨٨
مثل من يوتهم ...	٩١
الموسيقى اليابانية ...	٩٣
قصيرات اليابان ...	٩٥
سوق موتوماتشى ...	٩٦
شعر يوكوهاما ...	٩٧
بودا في نظراته الوديمة ...	٩٨
بودا في كاماكورا ...	٩٩
المدخل الرئيسى بطوكيو ...	١٠١

صفحة	
١٩٣ ... ..	صفر الأقدام للسيدات
١٩٥ ... ..	الأقدام المشوّهة
١٩٧ ... ..	متنزه في بكين
١٩٨ ... ..	مرصد كوبلاخان
١٩٩ ... ..	بوابة بكين
٢٠١ ... ..	شرفات الحدائق
٢٠٢ ... ..	قصر الصيف
٢٠٣ ... ..	سفينة من رخام
٢٠٤ ... ..	تمثال بودا
٢٠٥ ... ..	سور الصين
٢٠٦ ... ..	أزياء منغوليا
٢٠٧ ... ..	سد يأجوج ومأجوج
٢٠٨ ... ..	بوابات تين تسن
٢٠٩ ... ..	أطفال الصين
٢١١ ... ..	الكتابة الصينية
٢١٣ ... ..	زعيم النهضة الصينية
٢١٥ ... ..	سيدة من المانتو
٢١٧ ... ..	مقصف الشاي في شنغهاي
٢١٩ ... ..	قصر حاكم شنغهاي
٢٢١ ... ..	برج صيني
٢٢٢ ... ..	شنغهاي ليلا
٢٢٣ ... ..	ميناء هنج كنج
٢٢٥ ... ..	ميدان فكتوريا
٢٢٧ ... ..	زوارق الصين

صفحة	
١٤١ ... ..	سميرات اليابان
١٤٣ ... ..	جيشات اليابان
١٤٥ ... ..	التوم على الشلت
١٤٧ ... ..	قطف ورق التوت
١٤٩ ... ..	فلاحات اليابان
١٥١ ... ..	تربية دود القز
١٥٣ ... ..	مصانع الحرير في أوزاكا
١٥٩ ... ..	التحية اليابانية
١٦١ ... ..	عروس في زى الزفاف
١٦٧ ... ..	سيدة من الانيو
١٦٩ ... ..	بوابة مياجيما المقدسة
١٧٠ ... ..	بوابة سيول
١٧١ ... ..	قصر سيول
١٧٢ ... ..	معبد شوزن في سيول
١٧٣ ... ..	أزياء كوريا
١٧٥ ... ..	حسنة كورية
١٧٧ ... ..	بوابة مكدن
١٧٩ ... ..	سيدات منشوريا
١٨٠ ... ..	خريطة الصين
١٨١ ... ..	المدينة المحرمة
١٨٣ ... ..	قطار الصين المحدبة
١٨٥ ... ..	التعفن الصيني
١٨٧ ... ..	معبد السماء
١٨٩ ... ..	محكمة صينية قديمة
١٩١ ... ..	الركشا

# الجولات المطبوعة للمؤلف

---

جولة في ربوع أوروبا

بين مصر وإسبانيا

عن طرائف المدينة الأوروبية ومشاهدها ونظمها الاجتماعية

جولة في ربوع آسيا

بين مصر واليابان

عن بدائع الشرق الأقصى ومدهشاته (اليابان والصين والهند الخ)

جولة في ربوع افريقية

بين مصر ورأس الرجاء الصالح

عن عجائب القارة الغامضة وغايات جوفها وأسرار همجها وأخطار وحوشها

جولة في ربوع الشرق الأدنى

بين مصر وأفغانستان

عن مميزات بلاد إيران والعراق والأفغان والأناضول والشام

جولة في ربوع الدنيا الجديدة

بين مصر والأمريكتين

عن مددهشات الدنيا الجديدة ونقائس بلاد المغرب والأندلس

## مطبوعات مكتبة النهضة المصرية

الرقم	اسم المؤلف	اسم الكتاب
٤٠٠	الدكتور حافظ عفيفي باشا	الانجليز في بلادهم
١٠٠	» طه حسين بك	أديب
١٠٠	» » » »	حافظ وشوق
٨٠	للرحوم أحمد شوقي بك	الشوقيات — الجزء الثالث
٥٠	للأستاذ حسين عفيفي المحامى	مناجاة
٥٠	» » » »	وحيد
٨٠		جولة في ربوع أوروبا
٨٠		» » » آسيا
٨٠	للأستاذ محمد ثابت	» » » إفريقيا
٨٠		» » » الشرق الأدنى
٨٠		» » » الأمريكتين
٧٠	للأستاذ محمد صابر	حياة الفراعنة
١٠٠	» يوسف فهمي	من غور المحيط
٦٠	الدكتور سميد عبده	الجمعة القيمة
١٥٠	للأستاذ إبراهيم رمزي	باب القمر
١٠٠	» يوسف قادرس	نابليون
١٠٠	» توفيق الحكيم	عودة الروح (جزءان)
٢٥٠	» » »	محمد
٢٠٠	للآنسة بسيمه زكي	الطبخ الشرقى
٦٠	للأستاذ فهمي حشيش	مداعبات عفريت
١٠٠	» محمد شوكت التوفى	جهاد الأم فى سبيل الدستور
٢٥٠	الدكتور فؤاد صروف	فتوحات العلم الحديث
٢٥٠	» » »	أساطين العلم الحديث
٤٥٠	» يوسف عبد العزيز حموده	الأمراض التناسلية
	» أحمد خليل عبد الخالق	رعاية الطفل
١٥٠	للرحوم محمد عبد الرحيم ترة	كليلة ودمنة بالصور

والمسكية تحوى أكبر مجموعة من أحدث المؤلفات والمجلات والكتب أدبية وعلمية إنجليزية وعربية

